صفحات من تاريخ الصراع بين العصبية والدين

الموالى فى العصر الأموى

ومذيل ببحث عن الرق والولاء فى الإسلام

بقلم
محمد الطيب النجار
الحائز لدرجة الأستاذية فى التاريخ الإسلامى
وأستاذ التاريخ بالأزهر الشريف

[الطبعة الأولى]

١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م

دار النيل للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الباحث القدير الأستاذ الكبير أحمد الشايب
وكيل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

— ١ —

أما بعد فإنى أشعر — وأنا أقدم هذا البحث القيم الطريف لصاحبه الأستاذ الشيخ محمد الطيب النجار — أنى أقدم فى حقيقة الأمر عهداً جديداً من عهود الأزهر الشريف، وأؤرخ فترة من عمره المجيد، هى فترة تحول وانتقال فتح بها لنفسه أبواب الحياة الجديدة ودخل إليها مشرفاً على مقوماتها، مشاركا فى بنائها، آخذاً بمناهج البحث العلمى وطرائقه : حراً جريئاً موفقاً فى وصل الثقافة الإسلامية الخالدة بما تزخر به الدنيا من حديث فى العلم، والأدب، والقانون، والفلسفة، والفن، حتى لا يبقى منذ الآن محايداً منعزلاً، ينكر الحياة أو تنكره الحياة، فى حين أن ثقافته الأصلية أرحب صدراً وأوسع أفقا من كل ما يتصايح به الناس هذه الأيام من كلمات الإنسانية والعالمية والبشرية وما إليها، وهى كلمات تقصر معانيها عندهم عن مغزى هذه الدعوة المحمدية التى كانت للناس كافة، خيراً وحرية، وعدالة وسلاما.

نعم شعر الأزهر الشريف أنه من العقوق أن يعفى على ماضيه الجليل الذى كان منذ قرون عشرة موئل العلم والفلسفة والدين يحفظها ويدرسها، ويفتح فى ميادينها، ويبيح فيها من الفروض ما قد يتجاوز حد الخيال أو الوهم، غلواً فى العمق، وذهاباً مع الفكر إلى أبعد آماده. ثم يدير الجدل ويشقق الكلام

مفرعاً ، مداوراً ، جاهداً حتى ينضيه اللغوب ، فلا ييأس ولا ينثنى ، بل يعاود ويعاود ويسجل آثاره متوناً وشروحاً وحواشى وتقارير ويتركها للأجيال تقرأ فيها جهود الجبابرة الصابرين ... شعر بذلك . وشعر بشىء آخر ، هو أن هذه الآثار الجليلة قد تصعب على الناشئين المترفين من الطلاب ، وقد تتجافى — ولو فى أساليبها — عن مقتضيات العصر الحديث . وإذاً لا بد من جهد جديد يقرب بين الحاضر والغابر ، ويصل بين التليد والطريف ، ويبعث هذه الكنوز الذهبية حللا منشرة مألوفة للناس ، مؤثرة فى الحياة ، عاملة على تقويمها وصلاحها ، ملتقية مع مايبتدعه الغربيون من نظريات ومخترعات ؛ فلا جمود ، ولا تخلف ، وإنما هو التعاون والتنافس فى سبيل الإنسانية الرشيدة والمثل الكاملة إن شاء الله .

— ٢ —

وإذا كان الأمر كذلك — وهو كذلك طبعاً — فلا بد أن يصطنع الأزهر الشريف مناهج الجامعات العصرية وإن لم تكن غريبة على تاريخه المجيد . وسبيله فى ذلك من حيث الموضوع أن يقبس من أصول ثقافته وفروعها ما يلائم مطالب الحضارة ورقيها ، ويسد حاجتها وعوزها ، ويضيف إليها ما لا يتعارض ومصادرها الاسلامية السمحة الكريمة . وأما من حيث الشكل فهو عرض ذلك فى نظام منطقى متواتر سليم ، وفى أسلوب علمى واضح جميل تهفو له النفوس فتقرؤه علماً نافعاً وفناً رفيعاً ممتعاً ، يفيض على الحياة الفردية والاجتماعية هدى ورشاداً وتقدماً وسداداً .

ولو أسرع الأزهر خطاه ، وتقدم من بعيد إلى الحياة الحديثة ، يطاولها ويلابس جوانبها رائداً سباقا لغنينا به عن هذه الجامعات ، أو لكان هو أولى جامعاتنا المدنية المعاصرة .

ومع ذلك فلم يتخلف الأزهر طويلا حتى أخذ بنظام الجامعات وفتح أبواب

الدراسات العليا ، وفرض على الطلاب بحوثاً جديدة يتقدمون بها للظفر بالدرجات العلمية الممتازة ؛ وبذلك يذكى فيهم روح البحث والاستقلال وينمى فيهم الحرية الفكرية ، ويخدم بذلك العلوم والطلاب والحياة والأحياء .

نعم يخدم الحياة والأحياء ، فيجب أن يكون الأزهر الشريف فكرة وقيامة على العالم الإسلامى أو العالم كله يتولى أمره ، ويكمل نقصه ، ويعد نفسه مسئولا أمام الله عن سلامته الروحية والمادية ؛ فيستبق رجاله إلى رعاية المسلمين فى أطراف المعمورة يقومون دينهم ودنياهم ، ولا يقفون عند حدود الوظيفة ورسومها التى تحبس جهودهم ، وتغل نفوسهم ، وتفقدهم ماهم أهله من كرامة وزعامة تضعهم فى الطليعة أمام الناس جميعاً .

فهل يسمح لى حضرات السادة الأجلاء رجال الأزهر الشريف أن ألفتهم إلى أن كثرة من المسلمين فى أرجاء العالم لا تحسن أداء الشعائر الدينية ، وأن كثرة المسلمين لا يعرف بعضها بعضاً ، وأن هذا التعارف عن طريق الكتاب والسنة واه خلق مزقته البدع والمذاهب ، وأن الكرب والبلاء يحدقان بكيان العالم الإسلامى ، وأن على رجال الأزهر من جراء ذلك واجباً خطيراً لا يليق التقصير فى أدائه ، ولا تنفع مع هذا التقصير المعاذير ؟!

— ٣ —

كل ذلك وغيره كثير جداً ذكرته وأنا أقرأ ثم أقدم هذا البحث لشيخ شاب من متخرجى الأزهر الحديثين فى كلية أصول الدين . ولا أستطيع أنا ، ولا يستطيع أحد ، أن يقدر فرحى وابتهاجى كلما لقيت هذا الجيل الجديد ، واستمعت إليه ، وتبينت منه مزاجا علمياً عقلياً يجمع بين جلال القديم خلقاً وفضلا وعلماً ، وبين جمال الحديث ذوقاً ، وسماحة ، وبياناً ... ثم ماذا ؟ ثم فهماً لحرية البحث العلمى فهماً سليما لا يعدو على الأصول المقررة جرياً وراء الصيت الزائف ، واصطناعاً للبطولة الباطلة على حساب الحق العلمى والقدسية الدينية الصحيحة .

نعم تحققت من كل هـذا ومن خير منه حين زارني الأستاذ محمد الطيب النجار يعرض على فى حياء مؤدب رقيق أن أقرأ رسالته هذه وأن أقدمها للقراء ، فلم أتردد . وكان من الواجب على للعلم وللشاب الشيخ ولرسالته ، أن أحاول ذلك واثقاً من أن حسن ظنه بي يربو كثيراً جدا على كفايتي لما يبغى ، ولعل أسماء بعضنا ألمع وأزهى من حقيقتنا .

موضوع الموالى من الموضوعات التي تستحق البحث من جوانبها السياسية ، والاجتماعية ، والأدبية ، والدينية ، والعلمية ؛ وبخاصة فى التاريخ الإسلامى بعد ما كان للموالى قبل الإسلام تاريخ يونانى ، رومانى، عربي ؛ ثم جاء الإسلام يمثل معهم دوره فكان رفيقاً ينزع إلى حد نظام الرق وكسر شوكته ، ورفع مهانته عن بنى الانسان . ولذلك كان الموالى فى ظل هذا الدين السمح عنصراً عاملا فى بناء الحضارة الإسلامية ، متقدما سباقاً ينعم بهذا الأصل القرآنى الكريم : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وأن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وعندى أن ظفر الموالى بهذا الحق الطبعى كان فى الدولة الاسلامية إما حقيقة واقعة ، وإما حقاً مقرراً جار عليهم فيه — أحياناً — الحكام لا الإسلام . وذلك هو ما حملهم على التشبث به ولو حاربوا الدولة فى سبيله وأزالوا بناءها الشامخ العتيد .

نظر الأستاذ محمد الطيب النجار إلى موضوع الموالى من جوانبـه كلها ، وتمثل لموضوعه منهجاً سليما ، وأقدم عليه يعالجه دارساً متأنياً مستقصياً ، لا يزدهيه جديد يشتط به إلى مجاوزة المعقول ، ولا يعميه تعصب يقف به دون الحق ؛ فلام من قصر من المسلمين فى حق الموالى : وعرف لهم فضلهم ، وسجل مآثرهم فى جوانب العلم ، والأدب ، والدين .

وإذا كان المنهج التاريخى فى مثل هذه الأبحاث هو خير المناهج وأمثلها فقد سلكه الباحث ، وها هو ذا يتتبع موضوعه قبل الإسلام ، وفى حياة الرسول وخلفائه

الراشدين . وكيف كان مقتل عمر بن الخطاب نقطة تحول فى صلة العرب بالموالى ؛ ثم ما كان للعصبية من آثار فى حال الموالى أيام الأمويين ، وما كان للأوضاع السياسية والاقتصادية من انحراف فى معاملتهم عن النهج الواضح الأصيل ، ومحاولة عمر بن عبد العزيز أن يعود بهم إلى عهد ابن الخطاب . ولكنه كان شذوذاً بين آل مروان فلم يمت حتى ساد ذلك الطابع الأموى . وكان الموالى لذلك أعواناً على ثل عرشهم وزوال دولتهم ونقلها إلى العباسيين .

ثم عرض شيخنا الشاب إلى الإلمام بنشاط الموالى فى الجانب الثقافى ، وأشار إلى رجالاتهم المعدودين فى فروع العلم والأدب ، وانتقل إلى بذور الشعوبية فى العصر الأموى ، ثم أخذها ذلك الشكل العملى مع الثائرين على بنى أمية وظهورها سافرة صريحة فى القرن الثانى .

وهنا ينتهى الجانب التاريخى المسلسل ، ويقف الباحث آخر الأمر وقفات نقدية موفقة حاول فيهـــا ما استطاع أن ينتصف للموالى من الأمويين ، وأن ينتصف للأمويين من التاريخ ؛ ثم وازن بين منزلة الموالى فى ظل الإسلام ومنزلتهم فى غيره ، وأنهى قوله بتوضيح نظرة الإسلام فى الرق والولاء وما يتصل بهما من أحكام .

— ٤ —

تلك إشارة خاطفة إلى موضوعات الرسالة ومنهجها لا تستطيع أن ترسم جوهرها ولا قيمتها ، وإنما ذلك من عمل القارئ الذى لايسعه إذا بدأ فى الرسالة أن ينصرف عنها دون استيعاب فصولها والاستمتاع بمزاياها ؛ وذلك لما خضعت له من تنسيق حكيم ، ومادة سائغة ، وأسلوب علمى واضح دقيق .

أجل كانت أهم المسائل تدرس بين يدى الباحث فى بيئتها الدينية الأزهرية ، فاستطاع لذلك أن يكون الفيصل فيها وأن يتعقب من سبقه من الباحثين مؤدباً كريماً ، وأن يوسع أفق بحثه ؛ فيتناول مقوماته الأخرى السـياسية والأدبية والاجتماعية ، وأن يكون فى تعبيره أديباً عالماً حراً عادلاً .

ويسرني ويسر الأستاذ الجليل الشيخ الطيب النجار أن أسجل هنا أن الأب وابنه يمثلان طبقتين من علماء الأزهر الشريف ، طبقة جليلة تنهج نهج الدقة والاحتياط حين تكتب في المسائل العلمية ، وبخاصة الشائكة العتيدة منها كعلم الأصول يمثلها الوالد في رسالته التي قرأت قسماً منها إلى الآن وهي « تيسير الوصول إلى علم الأصول » ؛ وطبقة نشيطة يمثلها الابن ، وهي التي تستعد لتسلم الراية في نشاط ويسر كأنها أفلتت من تحرج السابقة أو كانت مثال عصرها المستقبل الجديد ... فليطمئن الوالد وليهنأ الولد ، ولتكن منهما سلالة علمية مطردة إن شاء الله تعالى .

واعجبْ للباحث الأزهري الجديد حين تراه يحرص على المراجع ، فلا يكتفي بالقديم دون الحديث ولا بالمطبوع دون المخطوط ، ولا يكتفي بالعربي دون الأجنبي ، فإذا ما أعوزته معرفة اللغات الأوربية لجأ إلى من ينقل له عنها ؛ فهل اقتنع الأزهر أن دراسة اللغات الأجنبية ضرورة ملحة للقيام بمهمته الثقافية والدينية ؟

— ٥ —

هذه رسالة يجب أن تخرج إلى السوق العلمية لتلقى جزاءها وتؤدي واجبها الثقافي ؛ ولا يصح أن تحبس فتنسى أو تنشر بعد أوانها أو تصير نهباً للعادين .

قلت ذلك للأستاذ محمد الطيب النجار بعد ما قرأت رسالته وأشرت عليه أن يعقبها ببحث آخر عن الموالي في الدولة العباسية ؛ وأنا واثق أنه ، إن فعل ، سيجد في مجال البحث أبواباً طريفة ، وتغيراً عجيباً يعرف منه كيف يديل الله من شعب لآخر . والله يقلب الليل والنهار .

وإذا كان لي أو علي أن أقول شيئاً بعد ما قدمت فإني أهنئ الأستاذ النجار بباكورة جهده ، وأهنئ الأزهر الشريف بأمثاله ، وأرجو أن يضطلع بمهمته موفقاً لخدمة الإسلام والمسلمين .

القاهرة في { ربيع الآخر ١٣٦٨
فبراير ١٩٤٩

أحمد الشايب

فهرس الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ وجد الإنسان على ظهر الأرض وهو يدين بالأثرة وحب الذات ، ويتعلق بأذيال الأنانية ، وطالما ساقته هذه الأنانيـة إلى مهاوى المطامع ، فكان يستأثر بالخير دون غيره ، ويحاول أن يحتجن النعيم لنفسه ، وتبعاً لذلك كانت تثور البغضاء وتنشب الحروب ، ويتخبط العالم بين الويلات القاسية والأخطار الجسام .

وتاريخ الإنسانية حافل بذلك الصراع العنيف بين الأطماع البشرية المتعارضة التى لا تزال تنمو وتزيد ، والتى لا تهدأ حيناً إلا لتبدأ من جديد . وقد حاولت الشرائع السماوية والقوانين الوضعية أن تكبح جماح هـذا الصراع ، وأن تخفف من غلوائه وطغيانه ؛ ولـكن غرائز الشر كثيراً ما كانت تتغلب وتنتصر ، فيعود العالم إلى سيرته الأولى ، وتصبح القوة وحدها هى التى تتحكم ، وهى التى تنقض وتبرم .

ولا شـك أن الموضوع الذى نحن بصدده . وهو « الموالى فى العصر الأموى » إنما هو فصل فى رواية الحيـاة الطويلة . يدور حول هذا الغرض . ويتجـه إلى ذلك الهـدف . . . فهم قوم شعروا بأن حقوقاً قد اغتصبت منهم ، وظلماً قد حاق بهم . فقاموا يكافحون هذا الظلم ويسعون إلى التخلص من أغلاله . حتى استطاعوا بعد قرن من الزمان أن يحققوا الـكثير من آمالهم وأهدافهم .

وقد حبب إلى الـكتابة فى هذا الموضوع ما رأيته من أن المـكتبة العربية تكاد تـكون شاغرة من مثل هذه الموضوعات التى تلقى ضوءاً كافياً على التيارات الحزبية والحركات القومية ، والطبقات المتنوعة فى ذلك المجتمع الاسلامى الواسع الأكناف . ولفت نظرى إلى البحث فى تاريخ هـذه الطبقة ـ طبقة الموالى ـ ما كنت أجده

مبعثراً فى كتب الأدب والتاريخ وغيرهما من أخبار تبدو كأنها متناقضة فبعضها يدل على احترام الموالى وحسن معاملة العرب لهم ، والبعض الآخر يدل على ما كانوا يلاقونه من زراية وتحقير ومعاملة سيئة فى عصر الأمويين . فأحببت أن أتعرف وجه الحق فى هذا الموضوع بقدر المستطاع .

وقد تطلب منى ذلك البحث مشقة عنيفة ، وحملنى أعباء مضنية ، ومتاعب مرهقة . فهو وإن كان يتناول فى جوهره العصر الأموى فحسب ، إلا أنه تمتد جذوره إلى مبدأ الاسلام ، وتنتهى فروعه فى العصر العباسى الأول ، أى أنه ينتظم قرناً ونصف قرن من الزمان . . والموضوع مع هذا ليست له وحدة تجمعه . ولم تكتب فيه كتابة مستقلة تشفى الغليل . وقد اقتضانى ذلك سياحة طويلة فى كتب الأدب والتاريخ والفقه والتفسير والحديث ... حيث إن طبيعة البحث تحتم على الرجوع إلى تلك المصادر المختلفة . وقد كان يجسم هذه المتاعب أن الكتب العربية ليست لها فهارس منظمة ، والأخبار المتعلقة بالموالى ليست لها فصول خاصة بها ، و إنما هى مبعثرة متناثرة . فكان يتحتم على أن أقرأ الكتاب من أوله إلى آخره لكى أظفر بسطر أو سطرين . وقد أقرأ كتاباً بأجمعه فلا أخرج منه بشىء يتعلق بالموضوع الذى أعالجه . وذلك ككتاب « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان » للمسعودى (مخطوط بدار الكتب الملكية رقم ٧٠٥٤ تاريخ) إلى غير ذلك من الكتب الكثيرة المخطوطة والمطبوعة . وكان مثلى فى ذلك كمثل البستانى الذى يتنقل بين الرياض والغياض لكى يقتطف من كل غصن زهرة أو ثمرة . وقد يطوف روضاً بأكمله فلا تعجبه زهرة من أزهاره ، ولا ثمرة من ثماره .

ولم يفتنى بعد أن استوعبت هذا القدر الكبير من المراجع العربية أن أطلع على ما كتبه المستشرقون حول هذا الموضوع فرجعت إلى كثير من المراجع الأجنبية ، من ألمانية وطليانية وفرنسية وانكليزية ، وكان الفضل الأكبر فى ترجمة هذه المراجع إلى همة الأستاذ عبدالعزيز عبدالحق المفتش بوزارة المعارف . وإنى بهذه المناسبة أدين

له بالشكر . وأسأل الله أن يجزيه عن العلم والإنسانية أحسن الجزاء . كما أتقدم بالشكر الوافر للأستاذ عبدالفتاح السرنجاوى الأستاذ بكلية أصول الدين على تفضله بترجمة فصل من كتاب فلهوزن « الدولة العربية وسقوطها » عن (عمر بن عبد العزيز والموالى) . وأشكر الأستاذ الدكتور الخضيرى وكيل مكتب البحوث بالأزهر . والأب جومييه من الرهبان الدومينيكان ، على تفضلهما بالاشتراك فى ترجمة بعض صفحات من كتاب (دراسات إسلامية . للعلامة جولدزيهر) وأسأل الله لهم جميعاً أحسن الجزاء . . . . ! !

وقد قسمت هذا الكتاب إلى سبعة فصول وخاتمة ، وراعيت فى هذا التقسيم أن يكون الكتاب كله وحدة متناسقة . بحيث يستطيع القارىء أن يعتبره باباً واحداً مقسما إلى فصول ، أو فصلا واحداً مقسما إلى فقرات . وقد جعلت الفصل الأول من الكتاب عن الموالى قبل العصر الأموى . ذكرت فيه فى كلمة قصيرة كيف نشأ الرق فى الاسلام . ثم تعرضت للولاء وبينت من هم الموالى الذين نقصدهم بهذا البحث . ثم ذكرت أحوالهم وسياسة الرسول وخلفائه الراشدين نحوهم ، وذلك لكى أجعل القارىء فى ضوء موازنة بين حالة الموالى فى العصر الأموى ، وحالتهم قبل ذلك . . . ثم جعلت الفصل الثانى عن الحالة الاجتماعية للموالى فى العصر الأموى وقد بينت فى هذا الفصل منزلة الموالى فى المجتمع العربى وما كان يشوبها على الجملة من تحقير وزراية نتيجة للعصبية العربية التى كانت سائدة فى المجتمع العربى إذ ذاك . . . ولما كانت هذه النظرة المنطوية على التحقير والازدراء سبباً جعل الخلفاء الأمويين والولاة فى سائر الأقاليم لايكترثون بهم ويتجاهلون حقوقهم فقد عقدت لبيان ذلك الفصل الثالث من الكتاب وهو « سياسة الدولة الأموية نحو الموالى » .

ولما كانت سياسة الخلفاء الأمويين فى هذه الناحية تكاد تكون متشابهة ما عدا الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذى انتهج سياسة خاصة وسلك سبيلا آخر . فإنى قد عقدت لبيان ذلك الفصل الرابع من الكتاب وهو « عمر بن عبد العزيز والموالى » . وبهذه

الفصول السالفة يتجلى لنا موقف المجتمع العربى والدولة الحاكمة من الموالى فى العصر الأموى . . . !

ولما كان الموالى يشعرون بأنهم أصحاب مجد قديم ومدنية عريقة ، وأن العرب قد اغتصبوا منهم ذلك المجد والسلطان ، وعلى الرغم من ذلك لم يعاملوهم على أساس من العدالة والمساواة — فإنهم قد قاموا يجاهدون لاسترجاع مجدهم والانتقام لأنفسهم وقد سلكوا لتحقيق تلك الغاية ثلاثة طرق :

أولا : السيطرة على الحركة الفكرية ، وقد استفادوا من ذلك فائدتين .
إحداهما : أنهم قد عوضوا أنفسهم بالعلم عن ذلك الازدراء الذى كان ينالهم من العرب حيث إن العلم يسمو بصاحبه ويرفعه . وثانيتهما : أن بعضاً منهم قد أدخل إلى الاسلام مبادىء غريبة ترجع إلى دياناتهم القديمة ، فكان هذا من الأسلحة الفتاكة التى أوهنت من قوة العرب والاسلام .

ثانيا : مناوأة ذلك التيار القوى — تيار العصبية العربية — بتيار قوى آخر وهو تيار الشعوبية . وقد كان لذلك إرهاصات ومقدمات فى العصر الأموى .

ثالثاً : مؤازرة تلك الحركات الثورية المتعاقبة التى كانت تقوم ضد الدولة الأموية لكى ينتقموا لأنفسهم ، ويقتربوا من أهدافهم . .

وقد عقدت لذلك ثلاثة فصول متتابعه وهى : —

الفصل الخامس : الموالى والحركة الفكرية .

الفصل السادس : إرهاصات الشعوبية .

الفصل السابع : ثورات الموالى ونهاية الدولة الأموية .

ثم ختمت هذا البحث باستعراض عام لموقف الدولة الأموية من الموالى وموقف الموالى من الدولة ، لكى أبين إلى أى حد كان خطأ الأمويين أو عدم خطئهم فى انتهاج تلك السياسة ، ولكى أبين مدى الآثار التى ترتبت على موقف الموالى من الدولة . .

ولكى يكون هذا البحث معتمداً على أساس متين كان لابد لنا من كتابة تذييل نبين فيه نظرة الإسلام إلى الرق . . . ! ! وقد يبدو لأول وهلة أن موضوع الرق فى الإسلام . . لا يمت بصلة قوية الى موضوع « الموالى فى العصر الأموى » . ولكنى وجدت من الدوافع والاعتبارات ما يحملنى على تبيان هذا الموضوع . . . ومن هذه الاعتبارات ما يلى :

١ — وثوق الصلة بين الرق والولاء لأن الرقيق إذا أعتق لا يسترد حريته الكاملة . ولكنه يظل مرتبطاً بسيده السابق برابطة تسمى الولاء . فكأن الولاء درجة متوسطة بين الرق الكامل والحرية الكاملة . .

٢ — أنه كان فى حياة الأمة الاسلامية الدينية نواح كثيره تحمل المسلمين على إعتاق الأرقاء . فقد جعل الاسلام عتق الرقيق كفارة لكثير من الكبائر والآثام. فكان لابد لى أن أبين هذه المسالك التى يصل منها الرقيق الى الاعتاق ليصير بعد هذا العتق من الموالى .

٣ — أن حركة الفتح الاسلامى كانت حركة نشيطة فى عهد الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أميه . وقد نتج عن هذه الفتوح بطبيعة الحال كثير من أسرى الحرب الذين وقعوا فى أيدى المسلمين . وهؤلاء يصبحون أرقاء . و إذا ما أسعدهم الحظ بوسيلة من وسائل الاعتاق صاروا موالى .

و إذن فالرق منبع يمد المجتمع الاسلامى باستمرار بعنصر جديد هو عنصر الموالى !

ثم عقبت على ذلك بتذييل ثان عن نظرة الإسلام فى الولاء . وقد ذكرت فى هذا التذييل الأحكام الشرعية المتعلقة بالولاء مستمدة من كتب الفقه الاسلامى والحديث النبوى . وكان لابد من بيان هذه الأحكام ليتجلى لنا كيف سما الاسلام بالموالى فجعلهم بعد منزلة ذوى القربى فيما يتعلق بالميراث . وجعل لهم حقوقاً أخرى غير ذلك . أى أنه جعل الموالى جزءاً مكملا للأسرة أو القبيلة .. فإذا ما وجدنا أن الحقائق الواقعة فى الحياة الاجتماعية للعرب فى العصر الأموى مغايرة لروح الشريعة

الإسلامية ساعدتنا هذه البيانات التى سقناها عن الأحكام الشرعية الخاصة بالولاء على إدراك مدى الفرق بين النظرية والواقع . . !!

ولعل سائلاً يتساءل فيقول إن الأعاجم قد ساهموا فى بناء الفقه الإسلامى وتفصيل أحكامه ، وذلك فى عصر متأخر عن العصر الأموى الذى نعالجه . أفليس من الجائز أن يكونوا قد زيفوا مثل هذه النظريات كى يثأروا لأنفسهم عن الهوان الذى ذاقوه أيام الأمويين . . ؟ نقول : إنه لو فرضنا صحة هذا السؤال فإن الأعاجم بمثل هذا العمل لم يرتكبوا شططا لأنهم قد استوحوا فيه روح الشريعة الإسلامية وكثيراً من آيات القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة التى لا تفرق بين العربى والعجمى ، وهى نظرية كان يستمسك بأهدابها فى العصر الأموى كثيرون من أتقياء العرب الذين ارتقوا فوق العصبية الجنسية وآثروا عليها تعاليم الإسلام فى العدالة والمساواة . . !!

وقد توخيت فى بحثى هذا أن أجلى نقطة دقيقة فى التاريخ الإسلامى لم تنل حظها الكامل من عناية المؤلفين ، ولست أدرى مدى سرورى واغتباطى لو كنت وفقت للعثور على كتاب « العرب والموالى » للجاحظ ، أو كتاب « الموالى » للكندى . ولكن من دواعى الأسف أن المكتبات العربية فى مصر لا تعرف عن هذين الكتابين إلا اسميهما فحسب . ولعل الأقدار تسعدنى يوما بالعثور عليهما أو على أحدهما . وإذ ذاك أستطيع أن أكمل فى يسر وسهولة ما انتويت إخراجه من أبحاث حول موضوع « الموالى فى الإسلام » .

وعساى أكون قد وفقت إلى إزالة وهم قد يعلق بنفوس المشتغلين بالتاريخ الإسلامى عند موازنته بالتاريخ الأوروبى ، وهو أن تاريخ الأمم الشرقية لايعدو أن يكون قصة طويلة مملة عن أسر حاكمة تعتلى العرش دون أن تكون هناك حركات دستورية ، وطبقات تكافح فى سبيل حقوقها . . فإن تاريخ الموالى يدحض هذا الزعم . ويدل على أن التاريخ الإسلامى زاخر بالحركات الدستورية والاجتماعية وأنه لايقل فى قوته وتنوع تياراته العامة عن التاريخ الأوروبى . .

كما أرجو أن أكون قد صورت حياة هـذه الطبقة من الناس تصويراً يطابق الواقع بقدر ما فى أيدينا من المراجع التى نجت من أحداث الزمن . وقد تحريت الدقة فى فهمها وفهم نصوصها على مقتضى سياقها وروح العصر الذى نحن بصـدده . ولم أنس أنها كتبت فى العصر العباسى . ولم أتأثر فى ذلك بنزعة خاصة جنسية أو مذهبية بل التزمت الحيدة التامة . وجعلت رائدى البحث عن الحقيقـة وحدها دون نظر إلى اعتبار آخر .

وأسأل الله أن يجعل هـذا العمل خالصاً لوجهه الـكريم وأن يلهمنا به العـبرة والموعظة الحسنة . لـكى نتجنب أخطاء الماضين ونتمسك بحسناتهم مستظلين بلواء الإسلام ومعتصمين بحبله المتين . !

القاهرة فى ربيع أول ١٣٦٨
يناير ١٩٤٩

محمد الطيب النجار

الفصل الأول

الموالى قبل العصر الأموى

نشأة الرق فى الإسلام — الولاء ومن هم الموالى ؟ — العصبية العربية قبل الاسلام وبعده — الموالى فى ظل تلك العصبية — حالتهم الاجتماعية وسياسة الرسول وخلفائه الراشدين نحوهم .

أطل القرن السابع الميلادى على الوجود . والعالم يموج بالفتنة وتسود فيه نزعات مختلفة ونحل متنوعة ، وكثيراً ما كانت تلك النزعات تتصادم وتتضارب تحت ضغط الأثرة والأنانية . وتبعاً لذلك كان النـــاس يتخبطون فى ظلام حالك كله شرور ومخاوف ، إذ يسطو القوى على الضعيف ويلتهم الكبير الصغير بشن الغارات ، ونهب الأموال وانتهاك الحرمات ، وقطع الوشائج والصلات .

وسط هذه الفوضى والظلام ، و بين تلك الأعاصير الحمقاء ، ظهر الدين الإسلامى فى الجزيرة العربية ، فأشرف على العالم بدستور قوى متين يدعو الى مكارم الأخلاق ونشر العدل والمساواة بين جميع الأمم والأفراد ، وينظم العلاقات بين الفرد والجماعة ، وينفى الفوارق بين العربى والعجمى . وهكذا جاء حافلا بالفضائل كفيلاً بإنقاذ الناس والسير بهم الى شاطىء الأمن والسلام .

وكان طبيعياً أن تصطدم تلك المبادىء بعادات العرب القـديمة التى ورثوها عن الآباء والأجداد وذلك شأن كل دعوة ناشئة . ومن أجل ذلك اتخذ محمد صلى الله عليه وسلم طريق المسالمة لكى يمهد للدين الجديد . ولـكن أزعج العرب أن وجدوا تلك الدعوة تسرى فى قلوب الناس سريان السحر ، ويقوم بنيانهـا على دعائم قوية من

المنطق البرىء المسالم والحكمة والموعظة الحسنة . فقاموا فى وجه تلك الدعوة بدافع من العصبية الممقوتة والنعرة الكاذبة ، وأخذوا يتفننون فى إيذاء النبى وأصحابه والإيقاع بهم بشتى الوسائل بعد أن أعيتهم الحيل فى استمالة الرسول إلى ترك ما يدعو اليه . ولما لم يجدهم ذلك نفعاً ولم يفت فى عضد المسلمين ، ويقف عقبة أمام الداخلين فى ذلك الدين ، تآمروا على قتل النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فكانت الهجرة من مكة إلى المدينة فراراً إلى جو صحو ملائم ، وأرض طيبة تنمو فيها تلك البذرة وتترعرع . وكان لابد أن تحاط تلك البذرة بمظاهر العناية ، وتمنع عنها العوادى والطوارئ . ثم لابد لها بعد ذلك من ميدان واسع ، ومتنفس رحب يساعدها على النمو والازدهار ؛ ولذا شرع القتال فى الإسلام .

وقبل مشروعيته كان يأتى الجريح والمشجوج شاكياً إلى الرسول فيقول لهم : « اصبروا فإنى لم أومر بقتال » إلى أن قويت شوكة المسلمين واشتد ساعدهم فأذن لهم فى القتال رداً لما لحقهم من ظلم وعدوان سابقين[1] ، وفى ذلك يقول تعالى : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »[2] . ثم أمروا بقتال كل من قاتلهم : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[3] . ثم أمروا بالقتال لتقرير حرية العقيدة والبعد بها عن الأهواء والأغراض كى يكتمل لها الجو الملائم فينضوى تحت لوائها من يشاء دون خوف من اضطهاد وفتنة : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين»[4] .

ولو تأملنا الحديث الآتى عن سليمان بن بريدة عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم لتجلى لنا كيف كان الإسلام يتلطف مع الأمم ، ويسير بهم فى غير عنف ولا عسف وأنه ما شهر السلاح فى وجوههم طمعاً فى مال أو حباً فى سلطان أو إرضاء لشهوة و إنما

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص ٢٣٢ . (٢) سورة الحج آية ٣٩ .
(٣) سورة البقرة آية ١٩٠ . (٤) سورة البقرة آية ١٩٣ .

هو الدفاع عن العقيدة و إعلاء كلمة الحق . قال بريدة : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله و بمن معه من المسلمين خيراً ثم قال : اغزوا فى سبيل الله باسم الله قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً . و إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خصال ثلاث فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين . وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم ما يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الفىء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن هم أبوا فاسألهم الجزية فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » (١)

و يمكننا أن نستنتج من هذا الحديث ومن غيره من الأحاديث الآتية فى هذا الصدد أن تعاليم الاسلام كانت تقضى بأنه إذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم أن يطلبوا من أهله الدخول فى الإسلام فمن أسلم منهم أجريت عليه أحكام المسلمين من حفظ دمه وماله وقسمه فى الغنائم إلا إذا أبى التحول من داره إلى دار المهاجرين وتخلف عن الجهاد مع المؤمنين فانه إذ ذاك لايستحق القسم فى الفىء والغنيمة ، ومن امتنع عن الدخول فى الإسلام ضربت عليه الجزية ، وهؤلاء هم أهل الذمة لهم ما لنا وعليهم ما علينا قال تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون » (٢) . وهذا إذا كانوا من أهل الكتاب ولم يكونوا مرتدين ولا من مشركى العرب و إلا فليس إلا الإسلام أو السيف لقوله تعالى : « تقاتلونهم أو يسلمون ». (٣) أما مشركو العرب فلأن القرآن نزل بلغتهم . فالمعجزة فى حقهم أظهر

(١) صحيح مسلم جـ ١٢ص ٣٧ و٣٨ ، وفتح القدير لكمال الدين بن الهمام جـ ٤ ص ٢٨٤ .
(٢) سورة التوبة آية ٢٩ . (٣) فتح المعين على الكنز . فقه حنفى جـ ٢ ص ٤٥٢ .

ولذا كان كفرهم أشد وأغلظ من كفر العجم ، وكذلك المرتدون لأن كفرهم بعد أن هدوا للاسلام ووقفوا على محاسنه أغلظ وأشد ممن لم يهتدوا ولم يعرفوا محاسن الإسلام. وقد حمل المجوس على أهل الكتاب لما روى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر [1] . ولما روى أنه قال : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » [2] . وأما من يأبون قبول الجزية من أهل الكتاب سواء أكانوا من العرب أم من غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يرضخوا للاسلام أو يعطوا الجزية .

وقد ذكر الأستاذ أحمد أمين بك فى كتابه « فجر الإسلام » ص ١٠٩، ما يفيد أن العربى المشرك كان يسترق فى مبدأ الأسلام . ولما انتشر الإسلام لم يعد يقبل منه إلا الإسلام أو السيف فأصبح غير محل للاسترقاق . واستدل على ذلك بما رواه ابن هشام فى غزوة بنى المصطلق « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصاب منهم — من بنى المصطلق وهم عرب من خزاعة — سبياً كثيرا فشا قسمه فى المسلمين » [3] . ولا شك أن الأستاذ الفاضل يخالف بذلك الرأى ماعليه الجمهرة من العلماء . ففى كتاب « فتح المعين على الكنز » . لا يقبل من مشركى العرب والمرتدين إلا الإسلام أو السيف . وإذا ظهر المسلمون عليهم فنساؤهم وذراريهم فىء لأنه عليه السلام كان يسترق ذرارى مشركى العرب . وأبو بكر استرق نساء بنى حنيفة وصبيانهم وكانوا مرتديين . ومن لم يسلم من رجالهم من الفريقين قتل ولم يسترق .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة حنين : « لو كان يجرى على عربى رق لكان اليوم و إنما الإسلام أو السيف » [4] .

وفى كتاب المهذب للفيروزبادى [5] لا يجوز أخذ الجزية ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب كعبدة الأوثان وليس فى جانبهم إلا الإسلام أو السيف . . . ولعل

---

(١) المهذب فى فقه الشافعية ج ٢ ص ٢٦٦ . (٢) صحيح مسلم ص ٣٩ .
(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢١٨ (٤) فتح المعين على الكنز ج ٢ ص ٤٥٢ .
(٥) فى فقه الشافعية ج ٢ ص ٢٦٦ .

الأستاذ أحمد أمين بك قد اشتبهت عليه كلمة سبى فهم أنها تشمل الرجال المحاربين . ولكننا لو رجعنا إلى الرواية السابقة لروايته فى نفس سيرة ابن هشام وفى غزوة بنى المصطلق أيضاً لوجدناها صريحة فى إخراج الرجال المحاربين إذ يقول : « إن الله قتل من قتل منهم (أى من بنى المصطلق) ونفل رسول الله أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه »(١) . وفى القاموس المحيط السبى النساء لأنهن يسبين القلوب أو يسبين فيملكن ولا يقال ذلك للرجال .

ومن ثنايا ما تقدم نرى أن من طوائف الكفر من لا يصح ضرب الجزية عليهم من المرتدين ومشركى العرب . ومنهم من يرضخون لقبول الجزية من أهل الكتاب أو ممن لهم شبهة كتاب كالمجوس ، وهؤلاء هم أهل الذمة لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، ومنهم من لا يرضخون لقبول الجزية من أهل الكتاب أو ممن لهم شبهة كتاب كالمجوس ، وهؤلاء يقاتلون حتى تكون للمسلمين الغلبة عليهم . ومن وقع فى أيدى المسلمين منهم فهم أسرى تلك الحرب المشروعة الذين يستحقون ضرب الرق عليهم . ومن هنا نشأ الرقيق فى الإسلام .

فالرقيق فى الإسلام هو أسير حرب مشروعة ضرب الإمام الرق عليه . والحرب المشروعة هى التى تقوم بين المسلمين والكفار ولا يكون مبعثها البغى والعدوان بل الدفاع عن الإسلام و إعلاء كلمته ، ولقد نظم الإسلام أمر هذا الأسير نظاما محكما فجعل له أربع حالات :

الأولى — القتل إذا خيف على المسلمين شره وعلم أن الضرر من جانبه محقق كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل عقبة بن معيط . وكان من بين أسارى بدر .

الثانية — الفداء بمال أو بأسير عند العدو أو بأى بدل مشروع .

الثالثة — المن بإطلاق سراحه من غير فداء كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢١٦

بشاعر هو أبو عزة الجمحى ، وكان من بين أسرى بدر إذ أطلق سراحه من غير فداء حينما استعطفه بأن له بنات .

الرابعة — الاسترقاق إذا لم تكن واحدة من الثلاث المتقدمة ، فيضرب الإمام الرق عليه وبهذا يكون ملك يمين يملكه من كان فى نصيبه بعد قسمة الغنائم فى الحروب المشروعة ، أو يصل إلى يده بشراء أو هبة أو بطريق الميراث ممن يملكه فهو نوع من المال يباع ويشترى ويوهب . والأمة توطأ بملك اليمين من غير عقد نكاح وتباع وتوهب وتستولد إلى غير ذلك من الأحكام .

وقد نظر الإسلام إلى الرقيق نظرة رحمة وعناية فجعل له حقوقا كثيرة . ورغب فى عتقه واعتبر هذا العتق كفارة للكثير من الخطايا والذنوب كما سنفصل ذلك فى تذييل الكتاب ، فإذا ما هيئت للرقيق فرصة الانفلات من قيود الرق فأعتقه سيده نشأ عن هذا العتق تلك الرابطة والصلة بين السيد ومعتقه وهى صلة النصرة والمحبة المسماة بالولاء .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الولاء لحمة كلحمة النسب »(١) . أى وصلة كوصلة النسب ولذا يسمى كل من المعتِق والمعتَق مولى .

والمولى فى اللغة يطلق باطلاقات كثيرة ولعل الأساس فيها هو ما يحمله هذا اللفظ من معنى النصرة والمحبة .. فيطلق على الرب والمالك ومنه قوله تعالى « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق »(٢) . ويطلق على ابن العم والعصبة كلها ومنه قوله تعالى « وإنى خفت الموالى من ورائى »(٣) . ويطلق على الناصر ومنه قوله تعالى « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم »(٤) . ويطلق على السيد ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى النهى عن تسمية السيد بالرب « ليقل — أى العبد حينما يخاطب سيده — سيدى . مولاى »(٥) . ويطلق على المعتق ومنه قوله صلى الله « مولى القوم

---

(١) نيل الأوطار للشوكانى ٦ — ١٨٨ .   (٢) سورة الأنعام آية ٦٢ .

(٣) سورة مريم آية ٥   (٤) سورة محمد آية ١١ .   (٥) فتح البارى جـ ٥ ص ١١١ .

من أنفسهم » ويطلق على الحليف والصاحب والجار والشريك إلى غير ذلك . وهذ كلها معان لغوية[1] . وأما الشرع الإسلامى فيختص كلمة مولى بمعنيين : المعتق ويسمى مولى العتاقة . والحليف ويسمى مولى الموالاة[2] . فمولى العتاقة هو رقيق أعتقه سيده فيصير المعتَق منسوبا إلى المعتِق بالولاء ويسمى هذا ولاء العتاقة وولاء النعمة . ومولى الموالاة هو رجل ينتمى لآخر بالمخالطة أو بالخدمة أو بالمحالفة فينسب اليه . أو ينتمى إلى قبيلة من القبائل فينسب اليها . وقد أقر الإسلام هذا النوع من الولاء فقال رسول الله صلى الله عيله وسلم : « مولى القوم منهم وحليفهم منهم » . والمراد بالحليف مولى الموالاة لأنهم كانوا عادة يوثقون الموالاة بالحلف وذلك بأن يأتى رجل لآخر فيقول له : أنت مولاى ترثنى إذا مت وتعقل عنى إذا جنيت — أى تدفع الدية عنى — فيقول له : قبلت[3] ! وقد كثر نوع مولى الموالاة بعد الإسلام . لأن الإسلام أعز العرب ورفع من شأنهم حتى صاروا سادة وأصحاب شوكة وقوة فكان أهل البلاد الأخرى يحتمون بهم ويتحالفون معهم .

والباحثون فى التاريخ الإسلامى حينما يذكرون الموالى يقصدون بهم كل من أسلم من غير العرب ، وذلك لأن هؤلاء إما أن يكون أصلهم أسرى حرب استرقوا ثم أعتقوا فصاروا موالى . وإما أن يكونوا من أهل البلاد المفتوحة وهؤلاء كانوا حينما يسلمون ينضمون إلى العرب ويدخلون فى خدمتهم ، ويتحالفون معهم لكى يعتزوا بشوكتهم وقوتهم . وبذلك يصبحون موالى أيضاً بالحلف والموالاة .

وهؤلاء الموالى بالمعنى الذى اصطلح عليه المؤرخون هم الذين سنتناولهم بالبحث فى هذا الكتاب بادئين ببيان حالتهم قبل العصر الأموى فنقول :

كانت الحالة العامة للموالى تتأثر كل التأثر بظهور العصبية العربية واختفائها .

---

(١) رجعنا فى معاني كلمة مولى إلى المراجع الآتية : القرآن الكريم ولسان العرب لابن منظور والمغرب للمطرزى ٢٦٢ . والمنجد والقاموس المحيط مادة ولى . ودائرة المعارف الإيطالية كلمة مولى بقلم نالينو . ودائرة المعارف الاسلامية النسخة الفرنسية ص ٧٩ ؛ مجلد ٣ .

(٢) المغرب للمطرزى ص ٢٦٢ .

(٣) المبسوط للسرخسى ج ٣٠ ص ٣٨ و ٤٥ .

فإذا ما وجـد شبح تلك العصبية ساءت حالة الموالى واشتد الظلم بهم ، و إذا ما توارى هذا الشبح البغيض تنفس هؤلاء القوم الصعـداء ، واتسعت آفاق أملهم ، وشعروا بكيانهم الطبعى كمسلمين يؤمنون ويتمتعون بمبادىء الاسلام العادلة من الحرية والإخاء والمساواة .

ولقد كان العرب أيام الجاهلية يشعرون إلى حد ما بالعصبية العربية وكانوا على الرغم من تأخرهم فى الأخذ بأسباب المدنية يغالون فى تقدير أنفسهم ويحتقرون الأجناس الأخرى دون مبرر أو مسوغ من العقل والمنطق السليم .

وحسبنا أن نعرض صورتين نلمح العصبية العربية فى كلتيهما سافرة متحدية .

. . فيروى ابن خلدون أن كسرى أبرويز أراد خطبة بنات العرب فأشار عليه عدى ابن زيد - أحد تراجمته - بالخطبة فى بنى منذر . فقال له كسرى : اذهب اليهم فى ذلك فقال : إنهم لا ينكحون العجم ويستريبون فى ذلك فابعث معى من يفقه العربية فلعلى آتيك بغرضك . فلما جاء إلى النعمان قال (أى النعمان) : أما فى عِيْن السواد وفارس ما يغنيكم عن بناتنا ؟ وسأل الرسول عن العِيْن فقال له هى البقر ، فغضب كسرى وحقدها على النعمان وكتب اليه يستقدمه فلما وصل إلى كسرى قيده و أودعه السجن إلى أن هلك فيه بالطاعون . وفى رواية أخرى أنه قتله . وكان ذلك سبباً لقيام حرب ذى قار بين الفرس والعرب قبل البعثة بثمان سنوات (١) . ؟

وإذا صح هذا النص فإنه يوضح لنا بلا شك عصبية العرب فى جاهليتهم ضد الأعاجم واعتدادهم بأنفسهم حتى فى الوقت الذى كان الفرس فيه ذوى نفوذ كبير ولم يكن العرب بجوارهم شيئاً يذكر . وهو يلقى لنا ضوءاً على مدى تلك العصبية المغالية التى تترفع من مصاهرة ملوك الفرس وهم إذ ذاك أصحاب الأمر والنهى بالحيرة ولهم فيها نفوذ واسع وسلطان كبير .

---

(١) ابن خلدون (العبر وديوان المبتدا والخبر) جـ ١ ص ٥٤ و٥٦ و٦١ ط شكيب أرسلان.

وذكر صاحب العقد الفريد أن النعمان بن المنذر قدم إلى كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين . فذكروا عن ملوكهم وبلادهم فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم لايستثنى فارس ولا غيرها وامتدح العرب بالعز والمنعة فقال : « حصونهم ظهور خيلهم . ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف . وعدتهم الصبر إذ غيرهم من الأمم عزهم بالطين والحجارة وجزائر البحور » . وذكر النعمان بعد ذلك كثيرا من المزايا والفضائل التى اختص بها العرب دون غيرهم من الأمم وقد سجلتها كتب الأدب والتاريخ فى ذلك الحديث الطويل مع الملك الفارسى [1] .

ولا يهمنا من هذه القصة على فرض وقوعها تصحيح مزاعم العرب فى أنهم يفضلون غيرهم من الأمم الأخرى . ولكن المهم أن هذ القصة تدل على اعتداد العرب بأنفسهم وتحقيرهم لغيرهم [2] . فماذا كان موقف الإسلام إزاء ذلك ؟

جاء الإسلام يحمل بين ثناياه مبادئ خالدة ترمى إلى إسعاد العالم وانتشاله من

---

(١) العقد الفريد جـ١ ص ٨٩ ط سنة ١٣٦١ ، وبلوغ الأرب للآلوسى جـ ١ ص ١٥٠ ، وجمهرة خطب العرب لصفوت جـ ١ ص ١٥ .

(٢) كانت الظاهرة الواضحة لدى العرب فى الجاهلية هى العصبية القبلية . وهى نعرة أصيلة فى العربى توارثها منذ القدم عن آبائه وأجداده . وقد نشأت من اعتداده بنفسه إلى درجة الغلو والإسراف وهو أمر خلقته البيئة الصحراوية الخالية من الأسوار والحصون، والمعرضة للسلب والنهب . ومثل هذه البيئة لايمكن أن يستقر بها إلا الشجاع المغامر . وهذه الشجاعة لاتفيد فائدة كاملة ولاتأتى بالثمرة المرجوة إلا إذا دعمت بالعصبية التى تشد الأزر وتقوى الجانب (مقدمة ابن خلدون ص١٤٣) وهم من أجل ذلك كانوا يهتمون برابطة القرابة ويرعون حقوقها لأنها عدتهم وسلاحهم الذى يقاومون به الأخطار والشدائد ، فكان يرتبط الأقرب فالأقرب منهم برباط المودة والنصرة . وفى وقت الحروب والثورات يجتمع الأقرب فالأقرب ضد الأبعد فالأبعد . فتجتمع الفصيلتان من فخذ واحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعا من بطن واحد . ويجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ولو كانوا جميعا من قبيلة واحدة . وتجتمع القبائل العربية كلها ضد الأجانب من غير العرب (الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٨٠) على حد قول المثل : أنا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب . وإذن فالعصبية العربية مستمدة على أساس من العصبية القبلية . فإن العربى الذى يتعصب لقبيلته ضد القبائل الأخرى هو بعينه الذى يتعصب مع القبائل الأخرى ضد الأعاجم . والعصبية القبلية كانت تثور كثيرا بين العرب بسبب التنافس بين القبائل على النفوذ المادى والأدبى . أما العصبية العربية فكانت لاتثور إلا عند الاحتكاك بالأجانب وكان ذلك من القليل النادر إذ ذاك ..

هوة الخلاف والشقاق فلقد دعا إلى الوحدة والتضامن وحارب الأثرة والأنانية وعمل على إزالة الفوارق ونشر العدالة وأعلن المساواة بين الطوائف والطبقات (١).

فحينما سرقت فاطمة المخزومية وكانت من طبقة محترمة فى العرب جاء أناس يستشفعون لها لئلا يقيم الرسول الحد عليها . فغضب صلى الله عليه وسلم أشد الغضب ثم قال : « إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » . وفى حجة الوداع نادى محمد صلى الله عليه وسلم بأعلى صوته فقال : « أيها الناس . إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربي على عجمى فضل إلا بالتقوى » (٢) . وهو يعتمد فى ذلك على قول الله تعالى فى كتابه الكريم : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٣) .

ومن الطبعى أن تكون تلك المبادىء غريبة لدى العرب الذين اعتادوا التفاخر بالأحساب والأنساب . وتغلغلت العصبية فى طوايا نفوسهم ، ولكنها فى الوقت نفسه نزلت برداً وسلاماً على نفوس الآخرين من غير العرب ، وهم نفر ضئيل كان يقطن الجزيرة العربية إذ ذاك كبلال الحبشى وسلمان الفارسى وغيرهما من سائر العناصر الأجنبية . ولقد حقق رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدأ المساواة عمليا فرفع المخلصين من الموالى إلى أعز مكانة وأسماها . ووضعهم فى صف المخلصين من العرب جنبا إلى جنب فبلال الحبشى كان من خاصة المقربين للرسول ولسائر المسلمين . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما يتذكر عتق أبى بكر لبلال يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » (٤) . وسلمان الفارسى كان أيضا من المقربين للرسول ولسائر المسلمين ، وهو الذى

---

(١) دراسات إسلامية لجولد زيهر فصل مترجم « عن العرب والعجم » ترجمة خاصة .
(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٢ ص ١٦ والعقد الفريد ٢ ـ ١١٩ .
(٣) سورة الحجرات آية ١٣ .
(٤) أسد الغابة ترجمة بلال بن رباح وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ١ ـ ١٣٧ .

ولى قسم الغنائم بين المسلمين فى واقعة جلولاء [1] حتى لقد أنسته عدالة الاسلام جنسيته فكان يقول مفتخراً أنا ابن الإسلام [2].

والإسلام على فرط ما حارب العصبية القبلية والعربية فإنه لم يقض عليها، ولم يمحها من نفوس أصحابها، ولكنها تضاءلت فى نفوسهم. وانحدرت إلى العقل الباطن بعد أن كانت مستقرة فى بؤرة شعورهم. وقد تحول ذلك التيـــار الذى كان يغذى العصبية القبلية والعربية إلى تغذية عصبية أخرى هى العصبية الاسلامية التى تجعل من المسلمين خير أمة أخرجت للناس، وتجعل التقوى والعمل الصالح هما مناط الفخر ودعامة المجد والشرف. وتجعل فى الاسلام ما يغنى عن الحسب والنسب. والتى تتمثل فى قول الشاعر المسلم:

فنحن بنو الاسلام والله واحد ... وأولى عباد الله بالله من شكر

وقول آخر:

أبى الاسلام لا أب لى سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم [3]

وكان المسلمون يتفاوتون فى تناسى عصبيتهم القبلية والعربية على قدر تفاوتهم فى التمسك بذلك الدين الجديد والاقتناع بمبادئه. فلقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه بلغه عن أبى سفيان صخر بن حرب أمر فأحضره وأقبل يصيح عليه وأبو سفيان يتملقه ويتذلل له، وأقبل أبو قحافة (والد أبى بكر وكان قد أسلم إذ ذاك) فسأل على من يصيح ابنى؟ فقيل له: على أبى سفيان. فدنا من أبي بكر وقال له: أعلى أبى سفيان ترفع صوتك؟ لقد تعديت طورك وجزت مقدارك. فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار وقال: يا أبت إن الله رفع بالإسلام قوما وأذل به آخرين [4].

---

(١) البداية والنهاية ٧/٧٠.

(٢) أسد الغابة ترجمة سلمان. وتاريخ ابن عساكر ج ٦ ص ٢٠٢. وتهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٢٢٦.

(٣) الكامل للمبرد ج ٣ ص ١٠٢. (٤) مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٤١٣.

ومن ثنايا القصة السالفة نرى أن العصبية القبلية قد تلاشت من نفس أبي بكر وجمهرة كبيرة من أصحابه المخلصين للاسلام . بينما لا تزال آثارها باقية فى نفس أبي قحافة الذى لم تتمكن مبادئ الاسلام فى نفسه كغيره من المسلمين الأولين ، ومن أجل ذلك فإنه استكثر على ولده أبي بكر أن يرفع صوته على أبي سفيان .. !

ويصور لنا جولد زيهر شعور المسلمين من العرب إزاء المبادئ الاسلامية بشعور رجل الشارع الذى يخضع للقانون و إن كان هذا الخضوع لايقضى على عاداته وطبائعه الشريرة التى لا تدخل تحت طائلة القانون(1) ولكنا لا نذهب مثل هذا المذهب لأن رجل الشارع الذى يحمل نفساً شريرة تكون هذه الطبيعة قوية فى نفسه ولا تمنعها إلا سطوة القانون بحيث إذا غفلت عين العدالة فإنها تظهر فى عنف وشدة بينما أن العصبية القبلية والعربية كانت بعد الاسلام ضعيفة فى نفوس الغالبية من المسلمين . وكثيراً ما كانت تتاح لها الفرص للظهور فلا تظهر إلا فى القليل النادر؛ ومهما يكن من شىء فقد كانت تلك العصبية مغطاة فى نفوس المسلمين بغطاء متنوع الكثافة والمقدار . فهو كثيف كامل عند أقوياء الإيمان ذوى العقيدة السليمة ، وهو خفيف ناقص لدى ضعفاء الايمان والعقيدة . وقصة يوم بعاث(2) وقيام المتنبئين قبيل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم(3) وحركة الردة فى أيام أبي بكر رضى الله عنه . كل هذه المثل توضح لنا أن ريح الشر كانت تعصف أحيانا بضعفاء الإيمان فتكشف عن نفوسهم ذلك الغطاء الخفيف الناقص . و إذ ذاك تتجلى عصبيتهم الجاهلية، وتتوارى عصبيتهم الإسلامية .

والذى لا شك فيه أن تلك العصبية الإسلامية التى جاء بها الإسلام والتى تحدثنا عنها فيما مضى كانت قوية فى نفوس الغالبية من المسلمين فى أول عهدهم بالإسلام ، ولقد ظلت قوية فى نفوسهم إلى أن جاء عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكان ذلك

---

(1) دراسات إسلامية فصل « العرب والعجم » ترجمة خاصة .

(2) راجع سيرة بن هشام ج ٢ ص ٤٠ .

(3) راجع الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٥ و ٢٢٨ و ٢٣٢ ط منير .

راجعاً إلى قرب عهد المسلمين بالرسول من ناحية ومن ناحية أخرى إلى قوة شخصيتى الخليفتين أبى بكر وعمر . وسيرهما على أساس كامل من العقل والمنطق السليم ، وعدم انقيادهما للعاطفة التى كثيراً ما تخدع الإنسان وتطوح به .

ولقد كانت سياسة أبى بكر تتجه نحو المساواة فى صراحة ووضوح فنجده حينما ولى الخلافة يعلن على الناس برنامجه فيقول : « إن أقوا كم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له . وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه »(١) . ونجده بعد ذلك يقسم بين الناس الأعطية بالسوية فلا يفضل أحداً على أحد(٢) حتى ليروى أنه جاءه مال كثير فقسمه بين الناس فأصاب كل إنسان عشرين درهما . فجاءه ناس من المسلمين فقالوا ياخليفة رسول الله . إنك قسمت هذا المال فسويت بين النـاس . ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم فلو فضلت أهل السوابق والقـدم والفضل بفضلهم . فقال : أما ما ذكرتم من الفضل والسوابق والقدم فما أعرفنى بذلك . وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه . وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة(٣) .

ومثل هذه السياسة كانت تقابل بالرضى والارتيـاح من الموالى الذين لم يعودهم حكامهم من قبل هذا النوع من المعاملة ، ولا غرو فإن مبدأ المساواة جدير بأن تهوى إليه نفوس الغالبية من الأفراد ، وعلى الأخص فى أمبراطوريتى فارس والروم . وهما اللتان قامتا على حكم الفرد وعلى نظام الطوائف وعلى التفاوت بين الناس .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مثال الحاكم المسلم . فقد تحرى العدالة المطلقة التى لا تعرف الهوادة فى تنفيذ شعائر الإسلام وقوانينه . واتخذ شعـاره الديمقراطية الحازمة ، وشغل العرب بالفتوح الخارجية فى فارس والروم استغلالا لنشاطهم الحربى إشغالا لهم أن يفرغوا لأنفسهم فيعود بأسهم بينهم شديداً . وتحقيقا لهدف الإسلام و

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣٢ . العقد الفريد ج ٢ ص ١٣٠ .
(٢) اليعقوبى ج ٢ ص ١١٥ ، والأموال لأبى عبيد ص ٢٦٢ .
(٣) الخراج لأبى يوسف ص ٥٠ .

ورسالته العامة إلى النـاس أجمعين . ثم منع رءوسهم أن يتركوا المدينة إلا للجهاد فى سبيل الله مخافة أن يكونوا لهم عصبيات فى أقطار الدولة ، فتنشقق وحدتها العزيزة ، وتتداعى أركانها وهى قريبة العهد بالتنابذ الجاهلى وحميته الحمقاء[1] .

وقد وضـع عمر بن الخطاب نظاماً فى العطاء يخالف نظام أبى بكر فى الظاهر ، ولـكنه فى الواقع يتمشى مع العدالة والمساواة أيضاً ؛ وذلك أنه جعل التمايز فى العطاء بحسب الأسبقية فى الإسلام لافرق فى ذلك بين العربي والمولى . فان تساووا فى ذلك فبحسب القرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم[2] . وقال فى ذلك كلمته المأثورة « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه »[3] . وقد كتب عمر إلى أمراء الأجناد « ومن أعتقتم من الحمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم . وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلهم أسوة فى العطاء »[4] . وقدم قوم على عامل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فأعطى العرب وترك الموالى فكتب إليه عمر . أما بعد فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم[5] . وفى بعض الأحيان كان عمر يفضل فى العطاء بحسب المكانة والمنزلة لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولعله كان يرى أن الرجل لاتعظم منزلته لدى الرسول إلا على أساس من التقوى والإيمان الصادق . فلقد فرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف بينما فرض لعبدالله بن عمر (ابنه) ألفين، فقال ابن عمر لأبيه : فضلت على أسامة وقد شهدت ما لم يشهد . فقال : إن أسامة كان أحب إلى رسول الله منك وأبوه أحب إلى رسول الله من أبيك[6] . وفرض عمر بن الخطاب

---

(١) الشعر السياسى للاستاذ الشايب ص ٩٩ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٦٠ ، والأموال لأبى عبيد ص ٢٢٥ ، والخراج لأبى يوسف ص ٥٢ و ٦٣ ، وحوليات الاسلام للبرنس كايتاني حـ ٤ ص ٣٨٨ حوادث سنة ٢٠ هـ .

(٣) الخراج لأبى يوسف ص ٥٠ ، وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٥٥ .

(٤) البلاذرى فتوح ص ٤٦٣ . والأموال لأبى عبيد ص ٢٣٥ . وكايتاني ٤ : ٤٠٣ .

(٥) الأموال لأبى عبيد ص ٢٣٦ .

(٦) أسد الغابة ١ : ٦٥ ، وفى الأموال لأبى عبيد ص ٢٢٧ والبلاذرى ص ٤٥٦ بتغيير يسير .

لبعض الأشراف من الأعاجم عطاء سخياً . ففرض لفيروز بن يزدجرد وللجيل بن بصبهرى ، ولبسطام بن نرسى وغيرهم من الدهاقين ألفين ألفين[1] . بينما كان كثير من العرب المسلمين يتراوح عطاؤهم بين المائتين والاربعمائة فحسب[2] . وكان عمر يقصد من ذلك أن يؤلف قلوب هؤلاء الأعاجم نحو الإسلام ويتألف بهم غيرهم[3] .

وهكذا يتضح لنا من سياسة عمر أنه قد حاول بقدر الإمكان أن يطبق النظرية الإسلامية فلم يجعل التمايز بين الناس على أساس اختلاف القبائل أو الأجناس ولكن جعل الأساس هو التقوى والإخلاص وكثرة البلاء والجهاد . وذلك إنما يكون فى الغالب بالسبق إلى الإسلام . يتساوى فى ذلك القرشى والباهلى ، والعربى والعجمى .

وقد كان سفيان بن عيينة يفسر نظرية أبى بكر ونظرية عمر فى العطاء فيقول : ذهب أبو بكر فى التسوية إلى أن المسلمين إنما هم بنو الإسلام كأخوة ورثوا آباءهم فهم شركاء فى الميراث تتساوى فيه سهامهم وإن كان بعضهم أعلى من بعض فى الفضائل ودرجات الخير والدين . قال وذهب عمر إلى أنهم لما اختلفوا فى السوابق حتى فضل بعضهم بعضاً وتباينوا فيها كانوا كإخوة العلات — وهم الأخوة لأب — غير متساوين فى النسب ورثوا أخاهم أو رجلا من عصبتهم فأولاهم بميراثه أمسهم به رحماً وأقعدهم إليه فى النسب ... فكذلك هم فى ميراث الإسلام أولاهم بالتفضيل فيه أنصرهم له وأقومهم به وأذبهم عنه[4] .

وأما قول عمر فى آخر حياته إن عشت هذه السنة ساويت بين الناس وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر[5] . فمعنى ذلك أنه قد حاول أن يعدل عن نظريته لأنه

---

(١) اليعقوبي ٢ ص ١٣١ ، والأموال لأبي عبيد ص ٢٣٦ ، ويحيى بن آدم رقم ١٨٥ — وكايتاني جـ ٤ ص ٣٩٧ .

(٢) الخراج لأبي يوسف ص ٥٢ و ٥٣ . وكايتاني جـ ٤ ص ٣٨٨ حوادث سنة ٢٠ هـ .

(٣) اليعقوبي جـ ٢ ص ١٣١ .

(٤) الأموال لأبي عبيد ص ٢٦٤ .

(٥) اليعقوبي ٢ ص ١٣٢ ، والأموال لأبي عبيد ص ٢٦٤ .

رأى فيها تنفيراً لقلوب الكثير من الناس . لأن الإنسان يكره دائماً أن يتميز أحد عليه ، وقد توفى عمر رضى الله عنه قبل أن يغير هذه النظرية[1] .

ولقد كان الموالى من الناحية الاجتماعية فى تلك الحقبة من الزمن . ينعمون بالمساواة الكاملة . ويسيرون مع العرب فى هذا السبيل جنباً إلى جنب وكتفاً إلى كتف ولا يميز بين الفريقين إلا الأسبقية إلى الإسلام والبلاء فيه . فيروى أنه حضر بباب عمر نفر من سادات قريش كسهيل بن عمرو وأبى سفيان وغيرهما . ونفر آخر من الموالى كصهيب وبلال فخرج ابن عمر فأذن لهؤلاء الموالى وترك أولئك السادة ، فقال أبو سفيان : لم أر كاليوم . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا ! فقال سهيل بن عمرو وكان رجلا عاقلا : أيها القوم إنى والله أرى الذى فى وجوهكم إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم . دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم[2] ؟ وقدم عمر بن الخطاب صهيبا الرومى على المهاجرين والأنصار فصلى بالناس[3] . وكان كلما تذكر عتق أبى بكر لبلال يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا »[4] . ومن الكلمات المأثورة عن عمر رضى الله عنه أنه كان يقول : والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة . فإن من قصر به عمله لا يسرع به نسبه[5] .

وبينما كان الموالى يعيشون فى هذا الجو المشرق بالصفاء . المليء بالعدالة والإنصاف إذ فاجأهم حادث أليم هو مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بيد

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ٥٥ .
(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٩٨ و ٩٩ طبعة مصطفى محمد .
(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ٦١ .
(٤) تهذيب الأسماء واللغات للنووى ج ١ ص ١٣٧ .
(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد طبعة أوروبية ج ٣ ص ٢١٣ .

أعجمية(١) فكان ذلك الحادث صدمة عنيفة روعت جمهرة المسلمين وغيرت من شعورهم تجاه الأعجام من أسلم منهم ومن لم يسلم. فلقد وضحت تلك المؤامرة الفارسية وظهرت أصابع الأعاجم ملطخة بدماء عمر. وإذ ذاك تبين للعرب أن الحقد الدفين قد تنبه فى قلوب هؤلاء الناس، فأصبح العرب ينظرون إليهم على حذر. وابتدأت العصبية العربية منذ ذلك الحين تستيقظ من إغفاءتها الطارئة، وإذن فلا نكون مبالغين إذ قلنا إن مقتل الخليفة عمر كان نهاية فصل مجيد فى حياة الموالى نعموا فيه بالمساواة والعدالة، وهو بعينه كان مبدأ فصل جديد تغيرت فيه حالهم، وأخذت منزلتهم تتجه إلى الانحدار والانهيار.

وجاء عثمان بن عفان فنظر إلى أقاربه نظرة ظنها الناس محاباة ومحسوبية. وظنها عثمان أو اعتقد أنها سياسة تقتضيها سلامة الدولة وتمليها المصلحة العامة، لأن أقاربه سيخلصون إليه ويعاونونه المعاونة الصادقة، ونتيجة لذلك تنتظم الأمور وتهدأ الأحوال(٢).

وعلى الرغم من المزايا الخلقية الكثيرة لعثمان فان قبضته على شئون الدولة كانت ضعيفة فأطلق العنان لأقاربه وأهمل رقابتهم وهؤلاء أساءوا إلى الناس وأرهقوهم. ومن الأمثلة لذلك مافعله عبدالله بن أبى سرح — أخو عثمان من الرضاعة — فقد

(١) قتله أبو لؤلؤة ولى المغيرة بن شعبة وكان من نصارى العجم فضربه بخنجر ست ضربات إحداها تحت سرته. ولما سأل عمر عمن قتله فقيل له أبو لؤلؤة غلام المغيرة. قال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل سجد لله سجدة واحدة (ابن خلدون ٢ : ٣٦٢ — ٣٦٣. طبعة شكيب أرسلان).

(٢) نرى كثيراً من رجالات السياسة فى هذا العصر الذى نعيش فيه يصطفون أقاربهم لمعاونتهم فى الاضطلاع بأعباء الحكم وتبعاته. لأنهم يتوقعون الاخلاص فيهم أكثر من غيرهم. أماهل أخفق هؤلاء الساسة وأمثالهم فى مثل هذه التصرفات أو نجحوا؟ فلا يعنينا هذا. لانه لايطلعنا على أغراضهم فى اختيار هؤلاء الناس. ولأن الاخفاق والنجاح لايخضعان فى الغالب لشىء واحد وإنما يرتبطان بظروف مختلفة وأسباب متعددة.

ولاه عثمان على مصر وعزل عمرو بن العاص منها لعداوة كانت بينهما، كما يذكر بعض المؤرخين(١) . وكانت وصية عثمان لابن أبى سرح أن يتتبع أثر عمرو بن العاص فى سياسة مصر . ولـكنه حاد عن هذه الوصية، فأرهق الأهالى ، وأمر بزيادة الجزية ؛ و بذلك نقض العهد الذى عقده عمرو مع القبط فى مصر . ولقد بين عمرو بن العاص لعثمان خطأ هذه السياسة التى سار عليها ابن أبى سرح . فإن عثمان حينما تبين له أن الجباية فى مصر قد زادت بمقـــدار ألفى ألف دينار . قال لعمرو : إن اللقاح بعدك قد درت . فأجابه عمرو : لأنكم قد أعجفتم الفصلان(٢) . و يقصد عمرو بذلك أن هذه الزيادة إنما جاءت بسبب الضغط الشديد على الأهالى و إرهاقهم .

ولقد كانت النتيجة الحتمية لتساهل عثمان وضعف قبضته على الحكم وعصبيته لأقاربه أن استيقظت العصبية القديمة بين الأمويين والهاشميين وأخذت تشتد وتقوى يوماً بعد يوم حتى أن الهاشميين كانوا يتكلمون فى عثمان ويرمونه بكثير من النقائص(٣) و بذلك قلت هيبة الخليفة واجترأ الناس عليه . وأخيراً كان مصرعه المشئوم .

وفى ضوء ماتقدم نستطيع أن نقول : إن حالة الموالى منذ بدأ عهد عثمان لم تكن كحالتهم قبل ذلك . فلقد حول مقتل عمر شعور الـكثير من المسلمين إلى السخط على الأعاجم ، وفوق ذلك فقد بعد عهد المسلمين بالرسول فضعفت نوازع الخير فى نفوس الـكثير منهم ، وابتدأت الأنانية والعصبيات القديمة تحيا بينهم من جديد ، وصادفتهم البلاد المفتوحة بخيراتها الـكثيرة فانصرفوا إلى الناحية المادية وانغمسوا فى الترف والنعيم ولقد كان هذا الترف المفاجىء ذا أثر كبير فى نفوسهم فشعروا بزهو وكبرياء ، ونظروا إلى الموالى نظرة الغالب للمغلوب ، وهى نظرة كثيراً ما تنطوى على الازدراء والتحقير : ولـكن هذا لايعنى أن سياسة الخليفة نفسه مع الموالى كانت تتنافى مع العدالة والمساواة

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ١٤٢ .

(٢) المرجع السالف . وفتح العرب لمصر لبتلر ص ٤٠٠ .

(٣) اليعقوبى ج ٢ ص ١٥١ .

فان سياسة الخلفاء إنما تنبعث أولا وقبل كل شيء عن أخلاقهم الشخصية . ونوازعهم النفسية . ولقد كان عثمان نفسه ذا خلق كريم فسوى بين الناس جميعاً فى الأعطية [1] وخالف بذلك رأى عمر ورجع إلى رأى أبى بكر حتى لقد أنقص عائشة مما كان يعطيها عمر بن الخطاب وصيرها أسوة غيرها من نساء الرسول [2] .

وكان على بن أبى طالب أيضاً يؤمن برأى أبى بكر فى العطاء وهو التسوية [3] . ولكن المجتمع العربى كان قد تسمم منذ جاء عهد عثمان بالأثرة والأنانية كما ذكرنا من قبل ولذا تعرض على لسخط الكثير من العرب حتى أن ابن أبى الحديد يعلل تقاعد الكثير من العرب عن نصرة على بأنه كان لا يفضل شريفاً على مشروف ولا عربياً على عجمى [4] ، وحتى يروى أن طائفة من أصحاب على مشوا إليه فقالوا : يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم . فقال لهم : أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور [5] ؟ .

فأنت ترى أن علياً بن أبى طالب يرى فى تفضيل العرب على الموالى ظلماً وجوراً لأن العصبية الإسلامية ومبادئ الإسلام العادلة كانت لا تزال متمكنة فى نفسه بينما أن أصحابه الذين أشاروا عليه بتفضيل العرب لا يرون فى ذلك ظلماً ولا جوراً لأن العصبية الاسلامية ومبادئ الاسلام العادلة قد ضعفت فى نفوسهم .

وكان على كلما رأى من الموالى إقبالا عليه أدناهم منه وقربهم إليه . وإذا حاول أحد أن ينتقده على هذا الصنيع عنفه ورد عليه بما يكبح جماحه . ومن ذلك قول الأشعث بن قيس لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وأتاه يتخطى رقاب الناس وعلى

---

(١) اليعقوبى جـ ٢ ص ١٥١ .
(٢) نفس المرجع ٢ : ١٥٢ .
(٣) الأموال لأبى عبيد ص ٢٦٤ .
(٤) ابن أبى الحديد ١ : ١٨٠ .
(٥) ابن أبى الحديد ١ : ١٨٢ .

على المنبر . فقال : يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على قربك . قال فركض على المنبر برجله . فقال صعصعة بن صوحان العبدى ما لنا ولهذا ؟ يعنى الأشعث . ليقولن أمير المؤمنين اليوم فى العرب قولاً لا يزال يذكر ، فقال على : من يعذرنى من هذه الضياطرة ؟ يتمرغ أحدهم على فراشه تمرغ الحمار . ويهجر قوم للذكر فيأمرنى أن أطردهم . ما كنت لأطردهم فأكون من الجاهلين ، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ليضربنكم على الدين عوداً كما ضربتموه عليهم بدءاً [1] .

وبهذا يتبين لنا أن عثمان وعلياً فى تمسكهما بمبدأ التسوية فى العطاء بين العرب والموالى إنما كانا يعبران عن رأيهما ورأى فريق من العرب وهم أقوياء العقيدة والإيمان بينما الفريق الآخر منهم كان يحتقر الموالى وينظر اليهم بمنظار أسود ...

فهل كانت تلك النظرة طارئة ثم زالت ؟ أم أنها استمرت إلى أمد طويل .. ؟ ذلك ما سنحاول أن نجيب عنه فى الفصول التالية .

(١) الكامل للمبرد ٢ : ٥٤ ط المطبعة الأزهرية .

الفصل الثانى

الموالى فى العصر الأموى

حالتهم الاجتماعية

العصبية القبلية والعربية ـ منزلة الموالى فى المجتمع العربى ـ زواج الموالى ـ الهجناء ـ تقدير عام .

ذكرنا فى الفصل السابق أن مقتل الخليفة عمر كان نقطة تحول فى تاريخ الموالى إذ ابتدأ الاتجاه الإسلامى العادل نحوهم يتغير رويداً رويداً ، وأخذت تطالعنا صفحة جديدة فى حياة هذه الطائفة من الناس وهى صفحة رآها العربى شوهاء مظلمة إذ لمح روح الشر تنبعث من الأعاجم وعوامل الحقد الكامن تنتبه فى نفوسهم .

وفى الوقت نفسه نظر الأعاجم فرأوا من العرب بعداً عن الروح الإسلامية الأولى واستئنافاً لعهود الجاهلية حيث أطلت العصبية القديمة بشبحها البغيض الممقوت وأخذ تيار الأنانية يجرى ويتدفق بين العرب من جديد بعد أن حجزه الإسلام حيناً من الدهر . وقلنا إن حالة الموالى كانت تتأثر بظهور العصبية العربية واختفائها فكلما وجدت تلك العصبية ساءت حالة الموالى وانحدرت منزلتهم حتى إذا ما اختفت تنفس الموالى الصعداء وأحسوا برد الراحة ونعيم السعادة .

وما دمنا بصدد الحديث عن الحالة الاجتماعية للموالى فى العصر الأموى فإن المقياس الصحيح الذى نستطيع أن نحدد به منزلتهم فى المجتمع العربى فى ذلك الحين هو قوة العصبية العربية أو ضعفها .

ويقتضينا ذلك أن نتحدث عن العصبية القبلية فى هذا العصر لأنها هى الأساس الذى تقوم عليه العصبية العربيـة إذ أن كلا العصبيتين قد انبعث من تيار واحد هو الأنانية التى كانت تبـدأ فى دائرة ضيقة هى الأسرة ثم تظل تنمو وتتسع حتى تشمل الشعب العربى بأكمله فتظهر أنانيته ضد الأمم والشعوب الأجنبية على حد قول المثل العامى « أنا وأخى على ابن عمى . وأنا وابن عمى على الغريب »[١] . فنقول :

كانت تولية معاوية بن أبى سفيان انتصاراً ثانياً للحزب الأموى على الهاشميين[٢] وقد زاد هذا الانتصار فى إحياء العصبية القديمة بين الفريقين وحينئذ قويت العصبية القبلية وأخذت تنفث فى الكيان العربى سمومها الفتاكة القاتلة .

وقد بلغت هذه العصبية القبلية أوج ظهورها وانتشارها فى موقعة (مرج راهط) وكانت هذه الموقعة سنة ٦٥ هجرية بين شعبين متناظرين وهما قيس التى كانت تشايع الضحاك فى سبيل ابن الزبير . وكلب التى كانت تشايع مروان بن الحكم وقد فنى فى هذه المعركة الجم الغفير من القيسيين وانتصرت جيوش مروان ولكن بقيت الحزازات كامنة فى نفوس القيسيين تترقب الفرص . وفى ذلك يقول زفر بن الحارث وهو من أنصار القيسيين :

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط لمروان صدعا بيننا متنائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا[٣]

ولقد تنبهت عصبية القيسيين ضد المروانيين بعد ذلك بقليل فى عهد عبـد الملك سنة ٦٧ هجرية فى موقعة خازر وهى تلك التى قامت بين أنصار عبدالملك بن مروان بقيادة الحصين بن نمير و بين أنصار المختار الثقفى الذى قام إذ ذاك يطالب بثأر الحسين

---

(١) راجع صفحة ص١٦ من الكتاب .
(٢) كان الانتصار الأول بتولية عثمان بن عفان .
(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى جـ ٥ ص ١٤١ ، ١٤٢ . الطبرى جـ ٧ ص ٤١ . مروج الذهب للمسعودى جـ ٢ ص ١٠٧ .

ابن على ويدعو لمحمد بن الحنفية . وكانت جيوش المختار بقيادة إبراهيم بن الأشتر . فلقد كان مع الحصين بن نمير جمع من القيسيين وعلى رأسهم عمير بن الحباب وفرات ابن سالم . فقال فرات لعمير قد عرفت سوء ولاية بنى مروان وسوء رأيهم فى قومنا من قيس ولئن خلص الأمر وصفا لعبد الملك ليستأصلن قيساً أو ليقصينهم ونحن منهم فانصرف بنا لننظر ما حال إبراهيم بن الأشتر . فلما دخلا عليه قال له عمير : لقد جاءك صناديد أهل الشام وأبطالهم وهم زهاء أربعين الف رجل فكيف تلقاهم بمن معك ؟ فقال إبراهيم : والله لو لم أجد إلا النمل لقاتلتهم بها . وأنا ضارب الخيل بالخيل والرجال بالرجال والنصر من عند الله[1] . قال عمير : إن قومى قيساً إذا التقى الجيلان غداً فى ميسرة أهل الشام فلا تحفل بنا فإنا منهزمون لنكسر الجيش بذلك فإنا لا نحب ظهور بنى مروان لسوء صنيعهم إلينا معاشر قيس و إنا إليك لأميل . قال إبراهيم : وذاك . ثم انصرفا إلى معسكرهما . ولما أصبح الفريقان زحف بعضهم إلى بعض فتواقفوا بمكان يدعى (خازر) ، فصاح عمير بن الحباب فى قيس : يا لثارات مرج راهط فنكسوا أعلامهم وانهزموا ، فانكسر أهل الشام عند ذلك وحمل عليهم إبراهيم بن الأشتر فأكثر القتل فيهم فانهزم أهل الشام وقتل أميرهم الحصين بن نمير[2] .

فأنت ترى أن القيسيين وهم يحاربون فى صفوف الحصين بن نمير قد طوحت بهم العصبية القبلية فى مهاوى الرذيلة فحملتهم على الغدر والخديعة وجعلتهم يتركون الجيش الذى تحالف معهم . ويفرون فجأة عن نصرته حتى حاقت به الهزيمة والاندحار .

وبلغ من خطورة العصبية القبلية وآثارها الإيجابية أن كان يترتب عليها عزل خليفة وقتله و إقامة غيره ثم عزله .. فيروى أن يوسف بن عمر الثقفى والى العراق من قبل الخليفة الوليد بن يزيد قتل خالداً القسرى وهو من اليمانية لخلاف قام بينهما[3] فلما علم الوليد بذلك سر وفرح وتيقظت فى نفسه العصبية المضرية فقال مفتخراً :

(١) الأخبار الطوال للدينورى ص ٢٨٧ و ٢٨٨ . تاريخ الفرس الأدبى لبراون .
(٢) الأخبار الطوال للدينورى ص ٢٨٨ .
(٣) المرجع السالف ص ٣٣١ .

فدع عنك ادكارك آل سعدى ... فنحن الأكثرون حصى ومالا
ونحن المالكون الناس قسراً ... نسومهم المذلة والنكالا
ونوردهم حياض الخسف ذلا ... وما نألوهم إلا خبالا
شددنا ملكنا ببنى نزار ... وقومنا بهم من كان مالا
وهذا خالد فينا قتيلا ... ألا منعوه إن كانوا رجالاً ؟
ولو كانت بنو قحطان عربا ... لما ذهبت صنائعه ضلالا
ولا تركوه مسلوبا أسيرا ... نحمله سلاسلنا الثقالا
ولكن المذلة ضعضعتهم ... فلم يجدوا لذلتهم مقالا (١)

فلما سمع من كان بأقطار الشام من اليمانية هذا الشعر أنفوا أنفاً شديداً فاجتمعوا من مدن الشام وساروا نحو الوليد بن يزيد ، وبلغ الوليد مسيرهم فأمر بمحمد بن خالد القسرى فحبس بدمشق وأقبلت اليمانية وخرج إليهم الوليد بمضر مستعداً للحرب فالتقوا واقتتلوا وحاقت الهزيمة بمضر فاتجهوا نحو دمشق ودخل الوليد قصره فتحصن فيه وأقبلت اليمانية حتى دخلوا مدينة دمشق وأخرجوا محمد بن خالد من محبسه ورأسوه عليهم فأرسل محمد بن خالد إلى ابن عم الوليد بن يزيد وهو يزيد بن الوليد ابن عبد الملك فجاء به فبايعوه جميعا وأرسل إلى أشراف المضريين فبايعوه طوعا وكرها وخلعوا الوليد بن يزيد ... وجاء الخليفة الجديد فوضع للناس العطاء وفرق فى اليمانية الصلات والجوائز وأقبل محمد بن خالد القسرى وأنصاره فتسلقوا على الوليد بن يزيد قصره وقتلوه (٢) .

وهكذا انتهت حياة ذلك الخليفة بتلك المأساة القاسية نتيجة لتلك العصبية القبلية التى تجلت فى قصيدته السالفة .

وقد حزنت هذه المأساة فى القبائل المضرية فاجتمعوا من أقطار الأرض وأقبل

(١) المرجع السالف ص ٣٢٣ .
(٢) المرجع السالف ص ٣٣٣ .

بعضهم إلى بعض وساروا حتى وافوا مدينة حمص وبهـا مروان بن محمـد بن مروان ابن الحكم ، وكان يومئذ شيخ بنى أمية ، وكبيرهم وكان ذا أدب كامل ورأى فاضل فاستخرجوه من داره وبايعوه وقالوا له انت شيخ قومك وسيدهم فاطلب بثأر ابن عمك الوليد بن يزيد فاستعد مروان بجنوده فى تميم وقيس وكنانة وسائر قبائل مضر وسار نحو مدينة دمشق . وبلغ ذلك إبراهيم بن الوليد وهو الخليفة إذ ذاك فتحصن فى قصره ودخـل مروان بن محمد دمشق فأخذ إبراهيم بن الوليد وولى عهده عبد العزيز ابن الحجاج فقتلهما[1] .

ومن تلك الأمثلة السابقة نرى أن موجة شديدة من العصبية القبلية قد غمرت المجتمع العربى فى عصر بنى أمية . فتحكمت فى سياستهم وتطاولت إلى ولاتهم وخلفائهم حتى كانت هى التى تقيم وتقعد ، وتنقض وتبرم ، وتوجه دفة الأمور إلى الأغراض والأهواء كلما اختلفت الأعاصير والأنواء .

وأحيا الأمويون عصبية أخرى أضيق من العصبية القبـلية وهى عصبية الأسرة ، ويوضح لنا ذلك مافعله معاوية بن أبى سفيان من حمله الناس على الاعتراف بولده يزيد خليفة من بعده وولى عهد له . ولقد سلك معاوية لتحقيق هذه الغاية سبيل الوعد والوعيـد والترغيب والترهيب حتى تمت البيعـة ليزيد بينما يوجـد غيره من الأماثل الأكفاء الذين يتميزون عنه فى جميـع نواحيه كالحسن والحسين ابنى على وعبد الله بن الزبير وغيرهم من أفذاذ العرب[2] .

ولقد تأسى بمعاوية فى ذلك كثير من الخلفاء الأمويين فبايع مروان بن الحكم لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز . وبايع عبد الملك لابنيه الوليد ثم سليمان وهكذا .

ومن يقرأ الشعر فى العصر الأموى تتجلى له هـذه النزعة القبلية عنـد العرب سافرة واضحة فيقول جرير يمدح قومه من مضر ويذم الآخرين من تغلب :

---

(١) الأخبار الطوال للدينورى ص ٣٣٤ .

(٢) راجع ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٧ و ٢١٨ فى كتابه الكامل .

إن الذى حرم المكارم تغلبا   جعل النبوة والخلافة فينا
مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم   يا آل تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة   لو شئت ساقكم إلى قطينا [1]

والكميت يذكر فى قصيدة طويلة مناقب قومه من مضر بن نزار وربيعة بن نزار وإياد وأنمار ابنى نزار ويكثر فيها من تفضيلهم على قحطان فتثور العصبية بين النزارية واليمانية (القحطانية) وقد جاء فى تلك القصيدة :

لنا قمر السماء وكل نجم   تشير إليه أيدى المهتدينا
وجدت الله إذ سمى نزارا   وأسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصات   وللناس القفا ولنا الجبينا
وما ضربت هجائن من نزار   فوالج من فحول الأعجمينا
وما حملوا الحمير على عتاق   مطهرة فيلفوا مبلغينا
وما وجدت بنات بنى نزار   حلائل أسودينا وأحمرينا [2]

وقد نقض دعبل بن على الخزاعى هذه القصيدة على الكميت وذكر مناقب اليمن وفضائلها وصرح وعرض بغيرهم كما فعل الكميت وذلك فى قصيدته التى يقول فيها :

أفيقى من ملامك يا ظعينا   كفاك اللوم مر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالى   يشيبن الذوائب والقرونا
أحيي الغر من سروات قومى   لقد حييت عنا يا مدينا
وماطلب الكميت طلاب وتر   ولكنا لنصرتنا هجينا
لقد علمت نزار أن قومى   إلى نصر النبوة فاخرينا

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٥٩ طبعة الساسى . شرح ديوان جرير ص ٥٧٨ و ٥٧٩ .
(٢) يشير الى غارة الحبشة على اليمن واختلاط بعض الأحباش باليمنيين حتى أنتجوا سلالة هجينة سوداء ، وكلمة « أحمرينا » تشير فيها نظن الى فتح الفرس لليمن واختلاط الفارسيين باليمنيين حتى نشأ عنهم سلالة حمراء .

وهى قصيدة طويلة وقد أخذ النزارية واليمانية يتساجلان فافتخرت نزار على اليمن وافتخرت اليمن على نزار وأدلى كل فريق بماله من المناقب وتحزبت الناس وثارت العصبية فى البدو والحضر[1] .

وإنه ليصور لنا مدى تلك العصبية القبلية ما روى عن رجل من الأزد أنه كان يطوف بالبيت وهو يدعو لأبيه ، فقيل له : ألا تدعو لأمك ؟ فقال : إنها تميمية[2] . !

فهذا الأزدى قد أوردته العصبية القبلية موارد العقوق حتى ضن على أمه بالدعاء فى وقت الطواف . وهو الوقت الذى يتجرد فيه الإنسان من شوائب الاعتبارات الدنيوية مهما تكن قوتها . ولكنه على الرغم من ذلك كله قد نسى أو تناسى جلال الموقف وعاطفة البنوة حينما تذكر أن أمه تميمية . .

وفى ظل هذه العصبية القبلية كان الموالى يشعرون من العرب بازدراء واحتقار فإن العربى الذى كان يتعصب ضد ابن عمه من قبيلة أخرى كان يجتمع معه ضد الأجنبى من غير العرب كما ذكرنا من قبل[3] أو على الأقل كانت كل قبيلة من العرب تنظر إلى الأعجمى كأنه من قبيلة أخرى .

فليس بغريب إزاء هذه العصبية الحمقاء ما نراه من تلك الصور المتعددة والظواهر الكثيرة التى تؤيد ما قدمنا من نظرة العربى إلى المولى هذه النظرة السوداء .

فيروى أن نافع بن جبير بن مطعم قدم رجلا من الموالى يصلى به فلامه العرب

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ١٩٧ .

(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ١٩٨ .

(٣) قد يصادف أن تثور العصبية القبلية بين القبيلتين وترى موالى كل قبيلة يحاربون موالى القبيلة الأخرى ، ولكن هذا لا يعنى أن قلوبهم مع العرب ضد اخوانهم أو أن قلوب العرب معهم حتى فى الوقت الذى يستنصرون فيه بهم فان انضمام هؤلاء الموالى إلى أى قبيلة إنما يكون بدافع منفعة مادية يرجونها أو سطوة من قبيلة يخشون خطرها كما أن ائتلاف العرب معهم كان مؤقتا وكان مبعثه حب الغلبة والفوز بالجاه والسلطان ولو كان هذا الفوز بسلاح أجنبى .

فى ذلك أشد اللوم فقال : إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه[1] . وفى رواية أخرى أنه كان إذا جلس فى مجلس الموالى قال : أردت التواضع لله بالجلوس إليكم[2] .

وكان نافع بن جبير هذا إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فان قالوا قرشى قال: واقوماه ، و إذا قالوا عربى قال : وابلوتاه ، و إذا قالوا مولى قال : هذا مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء[3] .

ويلاحظ أن هذه الكلمة التى كانت تصدر عن ابن جبير ، إذا مرت به جنازة مولى من الموالى ، تدل على عصبية عنيفة ، بلغ من عنفها أنها لم تتأثر بجلال الموت وما يوحيه فى النفس من العظة البالغة والشعور بالمساواة حيث يجمع هذا القانون الحتمى بين الشريف والصعلوك ويسوى بين العظيم والحقير . .

ونزل جرير بن عطية الخطفى بقوم من بنى العنبر فلم يضيفوه حتى اشترى منهم القرى فانصرف وهو يقول :

يا مالك بن طريف إن بيعكم　　رفد القرى مفسد للدين والحسب

قالوا نبيعكه بيعاً فقلت لهم　　بيعوا الموالى واستحيوا من العرب

قال المبرد : إن جلة الموالى أنفت من هذا البيت لأنه حطهم ووضعهم ورأى أن الإساءة إليهم غير محسوبة عيباً[4] .

وفى المعارك والحروب التى كان يشترك الموالى فيها مع العرب كان العرب يركبون الخيل ولا يسمحون للموالى بذلك بل يرغمونهم على القتال راجلين[5] .

وواضح أن السر فى ذلك أنهم يأنفون أن يتساوى الموالى معهم ومن ناحية أخرى يضنون بالدم العربى ويريدون إن دارت الدائرة عليهم أن يفنى الموالى قبل

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٦٣ .
(٢) المعارف لابن قتيبة ص ١٤٥ ــ دراسات فى القرن الأموى للأب لامنس .
(٣) العقد الفريد جـ ٢ ص ٦٣ .
(٤) الكامل للمبرد جـ ٢ ص ٥١ و ٥٣ .
(٥) الدولة العربية قيامها وسقوطها لفلهوزن ص ٢٤٥ .

العرب وألا يتمكنوا من الهرب . فلقد قال المختار الثقفى لابراهيم بن الأشتر يوم خازر — وهو اليوم الذى قتل فيه عبيد الله بن زياد — : إن عامة جندك هؤلاء الحمراء وإن الحرب إن ضرستهم(١) هربوا فاحمل العرب على متون الخيل وأرجل الحمراء أمامهم(٢) .

ويوضح لنا هذه الفكرة مارواه البياسى فى كتابه « الإعلام بالحروب الواقعة فى صدر الإسلام » إذ يقول : إن المختار ولى أحمر بن شميط قيادة الجيوش فجاء إليه عبد الله ابن وهب الجشمى وكان على ميسرته فقال له : إن من الموالى رجالا كثيراً على الخيل وأنت تمشى فمرهم فلينزلوا معك فإن لهم بك أسوة . إنى أخاف إن طوردوا ساعة أو طوعنوا وضوربوا أن يطيروا على متونها ويسلموك ورأيك . إن أرجلتهم لم يجدوا من الصبر بداً . يقول البياسى : وإنما كان هذا غشاً منه للموالى والعبيد لما كانوا لقوا منهم بالكوفة وأحب إن دارت عليهم الدائرة أن يكونوا رجالا لا ينجو منهم أحد . ولم يتهمه ابن شميط فظن أنه إنما أراد بذلك نصيحته ليصبروا ويقاتلوا فقال : يا معشر الموالى انزلوا معى فقاتلوا . فنزلوا معه ثم مشوا بين يديه وبين يدى رايته(٣) . وقد هزم أنصار المختار فى هذه المعركة ولم ينج منهم إلا طائفة من أصحاب الخيل . وأما رجالتهم فأبيدوا إلا قليلا(٤) .

وذكر صاحب العقد الفريد أن العرب كانوا لا يكنون الموالى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ولا يمشون فى الصف معهم ولا يتقدمونهم فى الموكب وإن حضروا طعاماً قاموا على رءوسهم(٥) وإن أطعموا المولى لسنه وعلمه وفضله أجلسوه فى طريق الخباز لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب . ولا يدعونهم يصلون

---

(١) يريد إذا اشتدت عليهم .

(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٥٣ .

(٣) البياسى ج ٢ ص ١٤٤ مخطوط رقم ٣٩٩ تاريخ بدار الكتب الملكية .

(٤) البياسى ج ٢ ص ١٤٤ . وأنساب الأشراف للبلاذرى ج ٥ ص ٢٥٣ .

(٥) أى قام الموالى على رؤوس العرب كالخدم .

على الجنازة إذا حضر أحد من العرب . وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها و إنما يخطبها إلى مواليها[1] . فإن رضى زوج و إلا رد فإن زوج الأب أو الأخ بغير رأى مواليه فسخ النكاح و إن كان قد دخل بها وكان سفاحاً غير نكاح[2] .

و إذا صحت هذه الرواية فإنها تدل على مدى الاحتقار الذى كان يعانيه الموالى ويقاسونه من العرب على الرغم من أن المبادئ الإسلامية لم تفرق بين الأجناس المنضوية تحت لواء الإسلام كما ذكرنا قبل ذلك .

وروى عباس بن سهل بن سعد أن الذى تولى قتال أهل الشام يوم تحريق الكعبة هو وعبدالله بن مطيع والمختار . قال وخرج المختار وخرجت معه . فقلت ليخرج إلى منكم رجل وقال المختار مثل ذلك . فخرج إلى رجل وإليه آخر فمشيت إلى صاحبي فقتلته ومشى المختار إلى صاحبه فقتله ، فاذا الذى قتلته رجل أحمر شديد الحمرة كأنه رومى . و إذا الذى قتل المختار أسود شديد السواد قال[3] : أما والله لو قتلانا لفجع بنا عشائرنا ومن يرجونا ، وما هذان وكلبان من الكلاب عندى إلا سواء ولا أخرج بعد يومى هذا أبداً إلا لرجل أعرفه[4] .

و روى أن خالد بن صفوان زوج مولى له من مولاة . وقد خطب خالد فى هذا الزواج أمام الناس فقال : أما بعد فإن الله أعز وأجل من أن يذكر فى نكاح هذين الكلبين . وقد زوجنا هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة[5] .

ويقول رفيع بن هذيل الأسدى وهو يتحدث عن بعض صفات الموالى

---

(١) أى إلى سيدها الذى تنتسب اليه بطريق الولاء .
(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٦٣ .
(٣) أى المختار .
(٤) البياسى جـ ٢ ص ١٠٢ .
(٥) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ ص ١٣٠ .

ومن لا يلبس المولى مراراً على الأقذار ، ليس له مولى[١]

وكان العرب يقولون : لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو مولى أو كلب[٢] وكانوا يسمون الموالى بنى إستها[٣] . وهى كلمة قبيحة للتشنيع عليهم والحط من شأنهم .

وكما كان اليونان فى العصور القديمة يعتقـدون بسمو كل ما هو يونانى حتى أن أرسطو بنى نظريته فى الرق على أسـاس أن الرقيق لا بد أن يكون من عنصر أجنبى عن اليونان[٤] ، فكذلك كان العرب فى هذا العصر الذى نؤرخه يعتقدون أنهم خلقوا للسياسة والسـيادة وأن غيرهم خلق للخدمة والمهانة ، حتى أنه ليروى أن عربياً تخاصم مع مولى بين يدى ابن عامر صاحب العراق فقال له المولى : لا كثر الله فينا مثلك . فقال له العربى : بل كثر الله فينا مثلك . فقيل له : أيدعو عليك وتدعو له ؟ قال : نعم . يكسحون طرقنا ، ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا[٥] .

ولم تكن نظرة العربى للموالى نظرة ازدراء فحسب . ولـكنها كانت ممتزجة بكثير من البغض والكراهية . وروى ابن سعد فى ذلك أن الشعبى مر ومعه صالح بن مسلم فوجدا حماداً بالمسجد وحوله أصحابه من الموالى ولهم ضوضاء وأصوات فقال : والله لقد بغض إلى هؤلاء هذا المسجد حتى تركوه أبغض إلى من كناسة دارى[٦] .

وليس أدل على مدى كراهيتهم للموالى من أن أصحاب مصعب بن الزبير قد اقترحوا عليه حينما استسلمت إليهم جيوش المختار أن يقتـل الموالى ويطلق سراح غيرهم[٧] . ولقد علق بعض مؤرخى الفرنجة على هذا الحادث بقولهم : «ولا شك أن محاولة

---

(١) الحماسة للبحترى ص ٢٤٦ طبعة لويس شيخو .
(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٣ .
(٣) الطبقات الـكبرى لابن سعد ج ٦ ص ١٧٥ طبعة أوروبية .
(٤) النظريات السياسية عند اليونان والرومان للاستاذ سامى عاشور .
(٥) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٣ .
(٦) الطبقات الـكبرى لابن سعد ج ٦ ص ١٧٥ طبعة أوروبية .
(٧) الطبرى ج ٧ ص ١٥٩ ــ ١٦١ .

قتل الموالى من الأعاجم و إطلاق العرب السجناء تدل على أن الصفة البارزة لهذا العصر تتجه نحو العصبية العربية »[1] . ونحن نقر هذه الملاحظة ولا نرى فيها شيئاً من المبالغة حيث إن المصادر العربية الرئيسية كلها تشير إلى مثل ذلك .

ومن المظاهر التى تدل على مدى احتقار العرب للموالى ما كان يسود بينهم من الترفع عن مصاهرة الموالى والامتناع من تزويجهم أنفة واستكباراً واعتقاداً بأنهم جنس شريف ولا يصح أن يقاس الموالى بهم أو يسيروا فى صفوفهم . وكانوا يمقتون زواج الموالى من العربية وزواج العربى من غير العربية ويعتقدون فى ذلك النقيصة والعار . ولكن أقوياء الإيمان — وهم قليل إذ ذاك — كانوا لا ينظرون مثل هذه النظرة بل كانوا يعتبرون أن الإسلام هو الأساس وهو المقياس الفارق بين الشرف والخسة .

ولقد أعتق الحسين بن على جارية له ثم تزوجها بعد ذلك فكتب معاوية اليه « من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن على . أما بعد فإنه بلغنى أنك تزوجت جاريتك وتركت أكفاءك من قريش ممن نستحسنه للولد ونمجد به فى الصهر فلا لنفسك نظرت ولا لولدك انتقيت » . فكتب إليه الحسين بن على « أما بعد فقد بلغنى كتابك وتعييرك إياى بأنى تزوجت مولاتى . وتركت أكفائى من قريش فليس فوق رسول الله منتهى فى شرف ولا غاية فى نسب و إنما كانت ملك يمينى ، خرجت عن يدى بأمر التمست فيه ثواب الله تعالى . ثم ارتجعتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ووضع عنا به النقيصة . فلا لوم على امرئ مسلم إلا فى أمر مأثم و إنما اللوم لوم الجاهلية[2] » . وعلى بن الحسين بن على المعروف بزين العابدين أعتق جارية له وتزوجها . فكتب إليه عبد الملك بن مروان يعيره بذلك . فكتب إليه زين العابدين : لقد كان

---

(١) موير ص ٣٣٦ وبراون ص ٢٢٩ .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٢٩ — زهر الآداب للحصرى ١ : ٥٧ ط زكى مبارك . ودراسات إسلامية فى حكم معاوية للاب لامنس ص ٣٧٥ .

لكم فى رسول الله أسوة حسنة . وقد أعتق رسول الله صفية بنت حيي بن أخطب وتزوجها . وأعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش [1] .

ولكن زواج العربى بغير العربية كان أخف بكثير فى نظرهم من زواج المولى بالعربية ، فإذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ أمره إلى الوالى طلقها منه ، كما حدث لأعراب بنى سليم فى الروحاء فإنهم جاءوا الروحاء فخطب اليهم بعض مواليها إحدى بناتهم فزوجوه . فوشى محمد بن بشير الخارجى إلى والى المدينة بذلك ففرق الوالى بين الزوجين وضرب المولى مائتى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه . وفى ذلك قال محمد بن بشير يمدح عمل الوالى واسمه أبو الوليد :

شهدت غداة خصم بنى سليم　　وجوهاً من قضائك غير سود
قضيت بسنة وحكمت عدلا　　ولم ترث الحكومة من بعيد
إذا غمز القنا وجدت لعمرى　　قناتك حين تغمز خير عود
حمى حدباً لحوم بنات قوم　　وهم تحت التراب أبو الوليد
وفى المائتين للمولى نكال　　وفى سلب الحواجب والخدود
إذا كافأتهم ببنات كسرى　　فهل يجد الموالى من مزيد ؟
فأى الحق أنصف للموالى　　من اصهار العبيد إلى العبيد [2]

ويذكرون أن عظيما من عظماء الدهاقين أراد أن يتزوج امرأة من باهلة . وباهلة كما نعلم من أحط قبائل العرب حتى قال بعض الشعراء فى ذلك :

لو قيل للكلب يا باهلى　　عوى الكلب من شؤم ذاك النسب

وحتى قال الآخر :

وما ينفع الأصل من هاشم　　إذا كانت النفس من باهلة [3]

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص ١٥٩ ـ وكتاب يزيد للاب لامنس ص ٨٣ .
(٢) الأغانى ج ١٤ ص ١٤٤ طبعة الساسى .
(٣) ابن خلكان ٢ : ١٨٢ طبعة الوطن .

ومع ذلك أرسل إليها هذا العظيم يخطبها فأبت فاستجاش ورجا أن يسبوا من فى القصر حتى يتسنى له أن يأخذ المرأة فثارت ثائرة القبائل العربية وعلى رأسهم المسيب بن بشر الرياحى وشعبة بن ظهير النهشلى وثابت قطنة ، حتى قال شعبة بن ظهير لو كان ههنا خيول خراسان ما وصلوا إلى غايتهم ، وقد استهدف العرب من جراء ذلك لحرب كبيرة وانتصر فيها العرب بعد أن أحاطت بهم الأهوال . وفى ذلك يقول شاعرهم وهو يفتخر :

فلولا الله ليس له شريك وضربى قونس الملك الهمام
إذن لسعت نساء بنى دثار أمام الترك بادية الخدام
فمن مثل المسيب فى تميم أبى بشر كقادمة الحمام (١)

وقال جرير يذكر المسيب ويمتدح عمله :

لولا حماية يربوع نساءكم كانت لغيركم منهن أطهار (٢)

وإن من يقرأ قصيدة أبى بجير فى تأنيب آل عبد القيس لتزويجهم الموالى يتجلى له إلى أى حد كان العرب ينكرون هذه الناحية ويحاربونها ويرون فيها الذلة والصغار . قال أبو بجير :

أمن قلة صرتم إلى أن قبلتم دعارة زراع وآخر تاجر
وأصهب رومى وأسود فاحم وأبيض جعد من سراة الأحامر
فهلا أبيتم عفة وتكرما وهلا وجلتم من مقالة شاعر
تعيبون أمراً ظاهراً فى بناتكم وفخركم قد جاز كل مفاخر
لقد صرت لا أدرى وإن كنت ناسياً لعل نجاراً من هلال بن عامر

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٦٢ — ١٦٤ حوادث سنة ١٠٢ .
(٢) المرجع السالف . وشرح ديوان جرير ص ١٩٨ .

وعلى رجال الترك من آل مذحج   وعلى تميما عصبة من يحامر
وعلى رجال العجم من آل عالج   وعلى البوادى بدلت بالحواضر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم   وأولى بقربانا ملوك الأكاسر[1]

ووسط هذا التيار الجارف من العصبية العربية استطاعت الأغراض والأهواء أن تنفذ الى الأحاديث النبوية وهى إحدى الدعائم التى يقوم عليها الدستور الإسلامى فوضع الوضاعون أحاديث تتفق مع هذه النزعة ونسبوها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكى يزداد التمسك بها من جمهرة المسلمين .

ولا شك أن وضع مثل هذه الأحاديث ورواجها عند الفقهاء فى ذلك الوقت يصور لنا الروح التى كانت تسود بينهم وتسيطر على أفكارهم فيروون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا لا يزوج النساء إلا الأولياء ولا يزوجن إلا من الأكفاء . وقال : قريش بعضهم أكفاء لبعض بطن ببطن ، والعرب بعضهم أكفاء لبعض قبيلة بقبيلة ، والموالى بعضهم أكفاء لبعض رجل برجل[2] . وقد نظر بعض الأئمة من الفقهاء إلى هذين الحديثين فقالوا : إن الكفاءة فى النكاح معتبرة من هذه الناحية ، وإن الأعجمى ليس بكفء للعربية[3] .

ولو نظرنا إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إنما الفضل بالتقوى » ومايؤيده فى قوله تعالى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣٢ .

(٢) القرشيان من جمعهما أب واحد هو النضر بن كنانة فمن دونهم ومن لم ينسب إلا إلى أب فوقه فهو عربى غير قرشى وقريش عمارة تحتها بطون وأعم الطبقات الشعب مثل حمير وربيعة ومضر ثم القبيلة مثل كنانة وقد نظم ذلك بعض الشعراء فقال :

قبيلة فوقها شعب ودونهما   عمارة ثم بطن تلوه فخذ
وليس يأوى الفتى إلا فصيلته   ولا سداد لسهم ماله قذذ

وقد يطلقون القبيلة على أولاد الأب الواحد .

(٣) المهذب فى فقه الشافعية .

وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وما ورد فى سبب نزول هذه الآية من أن رسول الله صلى عليه وسلم أمر بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند (مولى لهم) امرأة منهم فقالوا : يارسول الله نزوج بناتنا من موالينا؟ فنزلت تلك الآية[١] للرد عليهم ولإرشادهم إلى الطريق الإسلامى الصحيح . . لو نظرنا إلى ذلك وغيره وجدنا أن الكفاءة فى النكاح من هذه الناحية غير معتبرة وأن الأساس فى الكفاءة هو الإسلام فحسب . ولذا فإنا نشك كثيراً فى هذين الحديثين اللذين استدل بهما بعض الفقهاء فى عدم كفاءة الأعجمى للعربية ونرجح أنهما من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة ويساعدنا على ذلك الترجيح فوق ما ذكرناه من الآيات والأحاديث ما ذكره بعض العلماء فى هذا الصدد . فلقد ذكر صاحب كتاب فتح القدير فى فقه الحنفية[٢] عن حديث « ألا لايزوج النساء إلا الأولياء ولايزوجن إلا من الأكفاء » أنه حديث ضعيف لأن فى سنده مبشر بن عبيد عن الحجاج بن أرطاة . والحجاج مختلف فيه نسبه قوم إلى الوضع . وقال فى حديث « قريش بعضهم أكفاء لبعض إلخ . . . » رواه الحاكم بسند فيه مجهول فإن شجاع بن الوليد قال : حدثنا بعض إخواننا عن ابن جريج عن عبد الله بن أبى مليكة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى من طريق آخر بسند فيه عمران بن أبى الفضيل الأيلى وقد ضعفت هذه الرواية بأن عمران قد عرف عنه أنه يروى الأحاديث الموضوعة[٣] .

وبهذا يتبين لنا أن الحديثين المفيدين لاعتبار الكفاءة فى النكاح عن طريق الاختلاف القبلى أو الجنسى ضعيفان أو موضوعان ولا يصح الاستناد اليهما .

د وقد ثبت من الناحية العملية أن أخت عبد الرحمن بن عوف تزوجت من بلال

---

(١) حاشية الجمل على شرح الجلالين جـ ٤ ص ٢١٦ .
(٢) شرح فتح القدير جـ ٢ ص ٤١٧ .
(٣) شرح فتح القدير جـ ٢ ص ٤٢٠ .

وهو حبشى وزوج أبو حذيفة بنت أخيه من مولاه [1] ولم ينكر عليهما الرسول صلى الله عليه وسلم هذا العمل بل لقد زوج الرسول مولاه زيد بن حارثة زينب بنت جحش (بنت عمته) [2].

وإذن فالدين الإسلامى لا يمنع أن يتزوج المولى من العربية أو أن يتزوج العربى من الأعجمية ولكن الأمويين — بصفة خاصة — قد تنبهت فى نفوسهم العصبية العربية فجعلتهم يحتقرون كل شىء ليس بعربى ويرون فيه الخسة والصغار [3].

ولم يقتصر احتقار العرب على الموالى فحسب ولكنه امتد إلى طائفة المولدين فكانوا يحتقرون ابن الأمة من العربى ويسمونه الهجين إشارة إلى ما فيه من عيب ونقص. جاء فى لسان العرب الهجنة من الكلام ما يعيبك والهجين العربى ابن الأمة لأنه معيب. وقال الشاعر:

ما غيرت وجهه أم مهجنة ... إذا القتام تغشى أوجه الهجن [4]

وقال عبد الملك بن مروان:

ألم أنهكم أن تحملوا هجناءكم ... على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوى المرءان هذا ابن حرة ... وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك
وتضعف عضداه ويقصر سوطه ... وتقصر رجلاه فلا يتحرك
وأدركه خالاته فنزعنه ... ألا إن عرق السوء لا بد يدرك [5]

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووى ج ١ ص ٢٠٦.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص ١٥٩.

(٣) من العجيب أن العرب قد توارثوا هذه النزعة منذ ذلك الزمن البعيد جيلا بعد جيل حتى أننا نراها لا تزال مسيطرة على نفوس القبائل العربية الموجودة فى عصرنا الذى نعيش فيه فنراهم فى مصر مثلا يأنفون أن يزوجوا بناتهم إلى الفلاحين (وهم الذين تنطبق عليهم التسمية بالموالى لأنهم من المسلمين وليسوا من العرب) ويقولون حينما يحاول أحد من الفلاحين أن يتزوج منهم: يأخذها التمساح ولا يأخذها الفلاح. وعرب الصعيد يقولون: لا تزوج بنتك الفلاح لئلا تبغل أى لئلا تنجب أولاداً كراما.

(٤) الأغانى ج ٤ ص ١٠٥.

(٥) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣٠.

وذهب أعرابى إلى سوار بن عبدالله القاضى فقال : إن أبى مات وتركنى وأخاً لى، وخط خطين ناحية ، ثم قال : وهجينا لنا . ثم خط خطاً آخر ناحية ، ثم قال : كيف ينقسم المال بيننا ؟ فقال سوار : المال بينكم يقسم أثلاثاً إن لم يكن وارث غيركم . فقال له : لا أحسبك فهمت إنه تركنى وأخى وهجيناً لنا فقال سوار المال بينكم سواء . فقال الأعرابى : أيأخذ الهجين كما آخذ و يأخذ أخى ؟ قال: أجل . فغضب الأعرابى وقال: تعلم والله أنك قليل الخالات بالدهناء[1] . فقال سوار : إذن لا يضرنى ذلك عند الله شيئاً[2] ولكن وجد من بين العرب قوم آخرون كانوا لا يرون مثل هذا الرأى ، إذ كانوا يعتقدون أن الأصول والأحساب إنما ترجع للآباء وأن المرأة ليست إلا كالوعاء . وفى ذلك يقول الشاعر :

لاتشتمن امرءاً من أن تكون له ... أم من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات القوم أوعية ... مستودعات وللأحساب آباء[3]

ولاشك أن من إنصاف هذا العصر ألا نتهمه وحده بالعصبية العربية . فإن العصر العباسى ـ وهو العصر الذى ازدهى فيه العنصر الأعجمى بالنصر والغلبة على العنصر العربى ـ لم يخل من تلك العصبية العربية ، حتى أننا رأينا بعض الموالى فى العصر العباسى يحاولون التنصل من جنسيتهم بالانتماء إلى القبائل العربية عن طريق الادعاء الكاذب .

فأبو مسلم الخراسانى وهو رافع لواء الثوره على الدولة الأموية العربية يصطنع لنفسه نسباً عربياً فيزعم أنه من نسل سليط بن عبدالله بن عباس[4] .

ووالبة بن الحباب ادعى النسب إلى العرب فهجاه أبو العتاهية بقوله :

---

(١) قيل إنه ليس بالدهناء أمة وإنما كان بها الحرائر ـ الكامل للمبرد .
(٢) عيون الأخبار ج ٢ ص ٦١ .
(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٢٩ ـ كتاب يزيد للأب لامنس .
(٤) الطبرى ج ٩ ص ١٦٧ ، وضحى الإسلام ج ١ ص ٣٦ .

أوالب أنت فى العرب   كمثل الشيص فى الرطب[1]

وروى أنه كان لعلى بن الخليل الكوفى صديق من الدهاقين يعاشره ويبره فغاب عنه مدة طويلة وعاد إلى الكوفة وقد أصاب مالا ورفعة وقويت أحواله فادعى أنه من بنى تميم . فجاءه على بن الخليل فلم يأذن له . ولقيه فلم يسلم عليه فقال يهجوه :

يروح بنسبة المولى   ويصبح يدعى العربا
فلا هذا ولا هذا   ك يدركه إذا طلبا
يشم الشيح والقيصو   م كى يستوجب النسبا
فصار تشبهاً بالقو   م جلفاً جافياً جشبا

وذكر ثعلب أن إسحق بن إبراهيم أنشد هذه الأبيات لعلى . قال :

يأيها الراغب عن أصله   ما كنت فى موضع تهجين
متى تعربت وكنت امرأ   من الموالى صالح الدين
لو كنت إذ صرت إلى دعوة   فزت من القوم بتمكين
لكف من وجدى ولكننى   أراك بين الضب والنون[2]

والتفسير الصادق لهذه الظاهرة من الموالى . هو أنهم فى العصر العباسى كانوا أيضاً يشعرون بالعصبية العربية شعوراً لا ريب فيه . ولكن الفارق بين العصر العباسى والعصر الأموى ، أن العصبية العربية فى عهد العباسيين قد برز لها أعداء يكافحونها ويكيدون لها فى وضح النهار ، بينما كانوا فى العصر الأموى لا يجرأون على المجاهرة بالعداء ، بل يعملون بين طيات الكتمان ، وفى ظلام السر والخفاء .

ومن الإنصاف لهذا العصر الأموى أيضاً أن نقول إن نزعة العداء والاحتقار

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٤٤ طبعة الساسى .

(٢) الأغانى ج ١٣ ص ١٧ . ومعنى البيتين الأخيرين لو أنك حينما ادعيت العروبة تصدق ويؤيدك العرب فى هذه الدعوى لسهل على الأمر ولقل وجدى ، ولكنى أراك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

التى كانت تظهر من العرب نحو العناصر الأعجمية لم تكن سائدة بين الأوساط الدينية والعلمية ، فالرجل الذى كان يعرف من الموالى بصلاحه وتقواه أو بعلمه وأدبه ، كان ينال من جمهرة الشعب ومن الطبقة الحاكمة كل احترام وتقدير[1] . ويكفى أنه لما توفى الحسن البصرى خرجت البصرة كلها تشيع جنازته حتى تعطلت صلاة العصر لأول مرة بمسجدها الجامع[2] . إلى غير ذلك مما هو مذكور فى تراجم العلماء والصالحين من الموالى . ولعل هذا مما يزيل التناقض الذى يبدو فى الكتب القديمة من أخبار تدل على احتقار الموالى فى تلك الحقبة من الزمن . وأخبار أخرى تدل على احترامهم[3] .

وأخيراً فمن الإنصاف لهذا العصر أن نقول إن كثيراً من الموالى كانت تبدر منهم بوادر تبعث الشكوك والهواجس فى نفوس الحكام الأمويين . إذ كانوا يرون من بعضهم خروجاً عن المبادئ الإسلامية ، ومحاولة للانتكاس والرجوع إلى دياناتهم القديمة[4] . وكانوا يرون من البعض الآخر نزعات قومية تميل إلى القضاء على السيادة العربية وتتلمس الفرص لذلك ، وطالما أقضوا مضاجع الأمويين بالدعايات السرية والثورات المتعاقبة[5] . فأضاف سلوكهم هذا عاملاً جديداً إلى العامل الأصيل فى كراهية الموالى واحتقارهم وهو العصبية العربية ، وكان الأمويون من أجل هذا وذاك يقابلون العدوان بمثله أو أكثر ، وتبعاً لهذا كانت تنحدر منزلة الموالى وتسوء حالهم ، ويلاقون من العرب ألواناً مختلفة من العنت والازدراء .

---

(١) راجع ترجمة سعيد بن جبير فى كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٦ ص ١٧٨ ، وترجمة الحسن البصرى فى كتاب ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ طبعة مطبعة الوطن .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٣) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٨ .

(٤) سنتعرض لذلك عند كلامنا على « الموالى والحركة الفكرية » .

(٥) سنذكر ذلك بتوسع فى الفصل الأخير من الكتاب .

الفصل الثالث

سياسة الدولة الأموية نحو الموالى

الأمويون بين الأحزاب المعارضة — حاجتهم الشديدة إلى بذل الأموال الكبيرة لتدعيم سلطانهم واجتذاب الخارجين عليهم — العمال الأمويون يرهقون الرعايا الأجانب — السياسة القديمة نحو الموالى تتغير : فى الجزية والخراج والعطاء — الوظائف الكبرى تقصر على العرب — تعريب الدواوين .

بلغت الفتوح الإسلامية مداها فى عصر الدولة الأموية وأصبحت أملاك المسلمين تمتد من المحيط الأطلسى غربا إلى بلاد الصين شرقا ، ومن سهول آسيا وجنوب غرب أوربا شمالا إلى المحيط الهندى والصحراء الأفريقية الكبرى جنوبا .

ومع ذلك فقد كان العرش الأموى يضطرب فوق تيارات الفتن المتلاحقة التى لم تسكن حيناً إلا لتبدأ من جديد قوية عنيفة : فالخوارج ، والعلويون ، والزبيريون . وهؤلاء جميعاً يشتركون فى بغض الأمويين ويعملون بكافة الوسائل على الكيد لهم [1] .

---

(١) ظهر حزب الخوارج على أثر قبول على بن أبى طالب مبدأ التحكيم فى موقعة صفين وهى تلك الموقعة التى قامت بين على ومعاوية فى سبيل الخلافة وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن عليا إمام بويع بيعة صحيحة فلا معنى لقبوله التحكيم مع جماعة خرجوا عليه فان الواجب يحتم عليه أن يمضى فى قتالهم حتى يدخلوا فيما دخل فيه عامة الناس عن آخرهم، فلما قبل على التحكيم خرجوا عليه وكونوا حزبا قويا له مبادئ خاصة أهمها : أنهم يرون أن الخلافة حق طبعى لكل مسلم ما دام كفءاً لا فرق فى ذلك بين قرشى وغير قرشى؛ ولذا كان معاوية أبغض إليهم من على لما كانوا يعتقدونه فيه من العبث بأموال المسلمين ولأنه لم ينل الخلافة عن رضى وإجماع من المسلمين . وقد ظل الخوارج شوكة فى جنب الدولة الأموية يهددونها ويحاربونها حربا تكاد تكون متواصلة فى شدة وشجاعة نادرة وأشرفوا فى بعض مواقفهم على القضاء على الدولة . وظل المهلب بن أبى صفرة يعانى فى قتالهم الشدائد والأهوال . وقد كانوا فرعين : فرعا بالعراق وما حولها وكان أهم مركز لهم البطائح بالقرب من البصرة وقد استولوا على كرمان وبلاد فارس وهددوا البصرة وهؤلاء هم الذين حاربهم المهلب واشتهر من رجالهم نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة . وفرعا بجزيرة العرب وقد استولوا على اليمامة وحضرموت واليمن =

ثم هناك عدو مشترك للجميع ، وهو كل من لم يسلم من أهل البلاد المفتوحة سواء أكان ينتمي إلى القبائل العربية أم كان من العناصر الأجنبية . ولا شك أن هؤلاء الذين لم يسلموا وإن كانوا يتظاهرون بالخضوع للدولة ويدفعون ما عليهم من الجزية وكافة الالتزامات المالية إلا أنهم كانوا ينطوون على حقد كمين يتلمس الفرص ويتربص الدوائر . ومن أجل ذلك كان موقف معاوية بن أبي سفيان مؤسس تلك الدولة في غاية الدقة والحرج ، ولولا حلمه النادر ، وأفقه الواسع ، وتجاربه الكثيرة لما استطاع أن يصمد لتلك الأعاصير الجائحة ، ولانهارت الدولة الأموية قبل أن يتم بناؤها.

= والطائف وأشهر رجالهم أبو طالوت ونجدة بن عامر ، ولم يتغلب الأمويون على هذين القرنين إلا بعد حروب طويلة شديدة استمرت طول عهد الأمويين . وقد أوهنت هذه الحروب الكثير من قوة الدولة الأموية وأضعفت مقاومتها لسائر الأحزاب المعارضة (كتب عن الخوارج بتوسع المبرد في كتابه الكامل جزء ٣ من ص ٩٠ إلى ص ١٦٠ ط الدلجوني . فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين بك ص ٣١٤ وما بعدها . تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم جزء ١ ص ٣٨٥ و ٤٥٨ وما بعدها) .

وأما العلويون – وهم شيعة علي بن أبي طالب وذريته – فقد قاموا بثورات كثيرة ضد الدولة الأموية . ففي عهد يزيد بن معاوية خرج الحسين بن علي مطالباً بالخلافة وقام بثورة عنيفة انتهت بقتله في كربلاء . وفي عهد هشام بن عبد الملك خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالكوفة مطالبا بالخلافة ووالي العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي فقتل زيد ودفن فلما علم به يوسف بن عمر نبشه وصلبه ثم كتب هشام يأمر بأن يحرق فأحرق ونسف رماده في الفرات وقال في ذلك يحيى بن زيد :

لكل قتيل معشر يطلبونه   وليس لزيد بالعراقين طالب

ثم خرج يحيى بن زيد بأرض الجوزجان على الوليد بن يزيد بن عبد الملك فوجه إليه نصر بن سيار والي خراسان من حاربه وقتله . وهذا كله عدا الثورات التي قامت من غير آل البيت ولكنها تؤيد دعوتهم كثورة المختار الثقفي وثورة أبي مسلم الخراساني وسنتحدث عنهما في الفصل الأخير من الكتاب (راجع في ثورات العلويين – كتاب مقالات الإسلاميين للأشعري ص ٧٥ – ٧٩ ج ١).

وأما الزبيريون فقد قام زعيمهم عبد الله بن الزبير يطالب بالخلافة ، حينما خلا له الجو بعد مقتل الحسين بن علي في عهد يزيد بن معاوية . فدعا لنفسه عام ٦١ هـ وقد علا أمره بمكة . وكاتبه أهل المدينة وقال الناس : أما إذ هلك الحسين عليه السلام فليس أحد ينازع ابن الزبير (الطبري جزء ٦ ص ٢٧٤) . وقد اتسع نطاق الدعوة لابن الزبير فانضم إليه أهل مكة والمدينة عدا عبد الله بن العباس ومحمد بن الحنفية ، إذ كانا يعتقدان أن بني هاشم أحق بالخلافة . وسرعان ما دخل أهل العراق في طاعة عبد الله بن الزبير وكذلك أهل مصر ، وأما بلاد الشام فقد انقسمت إلى أمويين وزبيريين وهكذا كاد يستتب له أمر الدولة لولا ظروف خاصة لا محل لذكرها الآن ، ولكن المهم لدينا أن حركة ابن الزبير قد قاومها الأمويون بشدة حتى انتهت بقتله على يد الحجاج الثقفي سنة ٧٣ هـ بعد أن أرق الأمويين وأقض مضاجعهم هذا الأمد الطويل .

ولقد كان الموالى منذ ذلك الوقت يكونون طبقة فى المجتمع الإسلامى الواسع الأكناف . لذلك نستطيع أن نقول إنهم أصبحوا كالشجى فى حلق الدولة ، وأن الدولة من أجلهم وقعت بين نارين أو بعبارة أخرى أن الدولة قد اضطربت بسببهم بين تيارين متناقضين : تيار الدين الإسلامى بما ينطوى عليه من مبادئ العدالة والمساواة . وتيار العاطفة الجنسية والعادات القبلية الجاهلية التى أطلت برأسها من جديد . فالدين كما قدمنا يأمر بالمساواة بين سائر المسلمين . والعاطفة الجنسية والتقاليد الجاهلية تسمو بالعنصر العربى وتحاول أن تعطيه حقوقا أكثر ومزايا أجل وأعظم . وقد تبين لنا فى الفصل السابق حالة الموالى الاجتماعية ومنزلتهم وسط المجتمع الإسلامى العربى . ولا شك أن سياسة الدولة الأموية مع الموالى — أعنى سياسة الخلفاء والولاة الأمويين معهم — لابد أن تتأثر بالنزعات الطبيعية المتأصلة فى نفوس هؤلاء الخلفاء والولاة وقد رأينا فيما تقدم أن النظرة العربية فى جملتها إلى الموالى كانت نظرة احتقار وازدراء وهذا يجعلنا نتوقع أن تكون سياستهم مع الموالى سياسة عنيفة قاسية فإنه من المبادئ المقررة لدى علماء النفس أن احتقار شخص وازدراءه من غير مسوغ معقول يؤدى حتما إلى الانتقاص من حقوقه والإساءة إليه فى المعاملة .

ونحن إذا ما تتبعنا تاريخ الخلفاء والولاة الأمويين وجدناهم فى مجموعهم متشبثين بالعصبية العربية التى لا يقرها الإسلام والتى هى الظاهرة الواضحة فى عصرهم . ووجدناهم قد اصطنعوا أساليب الحكم عند الأمم المجاورة التى هى أكثر خبرة منهم فى حكم الامبراطوريات الشاسعة . وقد اقتضى الجرى على هذه الأساليب بذل النفقات الطائلة تثبيتا لدعائمها وصيانة لبنائها من الانهيار . وكانت هذه النفقات الطائلة على حساب رعاياهم ومحكوميهم ، وعلى الأخص إذا لم يكونوا عربا مثلهم . فكانت معاملتهم إياهم لا تسير على أسس ثابتة ، ولا يمليها الحرص على المصلحة العامة وعلى مبادئ العدل والمساواة كما سيتبين لنا فيما بعد . وسنحاول فى هذا الفصل أن نبين موقف الدولة من هذا العنصر الأجنبى، بل من المسلمين منه فحسب، كما تقتضيه طبيعة

البحث الذى نحن بصدده . وسنعرض لهم فى نواحى الجزية والخراج والعطاء إلى غير ذلك من تلك النواحى الأساسية فى حياتهم وفى حياة الدولة والتى لم يسر فيها الأمويون على نظام واحد بل كانوا أحياناً ينتزعون النظم من مصالحهم الطارئة وأغراضهم المفاجئة . ولتوضيح ذلك نقول :

كانت القواعد الإسلامية تقضى برفع الجزية عن كل من أسلم[1] كما كانت تقضى بأن الأرض التى أسلم عليها أهلها تكون أرضاً عشرية ولا يفرض عليها خراج وكذلك الأرض التى أحياها المسلمون أو أحرزها الفاتحون عنوة[2] . أما الأرض

---

(١) الجزية : هى مبلغ معين من المال يوضع على الرءوس ويسقط بالإسلام . وقد ثبتت بنص القرآن لقوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » والفرق بينها وبين الخراج ، أن الخراج يوضع على الأرض لا على الرءوس ، ولا يشترط فيه أن يكون مالا وقد لا يسقط بالإسلام.

ولا تجب الجزية إلا على الرجال الأحرار العقلاء ، فلا تؤخذ جزية من مسكين ولا ممن لا قدرة له على العمل ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون أو غيرهم من ذوى العاهات ولا من المترهبين فى الأديرة إلا إذا كانوا من الأغنياء . قال الماوردى : « ويلتزم المسلمون لأهل الذمة بعد أخذ الجزية منهم بحقين : أحدهما الكف عنهم . والثانى الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين » . ولا تؤخذ الجزية إلا من الذميين فلا تؤخذ من مشركى العرب ، لأن هؤلاء لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل كما ذكرنا فى الفصل الأول . وتؤخذ الجزية من الأغنياء ٤٨ درهما . ومن المتوسطين ٢٤ درهما ، ومن الفقراء الذين يكسبون ١٢ درهما ومن عجز منهم كان يخفف عنه وليست الجزية من مستحدثات الإسلام ، بل هى قديمة فرضها اليونان على سكان آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد كما وضع الرومان والفرس الجزية على الأمم التى أخضعوها وكانت سبعة أمثال الجزية التى وضعها المسلمون . رجعنا فى ذلك إلى الكتب الآتية : « الخراج ليحيى بن آدم فقرة ٢٩ ، والخراج لأبى يوسف ص ٤٣ و ١٥٣ و ١٥٤ المطبعة السلفية . والأحكام السلطانية للماوردى ص ١٢٧ الطبعة الأولى ، والنظم الإسلامية للدكتورين حسن وعلى إبراهيم » .

(٢) العنوة : القهر . أى فتحت بعد قهر أهلها بالقتال . وإنما تكون مثل هذه الأرض عشرية « أى يؤخذ عليها عشر ثمارها ومحصولاتها ولا يدفع عنها خراج » بشرط أن يقسمها الخليفة بين الفاتحين فيملكوها . وحينئذ لا يدفعون عنها الخراج بل يدفعون العشر . أما إذا لم يقسمها الخليفة على المحاربين . بل وقفها على مصالح المسلمين فتكون أرضا خراجية لا عشرية كما فعل عمر بن الخطاب بأرض السواد ، وللأئمة من الفقهاء آراء كثيرة فى الأرض الخراجية والعشرية ذكر بعضها كتاب الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٣١ وما بعدها . وذكرتها كتب الفقه فى جميع المذاهب بتوسع كبير.

التى صولح عليها أهلها فإنها تكون فيئاً[1] ويوضع عليها الخراج. وهذا النوع الأخير من الأرض ينقسم إلى قسمين: أحدهما أرض صولح أهلها على زوال ملكهم عنها وهذه لا يجوز بيعها ويكون خراجها أجرة ولا يسقط هذا الخراج بإسلام أهلها بل يؤخذ من المسلم ومن أهل الذمة. والثانى أرض صولح أهلها على بقاء ملكهم عليها وهذه يجوز بيعها ويسقط خراجها بإسلام أهلها[2] وقدر الخراج على هذه الأرض يعتبر بما تحتمله[3].

وأما العطاء فقد وضع له ديوان خاص منذ عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكان لكل مسلم راتب يتناوله هو ورواتب لعائلته وأولاده فكأنه ديوان المسلمين باعتبار أن المسلمين كانوا كلهم جنداً فى ذلك الحين.

ولكن هل بقيت تلك القواعد الإسلامية الأولى مرعية فى عصر الدولة الأموية أم طرأ عليها التغيير والتبديل؟

أما فيما يتعلق بالجزية والخراج فيحسن أن نقدم لذلك بكلمة تتلخص فى أن الدولة الأموية كانت محتاجة الى الأموال الكثيرة فى تدعيم سلطانها واجتذاب الخارجين عليها. ومن أجل ذلك عمد الخلفاء الى اختيار عمال أشداء لا تقف الحواجز فى سبيل أغراضهم مثل زياد بن أبيه عامل معاوية وعبيد الله بن زياد عامل ابنه يزيد، والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان وابنه الوليد. وخالد القسرى عامل هشام بن عبد الملك وغيرهم. وقد أعطى الخلفاء لهؤلاء العمال سلطة واسعة وأطلقوا لهم العنان إلى حد كبير.

---

(١) الفىء كل مال وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال، خلافاً للغنيمة التى هى كل مال وصل من المشركين للمسلمين على وجه الغلبة والقهر. وكان خمس الفىء والغنيمة يعطى للرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والأربعة أخماس الباقية تقسم بتفصيل ذكره الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ٢١٧. وكان هذا فى صدر الإسلام الى أن وضع عمر بن الخطاب ديوان العطاء ...

(٢) الخراج لأبى يوسف ص ٨٢ والأحكام السلطانية للماوردى ص ٢٥٤.

(٣) راجع الخراج لأبى يوسف ص ٤٣، ٤٥، ٩٠ المطبعة السلفية.

ويصور لنا حاجة الخلفاء الأمويين إلى الأموال الكثيرة ما ذكره صاحب العقد عن الأعمش « أن زياداً كتب إلى أحد العمال أن أمير المؤمنين معاوية كتب إلى أن اصطف الصفراء والبيضاء فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة »[١]. وفكر معاوية بن أبي سفيان أيضاً في زيادة الخراج عما كان عليه أيام الخلفاء الراشدين فكتب إلى وردان مولى عمرو بن العاص أمير مصر أن زد على كل امرئ من القبط قيراطاً. فكتب إليه: كيف أزيد عليهم وفي عهدهم ألا أزيد عليهم[٢].

ولما تولى عبد الملك بن مروان كانت جزية أهل العراق ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلاً في العام فاستقل عبد الملك هذه الجزية فبعث إلى عامله فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته وطرح أيام الأعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعاً وجعلهم طبقة واحدة[٣]. ولم يلبث العمال الأمويون أن نفذوا اقتراح معاوية بزيادة قيراط على كل امرئ من القبط في مصر ولكن كان ذلك بعد عصر معاوية. وأشهر من فعل ذلك عبيد الله بن الحبحاب متولي الخراج من قبل هشام بن عبد الملك فإنه زاد على القبط قيراطاً في كل دينار فلم يصبر القبط على ذلك وكانوا لا يزالون هم السواد الأعظم فثاروا فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم جمعاً كبيراً[٤]. وقد حدث نحو ذلك على يد أسامة التنوخي متولي الخراج من قبل هشام أيضاً ولذا كثر الالتجاء إلى الرهبنة في أيامه فراراً من تلك الضريبة القاسية فأراد أن يمنع ذلك فأحصى الديور والرهبان كافة ووسم أيدي الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم الدير وتاريخه فكل من وجده بغير وسم قطع يده وألزم كل نصراني بمنشور يحمله يدل على أنه أدى ما عليه

---

(١) العقد الفريد جزء ١ ص ١٧ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٢٥ ط سنة ١٩٠٠ — والسيادة العربية لفان فلوتن ص ٢٧ .

(٣) الخراج لأبي يوسف .

(٤) الولاة والقضاة للكندي ص ٧٣ ط بيروت .

وكتب إلى العمال بأن كل من وجد من النصارى وليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم فضرب أعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب[١].

وكان هؤلاء العمال يشعرون بأن لهم سلطة واسعة فتدفعهم الأنانية إلى اختزان الكثير من الأموال يبقون بعضها لأنفسهم ويوزعون البعض الآخر كما يشاءون فترى خالداً القسرى مثلاً يعطى بعض الناس منحة قدرها عشرة آلاف درهم فيقدم له هدية فيزيدها إلى ثلاثين ألفاً[٢] ونرى يزيد بن خالد القسرى قد بلغت غلته كما يروى الأصفهانى عشرة آلاف ألف درهم[٣] ونرى أمية بن عبد الملك يكتب إلى عبد الملك بن مروان فيقول له إن خراج خراسان لايفى بمطبخى[٤].

وطبعى أن هذه الأموال كلها كانت على حساب الأهالى من سكان البلاد التى فتحها المسلمون وكان العمال لايرون فى ذلك حرجاً لاعتقادهم أن هذه البلاد فىء لهم كما قال عامل بنى أمية على العراق: «السواد بستان قريش ما شئنا أخذنا منه وماشئنا تركناه»[٥] وكما يروى أن صاحب إخنا سأل عمرو بن العاص أن يخبره بما عليه من الجزية فأجابه : لوأعطينى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم[٦].

ومن أساليبهم فى الاستكثار من الأموال أنهم كانوا يفرضون على الأهالى هدايا فى عيدى النيروز والمهرجان وغيرهما وقد بلغت تلك الهدايا أيام معاوية عشرة آلاف ألف درهم[٧].

ولعل هذا التصرف وأمثاله من الولاة والخلفاء هو الذى دفع فان فلوتن إلى قوله :

---

(١) الخطط للمقريزى جزء ٢ س ٤٩٢ .
(٢) الأغانى جزء ١٩ س ٦٢ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) الأغانى ج ١٣ س ٥٤ .
(٥) الأغانى ١١ س ٢٨ .
(٦) الخطط للمقريزى ج ١ س ٩٧ .
(٧) تاريخ اليعقوبى ج ٢ س ١٩٤ ط النجف . الوزراء والكتاب للجهشيارى س ١٥ طبع عبد الحميد حنفى .

« إن الاحتلال العربى يصور لنا بوجه عام شعباً يعيش على حساب شعب آخر »[١]

وهذا هو نفس المعنى الذى لاحظه فون كريمر إذ يقول : « كان أهل الولايات المغلوبة يحرثون و يبذرون ، والمسلمون يحصدون ولا عمل لهم سوى الحرب وشن الغارات »[٢] .

ولكننا نلمح فى استنتاجهما مبالغة ظاهرة إذ ألقيا القول على إطلاقه ، ولم يفرقا بين العصر الأموى والعصر الذى سبقه على الرغم من الفوارق الواضحة بين العصرين[٣] . حتى لقد لاحظ هذه الفوارق براون فى كتابه تاريخ الفرس الأدبى إذ يقول : « إن حالة أهل الأمم المغلوبة — لا حالة هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام فحسب ولكن أولئك الذين ظلوا على مسيحيتهم أو يهوديتهم أو مجوسيتهم كذلك — كانت محتملة إن لم يكونوا محسودين عليها وذلك فى الأيام السابقة للعهد الأموى »[٤] .

والآن وبعد بيان الحالة العامة التى كانت تكتنف الأمويين وتحيط بهم نتساءل قائلين : وماذا إذن كان موقف الأمويين من الموالى من ناحيتى الجزية والخراج فى مثل هذا الجو العجيب ؟

لقد كان المنطق الطبعى للدولة الأموية إزاء الظروف المتقدمة أن تفكر فى الطريقة التى تحصل بها على الأموال الكثيرة التى تقتضيها سلامة الدولة و إرضاء الأحزاب المعارضة والاستجابة لرغبات العمال والولاة فى الرفاهية والترف واختزان الأموال كما ذكرنا من قبل . وكان من الصعب التوفيق بين هذا المنطق و بين المصلحة العامة التى تستمد من مبادئ الإسلام الحقيقية والتى تنادى بإعطاء كل ذى حق حقه والتسوية بين العربى وغير العربى من المسلمين . ولذا فإن الشر قد تطاير وتناثر من جراء سياسة الأمويين ولم يقتصر أثره على الموالى وحدهم بل تعداهم إلى

(١) السيادة العربية ص ١٩ .
(٢) كريمر نقلا عن السيادة العربية ص ١٩ .
(٣) ذكرنا ذلك بتوسع فى الفصل الأول من الكتاب .
(٤) تاريخ الفرس الأدبى لبراون ص ٢٣٢ .

المسلمين من العرب فنجد محمداً أخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة وظلم الرعية وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجا سماه الوظيفة فلما ولى عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بإلغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر[1] .

أما الموالى فتظهر محنتهم بشكل واضح منذ أيام الحجاج بن يوسف الثقفى . فلقد كان أول من خالف القواعد الخاصة بالخراج والجزية بالنسبة لمن دخلوا حديثاً فى الإسلام من غير العرب . وذلك أن أهل البلاد الأصليين كانوا يقيمون فى القرى للزرع والحرث فمن اعتنق منهم الإسلام رفعت الجزية عن رأسه وكان بعد إسلامه يهجر القرية التى كان يعمل فيها كزارع ويهرع إلى المدن لكى يلتحق بالجيش الإسلامى ويكتب فى سجل العطاء[2] . وبدهى أن هذه الأرض التى كانت تترك ويرحل عنها أصحابها بعد إسلامهم تصبح خاضعة للظروف فقد يستأجرها الغير وقد تترك من غير زراعة وإذا استأجرها الغير ففى الغالب . أن الإيجار يكون أقل من الإيجار القديم ، فكان من جراء ذلك أن قلت الأموال التى تجبى من تلك الأقاليم كأثر لاعتناق أهلها الإسلام . ولكن الحجاج حينما رأى الإقبال على الإسلام وهاله نقص الأموال من خزانة الدولة فرض الجزية على المسلمين الجدد وألزمهم بالعودة إلى قراهم[3] . وأعاد وضع الخراج على الأرض التى أسلم أصحابها كما كان قبل إسلامهم[4] وقال لهم حينما أمر بإعادتهم إلى قراهم : أنتم علوج وعجم وقرا كم أولى بكم ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التى وجهه اليها[5] . وكان الذى تولى ذلك رجل من بنى سعد بن عجل وفى هذا يقول الشاعر :

---

(١) ابن خلدون جزء ٣ ص ٧٦ .
(٢) فليب حتى ترجمة الأستاذ مبروك نافع .
(٣) الطبرى جزء ٨ ص ٣٥ .
(٤) الملكية العقارية لفان برشم ص ٤٠ ، ٤١ .
(٥) الكامل للمبرد جزء ٢ ص ٨١ .

وأنت من نقش العجلي واحته ... وفر شيخك حتى عاد بالحكم[1]

ويذكر الطبري في هذا الصدد أن عمال الحجاج كتبوا إليه أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار. فكتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل في قرية فليخرج إليها. فخرج الناس فعسكروا فجعلوا يبكون وينادون يا محمداه.. يا محمداه وجعلوا لا يدرون أين يذهبون فجعل قراء أهل البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيبكون لما يسمعون منهم ويرون[2].

وكانت هذه المعاملة من الحجاج حافزاً للموالي في الانضمام إلى ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج كما أشار إلى ذلك الطبري وكما صرح بذلك الأثير[3].

ولم تكن هذه المعاملة خاصة بالحجاج من عمال الأمويين بل اقتدى به غيره ممن جاءوا بعده، حتى أن عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة وجد الموالي يعانون مثل هذه الحالة السيئة فكتب إلى جميع العمال بإنصافهم كما سنفصل ذلك في موضعه إن شاء الله.

ولما انقضى عصر عمر بن عبد العزيز رجع الخلفاء والولاة إلى طريقة الحجاج فكان الموالي يقابلونهم بالثورة والاضطراب الذي كان يؤدي أحياناً إلى قتل الوالي وتولية غيره. ومن ذلك ما يروى عن يزيد بن أبي مسلم عامل أفريقية في عهد يزيد بن عبد الملك. فقد ذكر المؤرخون عن سبب قتله أنه عزم أن يسير فيهم بسيرة الحجاج مع أهل الذمة الذين دخلوا في الاسلام فإنه ردهم إلى قراهم ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار، فلما عزم يزيد على ذلك اجتمع رأيهم على قتله فقتلوه وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم وهو محمد بن يزيد وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: إنا لم نخلع أيدينا من طاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا عاملك[4].

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٤ وهو يريد الحكم التميمي عامل الحجاج على البصرة.
(٢،٣) الطبري ج ٨ ص ٣٥ وابن الأثير ج ٤٠ ص ٢٢٥.
(٤) ابن الأثير جزء ٥ ص ٤٨ في كتاب الكامل. والوزراء والكتاب للجهشياري ص٥٧.

وقد حدثت بعد ذلك محاولة لإصلاح هذا الوضع الذى كان يعانيه الموالى وذلك فى عهد الخليفة هشام وفى سنة ١١٠ هـ إذ قال والى خراسان وهو أشرس بن عبد الله السلمى : ابغونى رجلا له ورع وفضل أوجهه إلى من وراء النهر . فأشاروا عليه بأبى الصيداء صالح بن طريف مولى بنى ضبة فقال أبو الصيداء : أخرج على شريطة أن من أسلم لم تؤخذ منه الجزية . قال : نعم . فشخص أبو الصيداء إلى سمرقند وعليها الحسن بن أبى العمرطة الكندى على حربها وخراجها فدعا أبو الصيداء أهل سمرقند ومن حولها إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس إلى الإسلام وقد ترتب على ذلك انكسار الخراج . فلما علم أشرس بذلك كتب إلى ابن أبى العمرطة : إن فى الخراج قوة للمسلمين وقد بلغنى أن أهل السند وأشباههم لم يسلموا رغبة و إنما دخلوا فى الإسلام تعوذاً من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراجه ، ثم عزل ابن أبى العمرطة عن الخراج وصيره إلى هانئ ابن هانئ وضم اليه الأشحيذ فقال ابن أبى العمرطة لأبى الصيداء : لست من الخراج الآن فى شىء فدونك هانئاً والأشحيذ . فقام أبو الصيداء يمنعهم من أخذ الجزية ممن أسلم . وحينئذ كتب هانئ : إن الناس قد أسلموا و بنوا المساجد. فجاء دهاقين بخارى إلى أشرس وقالوا : ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا (أى مسلمين وموالى للقبائل العربية) فكتب أشرس إلى هانئ و إلى العمال : خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه فأعاد الجزية على من أسلم . وقد ترتب على ذلك ثورات دامية ومعارك عنيفية بين جيوش الأمويين و بين أهل تلك البلاد[1] .

وفى سنة ١٢١هـ فى عهد هشام بن عبد الملك خطب والى خراسان نصر بن سيار فى بلاد ما وراء النهر فقال : إنى قد استعملت عليكم منصور بن عمر وأمرته بالعدل فيكم فأيما رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه أو ثقل عليه فى خراجه

---

(١) الطبرى جزء ٨ ص ١٩٦، ١٩٧، وابن خلدون جزء ٣ ص ٨٧، ٨٨ .

وخفف مثل ذلك عن المشركين فليرفع ذلك إلى منصور بن عمر يحوله عن المسلم إلى المشرك . قال : فما كانت الجمعة الثانية حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رءوسهم وثمانون ألف رجل من المشركين قد ألقيت عنهم جزيتهم فحول ذلك عليهم وألقاه عن المسلمين ثم صنف الخراج حتى وضعه مواضعه ثم وظف الوظيفة التي جرى عليها الصلح . قال : فكانت مرو يؤخذ منها مائة ألف سوى الخراج أيام بني أمية[1] .

فهذا النص يوضح لنا أن الموالي كانوا قبيل سنة ١٢١هـ في بلاد ما وراء النهر يدفعون الجزية وأن الوالي الجديد رفع عنهم ذلك وأن الخراج كان يوضع في غير موضعه وأن الوالي الجديد وضعه في مواضعه .

وفي سنة ١٢٣هـ قامت ثورة من البربر في الشمال الأفريقي لأن حاكم طنجة قد وضع الجزية على من أسلم منهم[2] .

وفي سنة ١٢٤هـ قام الموالي في الأندلس — وهم المسلمون من البربر — بثورة عنيفة ضد العرب من أجل سوء المعاملة التي يلقونها إذ كان العرب هناك يجحفون بهم ويعتبرونهم في منزلة أقل منهم وذلك أنهم يعطونهم الأقاليم الجبلية في الشمال وهي تلك الأقاليم المجدبة الوعرة المليئة بالأخطار والأهوال حيث توجد فلول المسيحيين وعصاباتهم ، بينما يستأثر العرب بالمقاطعات الخصيبة البعيدة عن تلك العصابات مع أن الفضل الأكبر في فتح الأندلس هو للبربر قبل غيرهم[3] .

وهذه المعاملة من العرب للموالي في الأندلس تشبه بالضبط فرض الجزية والخراج على الموالي في البلاد الأخرى وذلك للاجحاف الذي لا مبرر له فيما يتعلق بالموالي والترجيح الذي لا مبرر له فيما يتعلق بالعرب .

---

(١) الطبري جزء ٨ ص ٢٦٨ والكامل لابن الأثير جـ ٥ ص ١١١ .
(٢) ابن خلدون جـ ٤ ص ١٢٠ .
(٣) فتح الأندلس لابن القوطية ص ١٣ .

وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نستنتج أن الأمويين بعد عصر عمر بن عبد العزيز قد رجعوا فى سلوكهم مع الموالى فيما يتعلق بالجزية والخراج إلى سياسة الحجاج، أو على الأقل قد حاولوا الرجوع اليها وأنهم قد استطاعوا أن ينفذوها فى بعض الجهات بينما استعصت عليهم فى جهات أخرى وكانت سبباً لأضرار كثيرة وثورات عنيفة.

وأما سياسة الدولة فيما يتعلق بالعطاء فقد تغيرت وتبدلت أيضاً عما كانت عليه قبل ذلك ففى أيام النبى صلى الله عليه وسلم كانت الأعطيات غير محدودة لأنها كانت تتبع ما يقع فى أيديهم من الغنيمة أو الفىء فكان يفرد خمسه للنبى يوزعه كما بين القرآن الكريم فى قوله تعالى: «واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» (١). وتفرق الأربعة الأخماس الباقية فى الصحابة على السواء بلا تمييز فى السابقة أو النسب (٢). وجرى على ذلك أبو بكر رضى الله عنه فلما تولى عمر ووُضع الديوان الخاص بالعطاء وُجعل لكل مسلم راتب يتناوله هو ورواتب لعائلته وأولاده ميز عمر الناس فى العطاء باعتبار السابقة (أى السبق إلى الاسلام) والنسب ورتبهم طبقات كما تقدم. وقد عرفنا فى الفصل الأول موقف عثمان وعلى رضى الله عنهما (٣).

١ فلما جاءت الدولة الأموية لم تسر على نظام ثابت فى هذه الناحية ولكنها جعلت الغاية هى تمكين الأمر لها وتثبيت دعائمه، واستخدمت الأموال واستغلت العطاء لتحقيق هذه الغاية. فكان معاوية يزيد العطاء أو ينقصه أو يقطعه على حسب الاقتضاء حتى ليروى أن مسكيناً الدرامى وهو من قبيلة قيس قدم على معاوية فسأله

---

(١) سورة الأنفال آية ٤١.
(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص١٢٣.
(٣) راجع ص ٢٥ ـ ٢٧ من الكتاب.

أن يفرض له فأبى وكان لا يفرض إلا لليمن فخرج من عنده مسكين وهو يقول :

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وإن ابن عم المرء — فاعلم — جناحه وهل ينهض البازى بغير جناح[1]

وقد وقعت بسبب ذلك العصبية بين قيس واليمن فاضطر معاوية أن يفرض عطاء لقيس[2] .

والغالب أن معاوية كان يبذل الأموال ويضاعف الأعطية حيث يتوسم نفعاً ويرجو حظاً وفائدة ، ويدلنا على ذلك أنه بذل بسخاء فى سبيل إرضاء العلويين فضاعف لهم العطاء أضعافا كثيرة فبعد أن كان عطاء الحسن والحسين ابنى على بحسب ديوان عمر خمسة آلاف درهم فى السنة جعله معاوية مليوناً من الدراهم أى أنه ضاعفه مائتى مرة وأعطى مثل ذلك لعبد الله بن عباس لأنه ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذا عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وغيرهم من كبار أبناء الصحابة أهل النفوذ فى الإسلام ممن يقيمون بالمدينة[3] .

ويروى أن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب قدم على يزيد بن معاوية فقال له يزيد: كم عطاؤك ؟ قال : ألف ألف درهم . قال : قد أضعفناها لك. قال : فداك أبى وأمى وما قلتها لأحد قبلك . قال : أضعفناها لك ثانية . فقيل ليزيد : أتعطى رجلا واحداً أربعة آلاف ألف درهم ؟ قال : ويحكم إنى أعطيتها أهل المدينة أجمعين فما يده فيها إلا عارية[4] . وذلك كله عدا الجوائز والصلات التى لا علاقة لها بالعطاء .

---

(١) البيتان ليسا من كلام مسكين ولكنهما من كلام قيس بن عاصم وقد تمثل بهما مسكين : الحماسة للبحترى ص ٢٤٥ — رقم ١٣٢١ .
(٢) الأغانى ج ١٨ ص ٦٩ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير جزء ٨ ص ١٣٧ .
(٤) العقد الفريد ج ١ ص ١٠٣ .

فيروى أن الحسن بن على وفد على معاوية بعد عام الجماعة فقال له معاوية : والله لأحبونك بجائزة ما أجزت بها أحداً قبلك ولا أجيز بها أحداً بعدك ثم أمر له بمائة ألف[1] .

كما يروى أن عبد الله بن جعفر كان عليه دين بلغ خمسمائة ألف فركب إلى معاوية فقضاها عنه ثم وعده بإرسال عطائه كاملا[2] .

وقد يكون فى مثل هذه الروايات شىء من المبالغة ولكننا مهما اقتصدنا فى القول ومهما أسأنا الظن فإنا سوف نخرج بنتيجة لا شك فيها وهى أن الأمويين كانوا لا يبخلون بمال فى سبيل القضاء على قوة المعارضة وإحباط أغراضها .

وإذا حاولنا فيما يختص بالعطاء أن نتبين سياسة الأمويين مع الموالى وسط هذا الجو الموبوء بالخلافات الحزبية والمصادمات السياسة فإنا نستطيع أن نجزم بأنها سياسة القوى مع الضعيف ومنطق الغالب للمغلوب . وليس أدل على ذلك من أن معاوية بن أبى سفيان قد هم يوماً أن يقتلهم لولا موقف الأحنف بن قيس . فلقد روى أن معاوية ابن أبى سفيان دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال : إنى رأيت هذه الحمراء قد كثرت (يقصد بالحمراء الموالى) وأراها قد قطعت على السلف وكأنى أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق . فما ترون ؟ . فقال الأحنف : أرى أن نفسى لاتطيب .. أخى لأمى وخالى ومولاى وقد شاركناهم وشاركونا فى النسب . وأطرق . فقال سمرة بن جندب : اجعلها إلى أيها الأمير فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ منه . فقال : قوموا حتى أنظر فى هذا الأمر . قال : الأحنف فقمنا عنه وأنا خائف . وأتيت أهلى حزيناً ، فلما كان بالغداة أرسل إلى فعلمت أنه أخذ برأيى وترك رأى سمرة .

---

(١) نفس المرجع والصفحة .

(٢) البداية والنهاية جزء ٨ ص ١٣٧ .

فهذا النص و إن كان يوضح لنا أن معاوية قد هم بأن يقتل شطراً من الموالى لأنه تخوف من وثبة منهم على العرب والسلطان ، إلا أنه فى نفس الوقت يوضح لنا أنهم كانوا فى نظره طبقة مستضعفة و إلا لما حاول أن يقتل بعضهم لولا موقف الأحنف .

ومثل هذه السياسة المنطوية على القسوة من ناحية والاحتقار من ناحية أخرى تجعلنا نتوقع أن يكون نصيبهم من العطاء قليلا ، وحظهم فيه ضئيلا .

وقد ذكرت بعض الروايات أن أول من فرض لهم العطاء من بنى أمية معاوية فجعل لكل واحد خمسة عشر درهماً . جعلها عبد الملك عشرين ، ثم أبلغها سليمان إلى خمس وعشرين وجعلها هشام ثلاثين[1] .

ونحن إذا قارنا ذلك بما كان يعطى لغيرهم تجلى لنا البعد الشاسع والمدى الواسع بين الفريقين . على أن هذا الفرض قلما كان يعطى لهم لأن العمال كانوا يستخدمونهم فى الغالب بلا عطاء ولا رزق فكان فرض هذا العطاء بالنسبة إليهم أقرب إلى الرسميات منه إلى الحقيقة . ويدلنا على ذلك أن المختار الثقفى لما قام يطالب بثأر الحسين وانضم اليه كثير من الموالى نظر العرب فوجدوا أن المختار يعطى للموالى نصيباً من الفىء فأحنقهم ذلك أشد الحنق كما يروى الطبرى إذ يقول : « ولم يكن فيما أحدث المختار عليهم شىء هو أعظم من أن جعل للموالى من الفىء نصيباً وكانوا يقولون للمختار : عمدت إلى موالينا وهم فىء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً فأعتقنا رقابهم نأمل الأجر فى ذلك والثواب والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا فى فيئنا[2] » .

والذى يلفت النظر فى هذه الرواية عجب العرب من أن يفرض للموالى عطاء مع أنهم شركاؤهم إذ ذاك فى حرب الأمويين ولو كان أخذ الموالى للعطاء أمراً معتاداً من الولاة والحكام لما وقف العرب من إخوانهم الموالى هذا الموقف فى هذه المحنة القاسية

---

(١) العقد الفريد جزء ٢ ص ٢٢٧ .

(٢) الطبرى جزء ٧ ص ١١٥ ، واليمامى جزء ٢ ص ١٢٥ — تاريخ الفرس الأدبى لبراون ص ٣٣٤ .

ولقد شكا بعض الموالى لعمر بن عبد العزيز سوء معاملة الولاة ومنعهم العطاء عنهم إذ قال: إن عشرين ألفاً من الموالى يغزون بلا عطاء .. إلخ تلك الرواية [1]. وكان له موقف سنذكره فيما بعد إن شاء الله.

وذكروا أن من أسباب سخط الموالى فى شمال أفريقية — وهم مسلمو البربر — وثورتهم ضد الأمويين أنهم كانوا لا يمنحون عطاء كإخوانهم العرب. ويروى الطبرى أن جماعة منهم وفدوا على هشام بن عبد الملك فطلبوا الإذن فصعب عليهم فأتوا الأبرش فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال: هم أحق به .... وقالوا: إذا حاصرنا مدينة قال تقدموا وأخر جنده ... إلخ تلك الرواية.

ولا ينبغى أن يستغرب القارئ مثل هذا من الخلفاء والعمال الأمويين فى مجموعهم فإن الظاهرة الواضحة فى عهدهم هى تسخير الأموال فى سبيل مصلحتهم، فكانوا يعطون ويمنعون على حسب الأهواء والأغراض حتى ليروى أن الخليفة هشاما لما خرج عليه زيد بن على عاقب أهل الحرمين فمنع عنهم العطاء سنة. فلما جاء الوليد بن يزيد بعده كتب إليهم يطمئنهم فقال:

ألا أيها الركب المخبون أبلغوا سلامى سكان البلاد فأسمعوا
وقولوا أتاكم أشبه الناس سنة بوالده فاستبشروا وتوقعوا
سيوشك إلحاق بكم وزيادة وأعطية تأتى تباعاً فتشفع
ضمنت لكم إن لم ترعنى منيتى بأن سماء الضر عنكم ستقلع

ولما أخلف موعده معهم أجابه واحد منهم فقال:

وصلت سماء الضر بالضر بعد ما زعمت سماء الضر عنا ستقلع
فليت هشاما كان حيا يسوسنا وكنا كما كنا نرجى ونطمع [2]

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ١٣٤ .
(٢) الأغانى ج ٦ ص ٢٠٨ .

ونستطيع مما تقدم أن نحكم على الأمويين بأن سياستهم فى العطاء كانت سياسة مضطربة يمليها عليهم ذلك الجو المحيط بهم ، فتارة يرون أن الحكمة هى فى إغداق العطاء على المعارضين من العرب لتأليف قلوبهم كما فعل الأمويون مع الحسن والحسين ابنى على . وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب وغيرهم ، وتارة يرون أن الحكمة هى فى منع العطاء عنهم لردعهم كما فعل هشام والوليد بن يزيد مع أهل الحرمين . أما الموالى فلم يكن لهم من العطاء نصيب . وإن نالهم منه شىء فهو النزر اليسير والحظ القليل .

ويمكننا بعد ذلك كله أن نتوقع نصيب الموالى فى وظائف الدولة وهو نصيب ضئيل لا يكاد يذكر . إذ كانت الوظائف الكبيرة مقصورة على العرب دون غيرهم . وكانت القاعدة المشهورة : لا يقضى بين الناس إلا عربى[1] . ولقد ظل الموالى متأثرين بهذه القاعدة حتى فى العصر العباسى الذى تغيرت فيه النظرة إليهم . ويؤيد ذلك ما روى أنه لما مات سوار قاضى البصرة . دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة فقال له : إن سواراً قد مات وإنه لا بد لهذا المصر من قاض فاقبل القضاء . فقد وليتك قضاء البصرة . فقال أبو حنيفة : والله الذى لا إله إلا هو إنى لا أصلح للقضاء ، ووالله يا أمير المؤمنين لئن كنت صادقاً فما يسعك أن تستقضى رجلا لا يصلح للقضاء ، ولئن كنت كاذباً فما يسعك أن تستقضى رجلا كذاباً وإنه لا يصلح للقضاء إلا رجل من العرب وقد أصبحت مخالفاً لك . وفى نهاية الحديث قبل أبو جعفر عذر أبى حنيفة وخلى عنه[2] . ومما يتصل بهذا المعنى — وهو أنه لا يقضى بين الناس إلا عربى — ماذكره المبرد من أن شاعراً بالكوفة لما استقضى عليها نوح بن دراج قال :

يا أيها الناس قد قامت قيامتكم   إذ صار قاضيكم نوح بن دراج

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٨١ .

(٢) السنن الكبرى للبيهقى ج ١٠ ص ٩٨ .

لو كان حياً له الحجاج ما سلمت   كفاه ناجية من نقش حجاج[١]

فقد شبه الشاعر العصر الذى يعين فيه مولى للقضاء بأنه عصر غريب انقلبت فيه الأوضاع وانعكست الآيات حتى كأن الساعة قربت والقيامة قامت .

ولقد كان تعريب الدواوين منذ عصر عبد الملك بن مروان محاولة واضحة من الأمويين فى إقصاء الموالى عن تلك الوظائف التى لم يكن يصلح لها غير الأعاجم سواء أكانوا من الموالى كصالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم[٢] ، أم لم يكونوا من الموالى وهم الأعاجم غير المسلمين كسرجون بن منصور الرومى كاتب الخراج فى عهد معاوية ابن أبى سفيان[٣] . ولقد كان ديوان الشام بالرومية (أى بالإغريقية) وديوان العراق بالفارسية ، وديوان مصر بالقبطية ، فنقلت دواوين هذه الأمصار إلى العربيـة ، وكان الذى نقل ديوان الشام من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد الخشنى كاتب الرسائل فى عهـد عبد الملك بن مروان[٤] . والذى نقل ديوان العراق إلى العربيـة صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج . ولقد شق على الفرس هـذا العمل حتى بذلوا لصالح مائة ألف درهم على ألا يظهر النقل فأبى عليهم . فقال له مروان شاه بن زادان فروخ : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية . وكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله در صالح ما أعظم منته على الـكتاب[٥] ، وأما الذى نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية فهو عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر فى خلافة الوليد بن

---

(١) الـكامل للمبرد ج ٢ ص ٨٢ .

(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٩٨ ، والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٣ ط حنفى .

(٣) الجهشيارى ص ١٥ .

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٠١ ، الوسائل إلى معرفة الأوائل للسيوطى ص ٣٧ ، والخطط للمقريزى ج ١ ص ٩٨ والجهشيارى ص ٢٤ .

(٥) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، والوسائل للسيوطى ص ٣٨ .

عبد الملك سنة ٨٧ هـ . ونسخها بالعربية وصرف أشناس عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص[١] .

وبتعريب تلك الدواوين لم يعد الأمويون بحاجة إلى الأعاجم من الموالى وغيرهم فى القيام بهذه الوظيفة ، فأصبحنا نرى من كتاب الخراج من هم من العرب مثل النضر بن عمرو كاتب الخراج على عهد يزيد بن الوليد[٢] . بعد أن كانت هذه الوظيفة مقصورة على الأعاجم والموالى .

والآن وبعد بيان السياسة العامة للأمويين نحو الموالى ـ وهى كما رأينا سياسة تتجه إلى العنف والقسوة ـ نتساءل قائلين : هل كان الموالى جميعهم يلاقون من الأمويين مثل هذه المعاملة ؟ . وجوابنا على ذلك أن هذه السياسة كانت تشبه أن تكون سياسة عامة ، ولم يكن يشذ عنها إلا نفر ضئيل من الدهاقين . وهم أمراء بعض الولايات الذين كانوا يسلمون ، ويتعهدون للولاة من العرب بأداء ما يطلبونه من الجزية والخراج اللازمين من الأهالى ، ويتولون هم جمعهما . وفى مقابل ذلك تبقى لهؤلاء الدهاقين سلطتهم فى تلك الجهات . ولكنهم رغم هذه السلطة كانوا خاضعين لسيادة العرب . وبذلك كان هؤلاء الدهاقين يثرون ويجمعون الأموال الطائلة على حساب الطبقات الفقيرة وهى الأكثرية الساحقة .

وفى ذلك يقول بارتولد : « رضيت الدهاقين فى العصور الإسلامية الأولى فى إيران بزوال خطورتهم السياسية . نظير ما نالوا من الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية »[٣] .

وهكذا كانت تصدق عليهم تلك الكلمة التى قالها أعجمى لعربى : « الشريف من كل قوم نسيب الشريف من كل قوم »[٤] .

---

(١) الولاة والقضاة للكندى ص ٥٨ ، ٥٩ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٤٤ .
(٣) الحضارة الإسلامية لبارتولد تعريب حمزة طاهر ص ٦٥ .
(٤) رسائل البلغاء طبعة الحلبى ص ٢٧٠ .

ولقد كانت سياستهم مع هؤلاء الدهاقين وسيلة لابد منها لإخضاع تلك الولايات النائية وإقرار الأمن والنظام فيها . إذ كان أهل تلك الولايات حينما يرون خضوعهم المباشر لأناس ليسوا من عنصر أجنبي عنهم تطمئن نفوسهم وتهدأ قلوبهم . وفوق ذلك فإن هؤلاء الدهاقين كانوا يتولون جباية الأموال من الأهالى قبل الفتح الإسلامى لهذه البلاد ، وبذلك كانوا أكثر مراناً من العرب فى هذه الناحية [1] .

ولعلنا نستطيع الآن أن نلخص سياسة الأمويين مع الموالى فى كلمة قصيرة هى أن الدولة الأموية قد طغت عليها العصبية العربية فأنستها الكثير من مبادئ الإسلام العادلة وحينئذ شعر الموالى — وهم مسلمون — بأن هذه العصبية العربية قد أطبقت عليهم بظلامها الكثيف ، وأنهم وسط هذا الظلام قد ضاعت معظم حقوقهم وتبددت أكثر آمالهم فقاموا يلتمسون طريقاً للخلاص .

ولقد شاءت الأقدار أن يشرق عليهم النور فجأة فى عصر عمر بن عبد العزيز . ولكن لم يلبث هذا النور إلا وقتاً قصيراً ثم احتجب عنهم . فعادوا مرة ثانية إلى الظلم والظلام ، وحينئذ وجدوا أن لا سبيل للخلاص إلا بمواصلة الجهاد والنضال . فقاموا بتلك الحركات العنيفة الهدامة التى عصفت بالدولة الأموية ، وكانت من الأسباب الهامة فى انهيارها وزوالها .

وسيتبين لنا فى الفصل الآتى إن شاء الله موقف عمر بن عبد العزيز نحوهم ، وما ترتب على هذا الموقف من آثار ونتائج .

---

(١) السيادة العربية ص ٣٦ .

الفصل الرابع

عمر بن عبد العزيز والموالى

أخلاقه الشخصية وروحه الإسلامية — سياسته مع الموالى
فى الجزية والخراج والعطاء — تقدير عام لسياسته

وبينما كان الموالى يتخبطون فى ظلام حالك ويسيرون فى طريق شائك تحيط بهم الحيرة والوحشة وتكتنفهم القسوة والشدة، إذ طلع عليهم نور أضاء لهم السبيل فذهب الكثير من حيرتهم ووحشتهم وأحسوا برد الراحة ونعيم السعادة.

ولقد انبثق ذلك النور من جبين الرجل التقى عمر بن عبد العزيز وهو الخليفة الورع الذى شهد له بذلك أعداؤه على اختلاف مللهم وأجناسهم. والفضل ما شهدت به الأعداء كما يقولون.

وإنما آثرنا أن نتكلم عنه فى فصل خاص لأن سياسته كانت متميزة عن سياسة غيره من الخلفاء إذ كانت تسودها العدالة الكاملة والإنصاف الشامل حتى لقد لفتت هذه العدالة أنظار المستشرقين فبالغوا فى تمجيدها والثناء عليها، فيقول « براون » فى كتابه تاريخ الفرس الأدبى: « ينفرد عمر بن عبد العزيز عن سائر خلفاء بنى أمية بالورع والإيمان، فلم يكن مدفوعاً فى إدارته للدولة بدوافع مالية، ولكنه كان يرغب فى نشر الإسلام؛ وكان هذا المعنى مسيطراً على نفسه حبيباً إلى قلبه؛ ويعتبر هذا الخليفة استثناء لما كان عليه خلفاء بنى أمية من طمع واستئثار بالنفوذ وبعد عن الطريق القويم »[1].

---

(١) تاريخ الفرس الأدبى لبراون ص ٢٣٤، ٢٣٥.

ويقول فلهوزن: « لم يكن عمر بن عبدالعزيز يعنى بنفسه فقط وإنما كان يعنى بالصالح العام وجعلته تقواه يصرف شئون الحكومة على وجه يجعلها تؤدى ما فرض عليها من الواجب نحو المحكومين وكان يؤدي هو ما فرض عليه من الواجبات الثقال باستقامة نادرة المثال » (١).

ولقد كان عمر بن عبد العزيز طيلة الأزمان التى سبقت توليه الخلافة كغيره من إخوانه ولداته بعيداً عن الزهد ميالاً إلى الترف (٢).

فلما تولى الخلافة ترك كل مظاهر الترف والنعيم مرة واحدة وانصرف إلى الزهد والتقشف وأوغل فيهما إلى درجة لا تكاد تخطر ببال أحد. وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم: « وكان عمر بن عبدالعزيز من أعظم الأمويين ترفهاً وتملكا غذى بالملك ونشأ فيه لا يعرف إلا هو. تعصف ريحه فتوجد رائحته فى المكان الذى يحل فيه

---

(١) فلهوزن. الدولة العربية وسقوطها. فصل عمر بن عبد العزيز والموالى.

(٢) ولد عمر بن عبد العزيز بالمدينة عام ٦٢ هـ فلما ولى أبوه عبد العزيز بن مروان مصرعام ٦٥ هـ حمل إليه ولبث بمصر زمنا نعم فيه بصحبة أبيه ومشاهدة آثار الحضارة المصرية والبزنطية فلما بلغ سن التأديب بعثه أبوه إلى المدينة ليتأدب بها وكانت المدينة إذ ذاك بيئة مركبة غير بسيطة يعرف فيها من يحللها الروح الدينى الصحيح ماثلا فى نفر من بقايا الصحابة وكبار التابعين أمثال أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود. كما يعرف فيها الجانب الأرفه من الحياة ممثلا فى مثل عبد الله بن جعفر أول نصير لصناعة الغناء العربى وطائفة من المغنين والقيان يتقدمها معبد ومالك بن أبى السمح المغنيان المدنيان الشهيران. ثم إن المدينة كانت إذ ذاك من الناحية السياسية موطنا للمعارضة التى تستند إلى الكتاب والسنة فى مقاومة الحكومة الأموية. وفى عام ٨٥ هـ توفى عبد العزيز بن مروان بمصر وكان ابنه عمر قد تم تأديبه بالمدينة فأرسل إليه الخليفة عبد الملك بن مروان وزوجه من ابنته فاطمة ثم ولاه خناصره وهى بلدة من أعمال حلب فمكث بها سنتين وفى عام ٨٧ هـ اختاره الخليفة الوليد بن عبد الملك لولاية المدينة بدلا من هشام بن إسماعيل المخزومى الذى أساء السيرة فى أهلها ثم ضم إليه بعد زمن قليل مكة والطائف فأصبح عمر بذلك أميراً على الحجاز كله، وقد ظل أميرا على الحجاز حتى سنة ٩٣ هـ حيث عزله الخليفة الوليد لسبب من الأسباب لا يعنينا الخوض فى تفاصيله، وحينئذ ذهب عمر إلى الشام حيث مكث ست سنوات فى انتظار الخلافة التى ألقيت إليه مقاليدها عام ٩٩ هـ (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صفحات ١٩، ٢٠، ٢٧، ٣٢)، ومقال للاستاذ العبادى بمجلة الرسالة.

ويمشى مشية تسمى العمرية فكان الجوارى يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها . وكان يسبل إزاره حتى ربما دخلت نعله فيه فيتحامل عليه فيشقه ولا يخلعها ويسقط أحد شق ردائه عن منكبه فلا يرفعه وتنقطع نعله فلا يعرج عليها وربما لحقه بها المملوك فيعنفه .. فلم يزل على ذلك حتى ولى الخلافة فزهد فى الدنيا ورفضها » (١) .

ولقد تلمس الخليفة عمر رعاياه فى كل مكان وخرج من نطاق الأبهة والرفاهية الذى كان يقف سداً منيعاً بين الخلفاء و بين المصلحة العامة لشعوبهم إلى نطاق آخر استطاع فيه أن يتسمع إلى نجوى شعبه وأن يحس آلامه وآماله وأن يشاركه فى مشاعره ووجدانه ؛ ولذا فإنه لم يطق أن يستبقى واحداً من العمال الذين كان يعرف فيهم القسوة والغلظة ومجافاة الروح الدينية (١) .

---

(١) يمكننا أن نعلل لهذا الزهد الطارىء المفاجىء بأنه أثر من آثار الوراثة فنقول إن عمر بن عبد العزيز قد ورث هذه الناحية الخلقية الكريمة عن جده لأمه وسميه عمر بن الخطاب وان هذه النزعة الأخلاقية كانت كامنة فى نفس عمر بن عبد العزيز مغطاة بستار من الشباب والجو المحيط به ولكنها لم تلبث أن تنبهت فى نفسه حينما تولى الخلافة ورأى أمور المسلمين قد أصبحت كلها فى يديه وأنه قبل غيره هو المسئول عن كل صغيرة وكبيرة . ويعبر عن هذا المعنى قول أحد الأمويين حينما رأى عمر ابن عبد العزيز لايحابى بنى أمية ولايعطيهم أكثر من غيرهم : « لاتلوموا إلا أنفسكم يامعشر بنى أمية عمدتم إلى صاحبكم — يعنى عبد العزيز بن مروان والد عمر — فزوجتموه بنت ابن عمر — أى ابن الخطاب — فجاءتكم بعمر ملفوفاً فى ثيابه فلا تلوموا إلا أنفسكم » (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٢١ ، ٢٢ ، ٥٠) .

(٢) كتب عمر بن عبد العزيز وقت توليه الخلافة وقبل أن يدفن سلفه بعزل أسامة بن زيد التنوخى وكان على خراج مصر وأمر به أن يحبس ويقيد . ويحل عن القيد عند كل صلاة ثم يرد فى القيد، وكان أسامة هذا غاشما ظلوما معتديا فى العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل يقطع الأيدى فى خلاف ما يؤمر به ويشق أجواف الدواب ويطرحها للتماسيح فحبس بمصر سنة ثم نقل إلى أرض فلسطين فحبس بها سنة ثم مات عمر رحمه الله وولى يزيد بن عبد الملك فرد أسامة على مصر . (ابن عبد الحكم ص ٣٤) . وكتب أيضا بعزل يزيد بن أبى مسلم عن افريقية وكان شديد الجور والمخالفة للحق ويتظاهر مع ذلك بالصلاح ويكثر الذكر والتسبيح ويأمر بالقوم فيكونون بين يديه يعذبون وهو يقول سبحان الله والحمد لله شد ياغلام موضع كذا وكذا لبعض مواضع العذاب ثم يقول : لا إله إلا الله والله أكبر — شد ياغلام موضع كذا وكذا فكانت حالته تلك شر الحالات فكتب عمر بعزله (ابن عبد الحكم ص ٣٥) .

ولقد كان الخلفاء قبل عمر بن عبد العزيز يطلقون العنان للولاة ويغمضون الأعين عن هفواتهم لأن هؤلاء الولاة كانوا يوافون الخلفاء بما يطلبونه من الأموال الكثيرة التى تشبع رغبتهم فى الترف والنعيم؛ ولكن عمر بن عبد العزيز لم يكن من هذا الصنف بل كان — بعد توليه الخلافة — زاهداً فى الدنيا إلى درجة لا تكاد تعقل فى مثل ذلك الأوان الذى كان يعيش فيه [1] ولذا فإنه قد راقب أعوانه وولاته بعين الحزم والعدالة والسهر على مصلحة الرعية.

ومن يتصفح سيرة عمر بن عبد العزيز يجدها مليئة بالأخبار العجيبة والحوادث الغريبة عن هذا الخليفة المثالى ولكننا مهما شككنا فى مثل هذه الروايات ومهما أسأنا الظن بها فسوف نخرج بشىء لاريب فيه، وقد أجمعت عليه المصادر كلها. وهو أن هذا الخليفة العظيم كان مثلا أعلى للحاكم المسلم الحريص على نشر الدين وإعلاء كلمته.

وطبعى أن الموالى — وهم مسلمون — قد تنفسوا الصعداء فى عهده وأصبحوا يشعرون بالمساواة والعدالة تظلهم وترفرف عليهم، وقد استرعت حالتهم انتباهه منذ توليه الخلافة فعمل على تخليصهم مما كان يحيق بهم من الشر والضرر؛ فلقد كانت إلى عهده تؤخذ الجزية ممن يدخلون فى الإسلام على الرغم من أن القواعد الإسلامية تمنع

---

(١) يروى الثقات من المؤرخين عن زهد عمر أنه حينما ولى الخلافة أتى له بالمراكب التى يركبها الخليفة أول ما يلى، من البراذين والخيل والبغال ولكل دابة سائس. فقال: ما هذا؟ قالوا: مراكب الخلافة. قال: دابتى أوفق لى «الطبرى ج ٨ ص ١٣٠. ابن عبد الحكم ص ٣٥» وأمر بضم هذا إلى بيت مال المسلمين. ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول ما يلون. فقال: ما هذا؟ قالوا: سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلى قال: يامزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين. ثم ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الذى لم يجلس عليه أحد قط يفرش للخلفاء أول ما يلون وجعل يدفع ذلك برجله حتى يفضى إلى الحصير ثم قال: يامزاحم ضم هذا لأموال المسلمين (ابن عبد الحكم ص ٣٥).

ذلك ، حتى لقد قل إقبال الناس على اعتناق الإسلام ولكن عمر أمر برفع الجزية عمن أسلم وأرسل كتباً إلى الولاة والعمال بذلك .

- فكتب إلى حيان بن شريح عامله على مصر أن يضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى قال « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » وقال « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . وكتب حيان بن شريح إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابت عشرين ألف دينار تممت بها عطاء أهل الديوان فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل . فكتب اليه عمر : أما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فإن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه (١) .

• ودعا عمر ملوك السند لاعتناق الإسلام ووعدهم المساواة التامة مع المسلمين فاعتنقوا الاسلام واتخذوا أسماء عربية (٢) . ودعا البربر أيضاً إلى الإسلام فلما أسلموا رفع الجزية عنهم وكانوا قبل ذلك يلزمون بدفع الجزية وكان الولاة يتشددون فى تحصيلها منهم حتى أن من قصر فى أداء ما عليه كانوا يلزمونه بتسليم نسائه أو أبنائه لكى يبيعوهم لسداد هذه الضريبة وقد أبطل عمر بن عبد العزيز ذلك وكتب فى اللواتيات (٣) أن من كان عنده لواتية فليخطبها إلى أبيها أو فليردها إلى أهلها (٤) .

---

(١) الخطط للمقريزى ١ـ٧٨ ، وفتح العرب لمصر لبتلر ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .
(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ وفلهوزن ص ٢٩٤ .
(٣) أى النساء المنتسبات إلى لواته وهى قرية من قرى البربر .
(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٣٣ وفلهوزن ص ٢٩٥ .

وكتب الى الجراح الحكمى عامله على خراسان : انظر من صلى قبلك إلى القبلة فضع عنه الجزية فسارع الناس إلى الإسلام فقيل للجراح : إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام و إنما ذلك نفوراً من الجزية فامتحنهم بالختان. فكتب الجراح بذلك إلى عمر فكتب اليه عمر : إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ولم يبعثه خاتناً . ثم عزله عمر عن خراسان[1] وكتب اليه عدى بن أرطاة عامله على العراق: إن الناس قد كثروا فى الإسلام حتى خفت أن يقل الخراج . فكتب اليه عمر يقول : والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا .

وكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن عامله على الكوفة : كتبت إلى تسألنى عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة وتستأذننى فى أخذ الجزية منهم ؛ و إن الله جل ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً إلى الاسلام ولم يبعثه جابياً فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه فى ماله الصدقة ولا جزية عليه وميراثه لذوى رحمه إذا كان منهم يتوارثون كما يتوارث أهل الإسلام و إن لم يكن له وارث فميراثه فى بيت مال المسلمين الذى يقسم بين المسلمين وما أحدث من حدث ففى مال الله الذى يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه[2] .

وقد ذكرنا فيما مضى أن الحجاج قد أمر بإرجاع الذين أسلموا من أهل الذمة إلى قراهم حتى يظلوا يعملون فى الأرض وحتى يظل الخراج باقياً عليهم . . ولكن عمر بن عبد العزيز لم يشأ أن تظل مثل هذه السياسة حتى لا توجد عقبة أمام الراغبين فى الاسلام ويستنتج هذا من كتابه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن عامله على الكوفة إذ يقول فيه : سلام عليك أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام

---

(١) الطبرى جزء ٨ ص ١٣٤ ، وابن خلدون ٣ ــ ٧٦ ، واليعقوبى ٣ ــ ٤٥ ، وعقد الجمان ج ١١ م ٣ ص ٤٣٣ ، وفلهوزن ص ٤٥١ .

(٢) الخراج لأبى يوسف ص ١٥٧ .

الله وسنة خبيثة سنتها عليهم عمال السوء ، وإن قوام الدين العــدل والإحسان فلا يكونن شيء أهم اليك من نفسك فإنه لا قليـل من الإثم ولا تحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض(١) .

- وقد وجد عمر أن سياسة رفع الخراج عن الأرض التى أسلم أصحابها ستؤدى حتماً إلى نضوب بيت المال وقلة إيراده فوضع حلاً وسطاً لتلك المشكلة وذلك أنه رفع الخراج عن الأرض التى يملكها المسلمون حتى سنة ١٠٠ هـ ثم قرر أن شراء المسلمين وامتلاكهم للأرض بعد هذا التاريخ غير جائز لأن المسلمين كانوا حينما يشترون تلك الأرض تصبح أرضاً عشرية ويسقط عنها الخراج(٢) وبذلك يقل إيراد بيت المال وتبعاً لهذه السياسة كان إذا أسلم رجل من أصحاب تلك الأرض الخراجية فإن ملكيته تزول عن هذه الأرض وتصبح ملكا مشاعا للمسلمين(٣) . وما دامت الأرض ليست ملكا لشخص بعينه فكان يؤخذ منهـا الخراج والعشر معاً . أما الخراج فلأنه فى مقابل الايجـار لتلك الأرض . وأما العشر فلأنه مسلم تجب عليه الزكاة فى الزروع والثمار إذا بلغت النصاب المعروف(٤) . وفى هذا يذكر يحيى بن آدم فى كتابه الخراج عن عمرو ابن ميمون بن مهران . قال : سألت عمر بن عبـد العزيز عن المسلم يكون له أرض خراج . قال : خـذ الخراج من ههنا ، وأشار بيده الى الأرض ، وخذ الزكاة من ههنا وأشار بيده الى الزرع . وقال فى رواية أخرى : الخراج على الأرض وفى الحب الزكاة(٥) .

---

(١) الطبرى جزء ٨ ص ١٣٩ .
(٢) راجع ص ٥١ ، ٥٢ من الكتاب .
(٣) الخراج ليحيى بن آدم فقرة ١٩٣ المطبعة السلفية ، العصر العباسى الأول للدكتور الدورى ص ١٢
(٤) قدر النصاب الموجب للزكاة بأربعة أرادب وكيلتين بالكيل المصرى ، ويجب فيه العشر إن سقيت الأرض بماء السماء ، ونصف العشر إن كانت تسقى بالآلات .
(٥) الخراج ليحيى بن آدم فقرة ٦٠١ و ٦٠٢ . وذهب الى هذا الشافعى . وأما أبو حنيفة فلا يجمع بين الخراج والزكاة .

أما فيما يتعلق بالعطاء فيروى البلاذرى أن عمر فرض لمن أسلم بخراسان بعد أن رفع الخراج عنهم (١) ؛ ويذكر الطبرى أنه كتب إلى عقبة بن زرعة الطائى ـ وكان قد ولاه الخراج فى خراسان ـ فقال له : استوعب الخراج وأحرزه فى غير ظلم . فإن يك كفافاً لأعطياتهم فسبيل ذلك ، وإلا فاكتب إلى حتى أحمل اليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم ؛ قال فقدم عقبة فوجد خراجهم يفضل عن أعطياتهم (٢) .

ولكن لم نر فى المراجع التى بين أيدينا إن كان عمر بن عبد العزيز قد سوى بين العرب والموالى فى العطاء أم فعل غير ذلك . وأغلب الظن أنه قد خالف بين الفريقين لأنه قد وجد الموالى فى حالة سيئة ومن المتعذر تسويتهم بالعرب فى العطاء فى مثل هذه السرعة العجيبة . فلقد روى أن عشرين ألفاً من موالى خراسان كانوا يغزون فى عهده من غير عطاء (٣) . فالمعقول إذن أن يكون عمر بن عبد العزيز قد حسن حالهم فحسب . إذ لو أراد مساواتهم بالعرب لترتب على ذلك نقص فى أعطيات العرب ومثل هذا العمل يؤدى إلى ثورتهم ووقوع الفوضى والاضطراب فى صفوفهم . .

ولقد كانت وظيفة القضاء قبل عصر عمر وقفاً على العرب لايقاسمى اليها الموالى كما ذكرنا من قبل ، ولكن عمر بن عبد العزيز لم يفرق بين العربى والمولى فى هذه الناحية ، بل جعل الأساس هو التقوى والصلاح .

فيروى الكندى أن جماعة من أهل مصر وفدوا على سليمان بن عبد الملك وفيهم ابن خذامر الصنعانى مولى سبا ، فسألهم سليمان عن شىء من أهل المغرب فأخبروه . وأبى ابن خذامر أن يتكلم . فلما خرجوا قال له عمر بن عبد العزيز : ما منعك من الكلام يا أبا مسعود ؟ قال : خفت الله أن أكذب . فعرفها له عمر ، فلما ولى كتب

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٣٢ .
(٢) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٩ .
(٣) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٤ .

إلى بن أيوب شرحبيل بولاية ابن خذامر القضاء فوليه من سنة ١٠٠ إلى ١٠٥ (١).

وإذا كنا قد تبينا فيما سبق أن عمر بن عبد العزيز كان من أولئك القلائل الذين يحترمون مبادىء الإسلام ويحافظون على تطبيقها بقدر المستطاع . فهل نستطيع أن نقول إن المجتمع العربى فى عصره كان يتجه إلى هذا الهدف . وإن العرب فى تلك الحقبة من الزمن كانوا قد تناسوا عصبيتهم العربية ، وأصبحوا ينظرون إلى الموالى على أساس من العصبية الإسلامية ؟ ؟ .

لقد ذكر بعض المؤرخين ما يفيد أن الشعب يكون دائماً على غرار الخليفة الذى يلى أموره ويدير شئونه . كما يقول ابن العميد : المرء أشبه شىء بزمانه وصبغة كل زمان منتخبة من سجايا سلطانه . فقال : كان الوليد بن عبد الملك شديد الكلف بالعمارات والأبنية . . . فكان الناس يلتقون فى زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات .. وكان أخوه سليمان يحب الطعام والنكاح فكان الناس فى خلافته إذا التقوا سأل بعضهم بعضاً عن الطعام والنكاح . وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة وتلاوة ... فكان الناس إذا تلاقوا فى أيامه سأل بعضهم بعضاً ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ وكم تقوم من الشهر ؟ (٢) .

ولكنا نعتقد أن المحكومين وإن كانوا يتأثرون إلى حد كبير بأخلاق الحاكم ، ويترسمون آثاره فإن هذه المدة القصيرة التى حكمها عمر بن عبد العزيز (٣) لم تكن كافية لاقتلاع العصبية العربية من نفوس العرب ، ولتجديد ماوث من مبادىء الإسلام فى قلوبهم . وليس أدل على ذلك من أن الحالة التى كانت قبل عهد عمر ، والتى كانت تتمثل فى سياسة الحجاج القاسية نحو الموالى . وتتمثل أيضاً فى قول الخليفة

---

(١) الولاة والقضاة للكندى ص ٣٨٨ .

(٢) الفخرى لابن طباطبا ص ٩٣ ط مصطفى محمد ، وكنز الدرر ج ٤ م ٣ ص ٢٢٦ .

(٣) حكم عمر بن عبد العزيز سنتين ونصف سنة .

سليمان بن عبد الملك — حينما كان أحد عماله يستشيره فى التخفيف عن الرعايا الأجانب وعدم إرهاقهم — : احلب الدر فإذا انقطع فاحلب الدم [١] . هذه الحالة العنيفة التى كانت قبل عهد عمر قد رجعت بعد وفاته إلى ما كانت عليه وأ كثر [٢].

ومعنى ذلك أن السياسة العادلة التى كان يقوم بها عمر لم تكن تصادف القبول والارتياح لدى الجمهرة من العرب أو على الأقل لدى العمال والخلفاء الأمويين وإلا لما لجأوا إلى تغييرها بعد وفاة عمر بمثل هذه السرعة العجيبة ! .

- وقد استهدف عمر بن عبد العزيز على الرغم من محاولاته الإصلاحية ، وروحه الإسلامية لبعض حملات من النقد القاسى العنيف. فهذا فان فلوتن يقول: « إن تصرف عمر بن عبد العزيز فى رفعه الجزية عمن أسلم من أهل الذمة وفى جعله للموالى نصيباً من العطاء ؛ قد أنضب بيت المال وكان أبعد أثراً فى وهن العرش الأموى » [٣] .

وهذا فليب حتى يقول : « وعلى الرغم من أن النوايا الحسنة هى التى أوحت إلى عمر بهذا (أى برفع الجزية عمن أسلم) إلا أن سياسته لم تنجح إذ قللت دخل الدولة وزادت من عدد الموالى فى المدن » [٤] .

وكريمر وموار يقولان : إن عمر بن عبد العزيز قد خلبت لبه ، واستولت على مشاعره مدينته الفاضلة التى صورها له خياله الدينى ورسمها له تقواه ، فتورط فى أمور مالية لم تكن تقتضيها الضرورات العملية . وقد سبب بذلك اضطراباً فى مجرى المالية الطبعى . وخرج بها عن سبيل التطور الذى سارت فيه من قبل [٥] .

---

(١) الجهشيارى ص ٣٢ .

(٢) عزل يزيد بن عبد الملك عمال عمر جميعهم . وورد أسامة بن زيد وهو المعروف بقسوته على الأهالى وعنفه فى معاملتهم (ابن عبد الحكم ٣٤ . واليعقوبى ج ٣ ص ٥٢) .

(٣) السيادة العربية ص ٥٩ . (٤) ترجمة خاصة .

(٥) نقلا عن كتاب الدولة العربية لفلهوزن ص ٣٠٦ .

وإنا نكتفى فى الرد على هؤلاء بما ذكره فلهوزن إذ يقول : « إن أولئك الذين يتعرضون لنقد هذا الخليفة فى الأزمنة الحديثة هم الذين يخطئون فى إدراك حقيقة الحال فى عصره . فقد كانت الأحوال إذ ذاك قد داخلها الاضطراب واعتورها الفساد ؛ وكانت فى حاجة إلى يد مصلحة تتولى الإرعاء عليها وتنظيمها .

« وليس عمر أول من خلق الاضطراب فى نظام الضرائب . ولكن الاضطراب كان قائماً من قبله .. ولم يكن الخليفة عمر قد تصدى لمسألة خيالية خلقتها له الأوهام وإنما كان يعالج مشكلة حقيقية تتطلب علاجا سريعاً ... وكان الحجاج من قبل قد عالج هذه الحالة فى حزم ، ولكنه سلك سبيلا فى علاجها أثارت ضده الرأى العام الإسلامى . ثم جاء دور عمر فعالجها بطريقة أخرى . عالجها وهو يرعى فى حذر تلك الحساسية الشديدة التى ركزت فى الإسلام أو على الأقل التى يرتكز الإسلام عليها . فكلا الرجلين كان يتصدى لمشكلة قائمة بالفعل تقتضى الضرورات الملحة التوفر على حلها وكانت النتيجة أن أرض الخراج كثر انتقالها إلى أيدى طائفة من الملاك كانوا معفين من الخراج . كذلك ندفع عن عمر القول بأنه قد هز بنيان الدولة الأموية من أساسه لأنه قول منقوض مردود فقد كان بنيان هذه الدولة قد أصيب من قبل ؛ ولم يكن بنيانها قوياً حتى وقت قيامها »[1] .

والذى نراه بوجه عام أن عمر بن عبد العزيز لم ينضب بيت المال بتلك المحاولات الإصلاحية لأن الجزية لم تكن هى المورد الرئيسى للدولة ، وهى وإن كان قد رفعت عن كل من أسلم فإنهم قد ألزموا بضريبة أخرى وهى الزكاة إذا ما بلغت أموالهم النصاب الخاص .

وأما الخراج وهو مورد الدولة الرئيسى فلم ينقص منه إلا النزر اليسير وذلك أن

(١) فلهوزن ص ٣٠٦ .

الأرض الخراجية وهى كل أرض فتحها المسلمون عنوة ولم يقسمها الخليفة على المحاربين وجعلها وقفاً على مصالح المسلمين كأرض السواد . وكذلك الأرض التى ملكها المسلمون من غير قتال وصالحوا أهلها على زوال ملكهم عنها وعلى أن يتركوهم بخراج معلوم يؤدونه لبيت المال . . هذه كلها قد أبقاها عمر على ما هى عليه فلم تتأثر بإسلام أصحابها . .

. وأما الأرض التى صولح أهلها على بقاء ملكهم عليها فإن القواعد الإسلامية كانت تقضى بجواز بيعها ، وإذا بيعت لمسلم أو أسلم عنها صاحبها سقط خراجها ، وأصبحت أرضاً عشرية ، وهذه قد منع عمر بيعها للمسلمين منذ سنة ١٠٠هـ لئلا تصير أرضاً عشرية ، وكذلك لم يرفع الخراج عن أصحابها إذا أسلموا منذ ذلك الحين ، وبهذا يكون عمر غير مفرط فى حقوق الدولة ، ولا منضب لبيت المال .

. فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن نفقات الخلافة قد قلت فى عهده إلى درجة كبيرة بسبب زهده وتقشفه ، وأن الولاة والخلفاء قد تقلص نفوذهم ، وضعفت سطوتهم وهبطت درجة معيشتهم إلى المستوى العادى بعد أن كانوا غارقين فى الترف والنعيم .. وإذا ما علمنا أن هذه الأموال التى تتوفر كانت تصرف فى سبيل الصالح العام ، وترجع للفقراء والمساكين .. أدركنا أن المجتمع الإسلامى كان فى عهد عمر ينعم إلى حد كبير باليسر والرخاء .. وتروى لنا المصادر الإسلامية ما يؤيد ذلك .

فيروى الطبرى أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عقبة بن زرعة الطائى ـ وكان قد ولاه الخراج فى خراسان ـ فقال له : استوعب الخراج وأحرزه فى غير ظلم . فإن يك كفافاً لأعطياتهم فسبيل ذلك . وإلا فاكتب إلى حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم . قال فقدم عقبة فوجد خراجهم يفضل عن أعطياتهم [1]

ويروى ابن عبد الحكم أن رجلا من ولد زيد بن الخطاب قال : إنما ولى عمر

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٩ .

ابن عبد العزيز سنتين ونصفاً فذلك ثلاثون شهراً ، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم فلا يجده . فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس (1).

ورأينا فى موقف هذا الخليفة من الموالى أنه موقف إسلامى إلى حد كبير . فهو قد رفعهم إلى مستوى العرب أو كاد . وقد تحدى بذلك شعور القبائل العربية المختلفة لأنه كان مؤمناً بفكرة المساواة التى تستمد من قوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « إن ربكم واحد و إن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » .

و إذا كان عمر بن عبد العزيز قد نجح كخليفة مسلم ، فهل نجح كرجل سياسى يعمل تحت لون حزبى خاص أم أخفق ؟ . أغلب الظن أنه قد خطا خطوات واسعة نحو النجاح فى هذا السبيل .. ولو أن من جاء بعده من الخلفاء أمكنه أن يتجه إلى مثل طريقه ، لكان من الممكن أن يطول عمر الدولة الأموية وأن تقل الأخطار المحيطة بها . ولكن الخلفاء الأمويين بعد عهد عمر رجعوا إلى سيرة أسلافهم قبل عهده .. وحينئذ وجد الموالى أنفسهم مضطرين إلى مواصلة الجهاد من أجل استرجاع حقوقهم وتحقيق آمالهم .. وقد سلكوا فى سبيل تلك الغاية ثلاثة طرق .

أولا ـ السيطرة على الحركة الفكرية وقد استفادوا من ذلك فائدتين : إحداهما أنهم قد عوضوا أنفسهم بالعلم عن ذلك الازدراء الذى كان ينالهم من العرب حيث أن العلم يسمو بصاحبه ويرفعه . وثانيتهما : أن بعضاً منهم قد أدخل إلى الإسلام مبادئ غريبة ترجع إلى دياناتهم القديمة فكان هذا من الأسلحة الفتاكة التى أوهنت من قوة العرب والإسلام .

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٢٨ .

ثانياً ـ مناوأة ذلك التيار القوى — تيار العصبية العربية — بتيار قوى آخر هو تيار الشعوبية . وقد كان لذلك إرهاصات ومقدمات فى العصر الأموى .

ثالثاً ـ مؤازرة الحركات الثورية المتعاقبة التى كانت تقوم ضد الدولة الأموية لكى ينتقموا لأنفسهم ، ويقتربوا من أهدافهم ..

وقد عقدنا لذلك ثلاثة فصول متتابعة .

الفصل الخامس

الموالي والحركة الفكرية

عقليتهم واستعدادهم ـ تراجم قصيرة لمشاهير من علمائهم ـ العصبية العربية عامل إيجابي في نبوغهم وتفوقهم ـ أثر الموالي في العلوم والمبادئ الاسلامية

ولما رأى الموالي أن العرب قد نظروا إليهم نظرة لا تليق بماضيهم المجيد ولم يعاملوهم على أساس من العدالة والمساواة ، واعتبروهم في درجة أقل منهم . . حاولوا أن يتلمسوا السبيل لإرجاع مجدهم واسترداد عظمتهم . وكان العلم من الوسائل التي اتخذوها لتحقيق هذه الغاية . فإن العلم يسمو بصاحبه ، ويرفع من شأنه ومقداره ، ويعوضه عن كرم الأصل وشرف العنصر . ولذا تسابق الموالي في هذا السبيل حتى قطعوا شوطاً بعيداً وساهموا بنصيب كبير .

وسنحاول أن نتبين آثارهم العلمية والفكرية في هذا العصر الذي نؤرخه فنقول :

فتح الإسلام الكثير من الممالك الأجنبية وهي إذ ذاك تقف على درجات مختلفة من سلم العلم والمعرفة . ولكنها على اختلاف درجاتها كانت قد قطعت مراحل لم يقطعها العرب في جاهليتهم . فمصر والشام مثلاً كانتا ملحقتين قبل الفتح الإسلامي بمملكة الروم ، وكانت الآداب والعلوم في هذين القطرين قد سارت أشواطاً بعيدة في سبيل الرقي بفضل مدرسة الإسكندرية ـ وجهادها العلمي قديم وطويل ـ وبفضل مدرسة بيروت بالشام ، وكانت ذات شهرة كبيرة وصيت ذائع في ذلك الأوان .

وفي بلاد الفرس كانت نهضة علمية قبل الإسلام وشجعها كسرى أنو شروان

الذى أنشأ فى جندى سابور مدرسة عظيمة اشتهرت فى بلاد الفرس اشتهار مدرسة الإسكندرية بمصر ، و بيروت بالشام[1] .

فلما فتح المسلمون تلك البلاد ، ودخل كثير من سكانها الأصليين فى الإسلام — وهم من نسميهم بالموالى — كانت لهم عقلية علمية ناضجة ، أو على الأقل أقرب إلى النضوج من إخوانهم العرب الذين لم تهيئ لهم الأقدار مثل هذا الحظ من الثقافة والمعرفة .. ولذا فإن العلوم الاسلامية قد ازدهرت فى كنف هؤلاء الموالى وأثمرت فنبغ فيهم العلماء الكثيرون الذين ساهموا فى بناء النهضة العلمية فى الاسلام بأوفى نصيب ..

ولا شك أننا لو تتبعنا تاريخ الحركة العلمية فى الاسلام بعد عصر الرسول وصحابته الراشدين . فإنا نجد المسلمين من الأعاجم — وهم الموالى — يقفون فى الطليعة ، ويحملون قبس العلم والمعرفة أمام الناس .

فكان فى المدينة سليمان بن يسار مولى ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج النبى صلى الله عليه وسلم وكانت له شهرة علمية فائقة ، وكان ثقة عالماً كثير الحديث ، وهو أحد الفقهاء السبعة ، واتفقوا على وصفه بالجلالة وكثرة العلم ، وتوفى سنة ١٠٣ هـ فى خلافة يزيد بن عبد الملك[2] .

ونافع مولى عبدالله بن عمر وكان ديلميا وأصابه عبدالله بن عمر فى إحدى الغزوات وهو من كبار التابعين . وروى عن عبدالله بن عمر وأبى سعيد الخدرى ، وروى عنه الزهرى وأيوب السختيانى ومالك بن أنس ، وهو من المشهورين بالحديث ومن الثقات الذين يؤخذ عنهم ويجمع حديثهم ويعمل به . وقال مالك : كنت إذا سمعت

---

(١) راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ١ ص ٢١١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥ ــ ١٣٠ ط أوروبية . وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ١ــ٢٣٥ والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن ١ ــ ٢٥٢ ط دار الكتب .

حديث نافع عن ابن عمر لا أبالى ألا أسمعه من أحد غيره . وكان ابن عيينة يقول : أى حديث أوفق من حديث نافع ؟ . وأهل الحديث يقولون : رواية الشافعى عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب لجلالة كل واحد من هؤلاء الرواة . وتوفى سنة ١٢٠ هـ (١) .

وربيعة الرأى مولى آل المنكدر التيميين وهو شيخ الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه . وكان فقيه المدينة فى وقته غير منازع حتى كان القاسم بن محمد يقول : لو تمنيت أحداً تلده أمى لتمنيت ربيعة . وكان يجلس فى مسجد المدينة وحوله حلقة كبيرة من العلماء والأشراف يتلقون العلم عنه . وقد اتفق العلماء من المحدثين وغيرهم على توثيقه وجلالته وعظم مرتبته فى العلم والفهم وكانت وفاته سنة ١٣٦ هـ (٢) .

وكان من علماء مكة مجاهد بن جبر مولى قيس المخزومى . وكان فقيها عالما ثقة كثير الحديث . وهو من أكبر رواة التفسير عن ابن عباس حتى كان يقول : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة . وتوفى حوالى سنة ١٠٢ هـ (٣) .

وعكرمة مولى ابن عباس وكانت له شهرة علمية فائقة حتى يروى عن معمر بن أيوب أنه قال : « قدم علينا عكرمة فاجتمع الناس عليه حتى أصعد فوق ظهر بيت » وكان من أعلم الناس بالتفسير . وقد توفى سنة ١٠٥ هـ هو وكثير عزة فى يوم واحد وصلى عليهما فى مكان واحد . وقال الناس إذ ذاك : مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس (٤) .

وعطاء بن أبى رباح مولى بنى فهر وكان من أجلاء الفقهاء ومن أعلام التابعين

---

(١) ابن خلكان جـ ٣ ص ٥٠ و ٥١ ط الوطن . وتهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ ٢ ص ١٢٤ وأبو المحاسن ١ ــ ٢٧٥ .

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٢٥ و ٣٢٦ . تهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ ١ ص ١٨٩ .

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٣٤٣ . معجم الأدباء لياقوت جـ ١٧ ص ٧٨ ط الدكتور رفاعى .

(٤) طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٢١٢ ، وأبو المحاسن جـ ١ ص ٢٦٣ ، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ ١ ص ٣٤١ .

وإليه وإلى مجاهد بن جبر انتهت فتوى مكة . وكان أعلم الناس بمناسك الحج حتى كانوا في زمان بني أمية يأمرون في الحج صائحاً يصيح : لا يفتي الناس إلا عطاء ابن أبي رباح ، وكان عالما ثقة كثير الحديث وتوفي سنة ١١٤ هـ (١) .

٣ واشتهر من علماء الكوفة سعيد بن جبير مولى بني والبة بن الحارث . وكان سعيد يحدث عن نفسه فيقول : ربما أتيت ابن عباس فكتبت في صحيفتي حتى أملأها وكتبت في نعلي حتى أملأها وكتبت في كفي . وكان ابن عباس بعد ما عمي إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه في شيء يقول لهم : « تسألوني وفيكم سعيد بن جبير ؟ » . وكان يجلس للدرس كل يوم مرتين ، بعد صلاة الفجر وبعد العصر . وكان ورعا متمسكا بمبادئ الإسلام حتى يروى أنه قال : لأن أضرب على رأسي أسواطاً أحب إلي من أن أتكلم والإمام يخطب يوم الجمعة . إلى غير ذلك من أخباره الكثيرة . وقد قتله الحجاج الثقفي سنة ٩٤ هـ ، فأنكر الناس على الحجاج فعلته وتسخطوا عليه ، وقال أحمد بن حنبل : قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه (٢) .

٤ واشتهر من علماء البصرة الحسن البصري ، وكان من سادات التابعين وكبرائهم ، وجمع كل فن من علم وورع وزهد وعبادة وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري وأمه خيرة مولاة أم سلمة . قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج الثقفي ، فقيل له : فأيهما كان أفصح ؟ قال الحسن . وقال الذهبي عن الحسن : هو إمام أهل العصر . وكان الحجاج وهو وال على العراق يقف بنفسه على حلقة الحسن البصري لكي يستمع إلى علمه . ولما مات خرجت البصرة كلها تشيعه الى مقره الأخير فلم تقم صلاة العصر بمسجدها الجامع ، ولم تعطل قبل ذلك منذ كان

---

(١) طبقات ابن سعد ٥ – ٣٤٤ . وابن خلكان ١ – ٥٧١ ، ٥٧٢ . وأبو المحاسن ١ – ٢٧٣ .
(٢) طبقات ابن سعد ٦ – ١٧٨ . وتاريخ ابن عساكر ٤ – ٧٩ . وابن خلكان ١ – ٣٦٥ وعقد الجمان للعيني ج ١١ م ٢ ص ٣٣٣ .

الاسلام ، وذلك يدل على المكانة العظيمة التى كان يتمتع بها الحسن فى قلوب الناس . وقد روى عن عمران بن حصين والنعمان بن بشير والمغيرة بن شعبة وغيرهم من الصحابة وكانت وفاته سنة ١١٠ هـ [١] .

ومحمد بن سيرين وكان من التابعين الأجلاء . روى عن أبى هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعمران بن حصين وأنس بن مالك . وروى عنه قتادة بن دعامة وخالد الحذاء وأيوب السختيانى وغيرهم من الأئمة . وهو أحد الفقهاء من أهل البصرة والمذكور بالورع فى وقتـه وكان الأصمعى يقول : « الحسن البصرى سـيد سمح وإذا حدث الأصم (يعنى ابن سيرين) بشىء فاشدد يديك » وكان الشعبى إذا أعضلت مسألة علمية يقول : « عليكم بذاك الأصم (يريد ابن سيرين) » [٢] .

واشتهر من أهل الشام مكحول بن عبد الله وهو من التابعين الأجلاء والعلماء الأعلام حتى قيل إنه لم يكن فى زمنه من هو أبصر منه بالفتيا وتوفى سنة ١١٨ هـ [٣]

واشتهر فى مصر يزيد بن حبيب مولى الأزد وكان مفتى أهل مصر وعنه أخذ الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة . وكان يزيد بربرى الأصل وقال فيه الليث بن سعد : يزيد عالمنا وسيدنا . وهو أحد ثلاثة عهد إليهم عمر بن عبد العزيز بالفتيا فى مصر وقد جمع ناحيتين كبيرتين من نواحى العلم : إحداهما الناحية التاريخية فيروى عنه الكثير فى حروب مصر وفتنها وفتوحها ، والثانية الناحية الفقهية فكان واسع العلم فى الحلال والحرام حتى قيل فيه إنه أول من أظهر العلم بمصر والمسائل فى الحلال والحرام . وقبل ذلك كانوا يتحدثون فى الترغيب والملاحم والفتن ، وتوفى يزيد سنة ١٢٨ هـ [٤] .

وهكذا إذا رجعنا إلى كتب الطبقات والتراجم ، وجدنا الموالى فى العصر الأموى

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤ـ٧١ وأبو المحاسن ١ـ٢٦٧ و٢٦٨ وابن خلكان ١ـ٢٢٧ و٢٢٨

(٢) ابن خلكان ٢ـ٢٢٦ وعقد الجمان ج ١١ م ٣ س ٤٧١ وأبو المحاسن ١ـ٢٦٨ .

(٣) ابن خلكان ٢ ـ ٥٨٥ وتهذيب الأسماء واللغات ٢ـ١١٤ .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطى ١ـ١٣١ والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن ١ـ١٤٣ و٢٣٨ و٣٠٨

الذى نؤرخه ، يساهمون بالنصيب الأكبر فى بناء النهضة العلمية الكبرى التى بلغت الذروة والغاية فى العصر العباسى .

وإنه لمن العسير علينا أن نقوم بعمل إحصائية للعلماء الموجودين فى ذلك الأوان حتى تتبين لنا نسبة العرب للموالى ، أو نسبة الموالى إلى العرب . ولكن المقطوع به والذى تجمع عليه المصادر فيما رجعنا إليه أن كفة الموالى فى هــــذه الناحية كانت هى الراجحة .. ومما يوضح لنا ذلك رواية ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد إذ يقول :

قال ابن أبى ليلى قال لى عيسى بن موسى وكان ديانا شديد العصبية (أى للعرب) : من كان فقيه البصرة ؟ قلت الحسن البصرى . قال ثم من ؟ قلت محمد بن سيرين . قال فما هما ؟ قلت موليان . قال فمن كان فقيه مكة ؟ قلت عطاء بن رباح ومجاهــد بن جبر وسليمان بن يسار قال فما هؤلاء ؟ قلت موال . قال فمن فقهاء المدينة ؟ قلت زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبى نجيح . قال فما هؤلاء ؟ قلت موال . فتغير لونه ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت ربيعة الرأى وابن أبى الزناد قال فما كانا ؟ قلت من الموالى فاربد وجهه ثم قال : فمن فقيه اليمن ؟ قلت طاووس وابنه وابن منبه . قال فمن هؤلاء ؟ قلت من الموالى . فانتفخت أوداجه وانتصب قاعدا . ثم قال فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت عطاء بن عبد الله الخراسانى . قال فمن كان عطاء هذا ؟ قلت مولى . فازداد وجهه تربدا واسودادا حتى خفته . ثم قال فمن كان فقيه الشام ؟ قلت مكحول . قال فما كان هذا ؟ قلت مولى . قال فتنفس الصعداء[1] ثم قال فمن كان فقيه الكوفة ؟ قلت فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة وعمار بن أبى سليمان[2] ولكن رأيت فيه الشر فقلت ابراهيم النخعى والشعبى . قال فما كانا ؟ قلت عربيان . قال : الله أكبر وسكن جأشه[3] . وأيضا ما جاء فى معجم البلدان لياقوت . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما مات العبادلة ، عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن

---

(١) يريد أنه تنفس الصعداء من فرط الغم الذى أصابه .
(٢) وهما موليان .
(٣) العقد الفريد ٢ ــ ٦٤ .

العاص صار الفقه فى جميع البلدان إلى الموالى فصار فقيه أهل مكة عطاء بن أبى رباح وفقيه أهل اليمن طاووس، وفقيه أهل اليمامة يحيي بن كثير، وفقيه أهل البصرة الحسن البصرى، وفقيه أهل الشام مكحول، وفقيه أهل خراسان عطاء الخراسانى، إلا المدينة فان الله تعالى خصها بقرشى. فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع سعيد بن المسيب[1]

ولقد كان أساس الحركات العلمية فى أوائل الإسلام هو الدين الذى يتمثل فى القرآن الكريم والسنة النبوية. فأساس الفقه هو ما ورد من آيات قرآنية أو أحاديث عن النبى تتعلق بالعبادات والمعاملات؛ والتاريخ مستمد من سيرة النبى وغزواته، وبحث العلماء يتركز ويدور حول هذا الغرض من تفسير لآية قرآنية أو رواية لحديث بسند يتصل إلى الرسول. وأما ما أثر عن هذا العصر من دراسات دنيوية، كطب وكيمياء مثلا فقليل نادر وأكثر من اشتغل به من غير المسلمين.. ولهذا فقد كان الفقه والتفسير، والحديث والقراءة والتاريخ كان هذا كله علماً واحداً فى أوائل الإسلام، ثم أخذت هذه العلوم يستقل بعضها عن بعض عملا بناموس الارتقاء. ولكن استقلال العلوم وتميزها ظل غير ملحوظ طيلة العصر الأموى على وجه التقريب. ففى كتب التراجم عن علماء ذلك العصر مايفيد أنهم كانوا يأخذون من كل علم بنصيب وافر. وأن العلوم التى استقلت فيما بعد لم تكن إذ ذاك مستقلة فى نظرهم.. فالحسن البصرى مثلا يجلس فى درسه فيتكلم فى الفقه والتفسير والحديث ويصدر الفتاوى والأحكام دون أن يلاحظ أنه انتقل من علم إلى علم، وتلامذته يستمعون إليه ولا يفكرون أنه قد انتقل بهم إلى مجموعة من العلوم، وإنما يفهمون أنهم حضروا درساً من العلم الدينى. وكتب التراجم التى ألفت بعد استقلال العلوم وتميزها حينما تتحدث عن علماء العصر الأموى تتحدث عنهم بصفة عامة.. فسعيد بن جبير عالم ثقة كثير الحديث. ومجاهد بن جبر عالم فقيه ومحدث ثقة.. وهكذا.

---

(١) معجم البلدان كلمة خراسان.

ولم يكتمل نضوج العلوم وتميزها إلا فى العصر العباسى . فظهر الفقهاء وألفوا الكتب الكثيرة فى الأبحاث الفقهية الخالصة ، وكذلك المفسرون والمحدثون وعلماء الكلام إلى غير ذلك . وليس من شأننا أن نبين كيفية انفصال العلوم وتميزها فذلك خارج عن نطاق البحث الذى نحن بصدده .

ولم يقتصر ذلك النشاط الفكرى للموالى على تلك النواحى الدينية . بل إنه امتد إلى اللغة العربية نفسها على الرغم من رطانة ألسنة الموالى و بعدهم عن السليقة العربية . وقد كان المعقول أن يكونوا بحكم يشتهم أزهد الناس فى اللغة العربية وما يتعلق بها . ولكن حسن استعدادهم ، وقوة رغبتهم وشدة طموحهم . كل هذه النواحى قد ذللت أمامهم تلك المصاعب الجمة حتى رأينا منهم علماء أجلاء يساهمون فى وضع قواعد اللغة العرب ، وفى رواية الشعر العربى . بل وفى قرض الشعر نفسه .

فمثلا أبو بحر عبد الله بن اسحق — وهو من موالى بنى عبد شمس — كان إماما فى النحو واللغة ، وكان يعيب الفرزدق فى شعره فقال الفرزدق يهجوه :

فلو كان عبد الله مولى هجوته   ولكن عبد الله مولى مواليا [1]

فقال له عبد الله : وقد لحنت أيضاً فى قولك « مولى مواليا » بل ينبغى أن تقول « مولى موال » [2]

٤ وكان عيسى بن عمر النحوى مولى خالد بن الوليد — وهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية — إماماً فى النحو . وقد ألف كتابا يسمى الجامع فى النحو . ويقال إن سيبويه أخذ هذا الكتاب و بسطه وحشى عليه من كلام الخليل وغيره . ولما كمل بالبحث والتحشية نسب اليه — وهو كتاب سيبويه المشهور — والذى يدل على صحة هذا القول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر المذكور ولازم الخليل بن أحمد سأله

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٦٢ .
(٢) عقد الجمان للعينى ج ١٢ م ١ ص ٦٢ .

الخليل عن مصنفات عيسى ، فقال له سيبويه : صنف نيفاً وسبعين مصنفاً فى النحو . وأن بعض أهل اليسار جمعها وأتت عنده عليها آفة فذهبت ولم يبق منها فى الوجود سوى كتابين : أحدهما اسمه « الإكمال » وهو بأرض فارس عند فلان ، والآخر « الجامع » وهو هذا الكتاب الذى أشتغل فيه وأسألك عن غوامضه . فأطرق الخليل ساعة ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى وأنشد :

ذهب النحو جميعاً كله ... غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع ... وهما للناس شمس وقمر

فأشار بالإكمال إلى الغائب وبالجامع إلى الحاضر . وكان عيسى بن عمر يطعن على العرب ويخطئ المشاهير منهم مثل النابغة فى بعض أشعاره ، وغيره [1] .

وكان حماد الراوية — مولى بنى بكر بن وائل — من أعلم الناس بأخبار العرب وأنسابها وأيامها وأشعارها ولغاتها . وكانت ملوك بنى أمية تقدمه وتؤثره وتستزيده فيفد عليهم وينال منهم ، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها . وقال له الوليد بن يزيد الأموى يوماً وقد حضر مجلسه : بم استحققت هذا الاسم فقيل لك الراوية ؟ قال : بأنى أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به . ثم أروى لأكثر منهم ممن تعترف أنك لا تعرفه ولا سمعت به . ثم لا ينشدنى أحد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم من المحدث . فقال له : فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثير . ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام . قال : سأمتحنك فى هذا ، ثم أمره بالإنشاد فأنشد حتى ضجر الوليد . ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفى عليه . فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم [2] !!

وقد نبغ فى الشعر العربى كثير من الموالى فى هذا العصر الأموى ، فامتزجت

(١) الفهرست لابن النديم ص ٦٢ و ٦٣ ، ووفيات الأعيان ٢ — ١١٩ ط الوطن .
(٢) ابن خلكان ١ — ٢٩٢ مطبعة الوطن والأغانى ٥ — ١٥٦ .

الثقافة الأعجمية بالثقافة العربية ، وكان هذا الشعر مرآة لذلك المزيج من الثقافتين . ولكن يظهر أنهم قد لجأوا إلى الشعر كوسيلة للتكسب والمنفعة الشخصية ، ولذا كانت أشعارهم لا تعبر فى الغالب عن أهدافهم الحقيقية . إذ كانوا موزعين بين الأحزاب السياسية المختلفة يساهمون فى الدعاية لها تبعاً للحالة التى تصادفهم والظرف الذى يحيط بهم .

فمثلا أبو العباس الأعمى واسمه السائب بن فروخ مولى بنى الدئل ، كان من المقربين لبنى أمية يمدحهم وينال من عطائهم ؛ وكان منحرفاً عن آل أبي طالب وقد هجا أبا الطفيل عامر بن واثلة لأنه كان شيعياً فقال :

لعمرك أننى وأبا طفيل ... لمختلفان والله الشهيد
لقد ضلوا بحب أبى تراب ... كما ضلت عن الحق اليهود[1]

وقال فى مدح بنى أمية :

أبنى أمية لا أرى لكم ... شبهاً إذا ما التفت الشيع

وقال أيضاً فى مدحهم :

خطباء على المنابر فرسا ... ن عليها وقالة غير خرس
لا يعابون صامتين وإن قا ... لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس[2]

وعمرو بن الحصين مولى تميم ، كان من أنصار الخوارج . وله فى الدعاية لمذهبهم أشعار كثيرة نذكر منها على سبيل المثال قوله فى مدح الخوارج ووصفهم بالتقى والصلاح :

ومبرئين من المعايب أحرزوا ... خصل المكارم أتقياء أطايب

وقوله فى وصفهم بالشجاعة والإقدام :

فى فتية صبر ألفهمو به ... لف القداح يد المفيض الضارب
فتدور نحن وهم وفيما بيننا ... كأس المنون تقول هل من شارب؟

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ط الدكتور رفاعى ج ١١ ص ١٧٩ .
(٢) الأغانى ج ١٥ ص ٥٧ و ٥٨ .

فنظل نسقيهم ونشرب من قنى ... سمر ومرهفة النصول قواضب
سائل بيوم قديد عن وقعاتها ... يخبرك عن وقعاتها بعجائب (١)

ولكن كانت تظهر منهم أحياناً نزعة قومية تنسيهم ولاءهم للقبائل العربية فيفضلون الأعاجم على العرب كقول اسماعيل بن يسار فى حضرة الخليفة هشام بن عبد الملك :

أصلى كريم ومجدى لايقاس به ... ولى لسان كحد السيف مسموم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً ... والهرمزان لفخر أو لتعظيم (٢) ؟

وكقول يزيد بن ضبة مولى ثقيف :

ألم تر أننا لما ولينا ... أموراً خرقت فوهت سددنا
رأينا الفتق حين وهى عليهم ... وكم من مثله صدع رقأنا (٣)

والآن نتساءل عن السر الذى دفع هؤلاء الموالى إلى الاشتغال بالعلم والنبوغ فيه وجعلهم يتزعمون الحركة الفكرية ويسبقون العرب إلى هذه الدرجة الكبيرة .

لقد ذكر ابن خلدون أن السبب فى ذلك هو أن العرب كانوا لا يزالون قبل الإسلام فى طور البداوة فلم تكن عندهم ملكة البحث العلمى ، ولا الاستعداد الذى يسرع بصاحبه إلى النبوغ كما كان عند غيرهم (٤) .

وذكر جورجى زيدان فى كتابه التمدن الإسلامى ما يؤيد هذا المعنى . ثم قال : وكان الفرس من جهة أخرى يرون للعرب مزية عليهم بالسيادة والنبوة وهيبة الفتح فجعلوا يتقربون إليهم بخدمة العلم وفق ما تتطلبه حال الإسلام (٥) .

---

(١) راجع تلك القصيدة بالأغانى جـ ٢٠ ص ١٠٢ و ١٠٣ ط الساسى وقد قالها عمر بن الحصين على أثر انتصار الخوارج بمعركة قديد قرب المدينة . إذ انتصر الخوارج على الجيش الأموى بقيادة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك .

(٢) الأغانى جـ ٤ ص ١٢٤ .

(٣) الأغانى جـ ٦ ص ١٤٢ وقد عاصر هذا الشاعر الخليفتين هشام بن عبد الملك والوليد ابن يزيد .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٥ ، ٦٣٦ .

(٥) التمدن الأسلامى جـ ٣ ص ٤٧ .

وذكر أحمد أمين بك فى كتابه فجر الإسلام سبباً آخر لنبوغ الموالى فى هذه الناحية العلمية ؛ وهو يرجع فى بعض نواحيه إلى السبب الذى ذكره ابن خلدون فقال: « إن الصحابة قد استكثروا من الموالى يستخدمونهم فى بيوتهم وفى أعمالهم . فإذا كان الصحابى تاجراً فمواليه أعوانه فى التجارة ، وإذا كان عالماً كانت مواليه تلاميذه وأعوانه فى العلم . ومتى كان عندهم حسن استعداد نبغوا فيه بحكم مخالطتهم لسادتهم فى السر والعلن . وملازمتهم لهم فى الإقامة والسفر، ودليلنا على ذلك نافع مولى عبد الله ابن عمر فقد أخذ عنه أكثر علمه »[1].

ونحن نؤيد وجهات النظر السالفة جميعها ونرى أنها جميعاً أسباب اجتمعت فأدت إلى هذه النتيجة .

« والواقع أن هؤلاء الموالى حينما شعروا باحتقار العرب لهم . ورأوا أن العصبية العربية فى العصر الأموى قد تطاير شررها وتناثر ، وأنهم بسبب ذلك قد غمطت حقوقهم وانحدرت منزلتهم ، أوجد هذا فى نفوسهم ما يسميه علماء النفس بمركب النقص[2] . وأرادوا أن يتلمسوا طريقاً إلى المجد حتى يتسنى لهم أن يقفوا على قدم المساواة مع العرب ، وحتى لا ينالهم مثل هذا الازدراء والاحتقار ، وقد كان العلم من الوسائل التى اتخذوها لتحقيق تلك الغاية .. ولما كان أفقهم كما تقدم أوسع من أفق العرب واستعدادهم أكثر . فقد نجحوا فى هذا المجال العلمى أيما نجاح وتحققت لهم أمنيتهم . فان العلم كان يرفع صاحبه ويجعله موضع التقدير والإجلال »[3] .

وإذن فقد كانت العصبية العربية ضد الموالى ذات أثر فعال فى خدمة العلوم الإسلامية . إذ دفعت جمهرة كبيرة من الموالى إلى البحث والاستنتاج والتفوق العلمى حتى ترتفع منزلتهم لدى العرب ، وحتى لا يصيبهم شرر تلك العصبية العربية ... ولكنها من ناحية أخرى كانت ذات أثر سيئ . فإن هؤلاء العلماء من الموالى كانوا فريقين ، فريقاً قد تمكنت مبادئ الإسلام فى نفوسهم وهؤلاء خدموا الدين

(١) فجر الأسلام ص ١٩١ .
(٢) شرح مركب النقص للعالم النفسانى أدلر . (٣) راجع ص ٤٦ و٤٧ من الكتاب .

وخدموا العلوم الدينية كالحسن البصرى وسعيد بن جبير وغيرهما ممن تقدم ذكرهم، وفريقاً آخر لم تتمكن مبادئ الإسلام فى نفوسهم، ولم يكونوا قد تخلصوا من شوائب دياناتهم السابقة وعاداتهم القديمة؛ وهؤلاء أضروا بالإسلام وأضروا بالعلوم الدينية، فسروا الآيات القرآنية بما يتفق مع أغراضهم [1] ووضعوا الأحاديث التى تلائم مذاهبهم [2]، وكان هذا من الأسباب التى زادت من تفرق المسلمين، وعكرت من صفاء العقيدة الإسلامية.

فالشيعة مثلا وهم أنصار على بن أبى طالب كان منهم غلاة جاءوا بآراء غريبة عن الإسلام [3]. وكانت هذه الآراء متأثرة بالمذاهب الدينية التى كانت موجودة فى فارس والعراق وغيرهما قبل الفتح الإسلامى كالمجوسية وغيرها. وكان الأساس فى نشرها أناس أسلموا لأغراض خاصة، ثم صبغوا معتقداتهم الحقيقية بلون إسلامى لكى يستطيعوا التأثير فى قلوب الناس والتنفيس عن عواطفهم المكبوتة [4] ويدين

---

(١) سيأتى بعض أمثلة لذلك.

(٢) لقد نشأ عن عدم تدوين الحديث فى كتاب خاص فى العصور الأولى واكتفاء المسلمين بالاعتماد على الذاكرة وصعوبة حصر ما قال رسول الله (ص) أو فعل أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته كذباً الى رسول الله، وقد كانت تدفعهم الى ذلك أغراض كثيرة أهمها الخصومة السياسية. فالخصومة السياسية بين أبى بكر وعلى، حملت جماعة من أنصار على أن يضعوا الاحاديث فى مدحه لكى يزداد حب الناس له، فقابل أنصار أبى بكر هذا العمل بمثله. إذ وضعوا الاحاديث فى مدح صاحبهم وتفضيله على غيره وهكذا.. قال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة « واعلم أن أصل الكذب فى حديث الفضائل كان من جهة الشيعة فإنهم وضعوا فى مبدأ الأمر أحاديث مختلقة فى صاحبهم. حملهم على وضعها عداوة خصومهم. فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث فى مقابلة هذه الأحاديث.. ولقد كان فى فضائل على الثابتة الصحيحة، وفضائل أبى بكر المحققة المعلومة ما يغنى عن تكلف العصبية لهما » (شرح ابن أبى الحديد ٢/١٧) فلما فتحت الفتوح ودخل فى الاسلام كثير من سكان تلك البلاد وكان إسلامهم ضعيفاً استباحوا لأنفسهم وضع الأحاديث التى تخدم أغراضهم لكى يقبل الناس عليهم، ويتعلقوا بأهدابهم، وبذلك كثرت الفرق فى الاسلام. وأخذ الانحلال والتفرق يسريان فى كيان المسلمين.

(٣) مقالات الاسلاميين للاشعرى ج ١ ص ٥.

(٤) السيادة العربية لفان فلوتن ص ٨٥ و ٨٦.

هؤلاء الغلاة من الشيعة بمبدأ الحلول والتناسخ[1]. وأول فرقهم السبئية؛ وهم أتباع عبد الله بن سبأ [2]. وقد قالوا بأن علياً حي لم يقتل وقد حل فيه الجزء الإلهي ولا يجوز أن يستولى عليه، وهو الذى يجيء فى السحاب، والرعد صوته، والبرق سوطه، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلاً كما ملئت جورا .. كما قالوا بأن هذا الجزء الإلهى الذى حل فى على يتناسخ فى الأئمة من بعده[3].

والذى يعنينا من ذكر هذه المعتقدات أنها متأثرة بالديانات القديمة التى كانت سائدة فى تلك البلاد الأجنبية قبل الفتح الإسلامى من المزدكية والبرهمية والصابئة وغيرها[4] ... ولذا يقول فلهوزن: « إن هذه الآراء الغريبة التى ظهرت تحت ستار الإسلام كانت كرد فعل لتلك الديانات التى غمرها الإسلام »[5]. ولذا « كان معظم أتباع السبئية من الموالى وأقلهم من العرب »[6].

ثم ظهرت بعد ذلك فرقة الكيسانية، وهم أصحاب كيسان مولى على بن أبى طالب، ويهمنا من هذه الفرقة أمران: أولها أن رئيسها وهو كيسان من الموالى[7]. وثانيهما: ان آراءها متطرفة و بعيدة عن الإسلام الصحيح. فهم يقولون إن الدين ليس إلا طاعة إمامهم. و إن الأحكام الشرعية الأساسية فى الدين كالصلاة والصيام والحج لا ضرورة لها مادام الإنسان مطيعاً لإمامه[8]. وهم يقولون بالحلول والتناسخ أيضاً متأثرين فى ذلك بتلك الديانات القديمة من المزدكية والبرهمية والصابئة[9] كما تقدم

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (على هامش كتاب الفصل لابن حزم) ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) ، (٣) الملل والنحل للشهرستانى ج ٢ ص ١١ .

(٤) المرجع السالف ج ٢ ص ١٢ .

(٥) فلهوزن : الدولة العربية وسقوطها ص ٥٠٤ .

(٦) المرجع السالف ص ٥٠١ .

(٧) الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ١٩٦ .

(٨) الشهرستانى ج ١ ص ١٩٦ .

(٩) المرجع السالف ج ٢ ص ١٢ .

ثم ظهرت فرقة الهاشمية ، وهم القائلون بأن الإمامة قد انتقلت من محمد بن الحنفية إلى ابنه أبى هاشم عبد الله ، وقد تطرف هؤلاء القوم فى مذهبهم وأدخلوا فيه كثيراً من الآراء الغريبة عن الدين [١]. حتى لقد أدى ذلك التطرف إلى دخول كل من أسلم لطمع أو لخوف دون فهم للعقيدة الإسلامية فى صفوفهم [٢].

ثم ظهرت فرقة البنانية ، وهم أتباع بنان بن سمعان النهدى وهؤلاء يقولون بانتقال الخلافة من أبى هاشم إليه . وكان هذا الرجل يقول بألوهية على بن أبى طالب فقال : « حل فى على جزء إلهى واتحد بجسده فبه كان يعلم الغيب إذ أخبر عن الملاحم وصح الخبر ، و به كان يحارب الكفار وله النصرة والظفر ، و به قلع باب خيبر وعن هذا قال والله ماقلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولا بحركة غذائية ، ولكن قلعته بقوة ملكوتية » . وقال فى تفسير قوله تعالى « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » : « إن المراد به على فهو الذى يأتى فى ظلل ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه » . وقد ادعى بنان أنه قد انتقل اليه ذلك الجزء الإلهى بنوع من التناسخ وبه استحق أن يكون إماماً وخليفة .

ومن العجيب أن هـذا الرجل قد أرسل كتاباً إلى محمد بن على بن الحسين (الباقر) يدعوه إلى الدخول فى طاعته ، وقد جاء فى ذلك الكتاب « أسلم تسلم وترتق من سلم فإنك لا تدرى حيث يجعل الله النبوة » . وقد انتهى أمر هذا الرجل بقتله . فقتله خالد بن عبد الله القسرى [٣] .

ثم ظهرت فرقة الرزامية ، وهؤلاء يقولون بإمامة ابراهيم بن محمد بن على (وهو الذى كان يدعو إليه أبو مسلم) .

---

(١) المرجع السالف ج ١ ص ٢٠١ .
(٢) السيادة العربية لفان فلوتن ص ٨٢ ـ ٨٩ .
(٣) الشهرستانى ج ـ ١ ص ٢٠٣ و ٢٠٤ و ٢٠٥ .

ويهمنا من هذه الفرقة ناحيتان :

الناحية الأولى : أنها تدين بفكرة الحلول والتناسخ ، وهذه الفكرة مأخوذة عن الديانات القديمة التي كانت سائدة بينهم قبل الفتح الإسلامي كما تقدم .

والناحية الثانية : أن أبا مسلم الخراساني زعيم الموالي وقائد ثورتهم الحاسمة ضد الدولة الأموية كان يدين بهذا المذهب حتى ليروى أن بعض أنصاره جعل له حظاً في الإمامة ، وادعى بأن روح الإله حلت فيه . وأنه بسبب ذلك قد أيده الله على بني أمية ... ويدلنا هذا على أن الموالي كان لهم ضلع كبير في تغذية مثل هذه الفرق بالبدع والخرافات التي تتنافى مع المبادئ الأساسية للاسلام .

إلى غير ذلك من تلك الفرق الكثيرة التي ظهرت إبان العصري الأموي وغيره من العصور ، والتي خلطت بين مبادئ الإسلام وبين غيره من الديانات القديمة فأوهنت من قوة ذلك الدين الجديد وزعزعت من كيانه المتين .

وبهذا يتبين لنا أن موقف العرب من الموالي ، وعصبية العرب ضدهم ، وتجافيهم في العصر الأموي عن المبادئ الإسلامية التي تسوي بين العربي وغيره ؛ كان سلاحا ذا حدين ، فهو قد دفع بالموالي في سبيل النبوغ العلمي فأفاد العلوم الإسلامية من ناحية نضوجها السريع وعمق بحثها ؛ واستيفاء دراستها وجمع ما تفرق منها ، وتطبيق قواعدها العامة في الحياة العملية بإصدار الفتاوى والأحكام .

ولكنه من ناحية أخرى أضر بها ، إذ كان من الموالي طائفة إيمانها ضعيف وأغراضها سيئة أدخلت على الدين ما ليس منه ، فشوهت من جلاله ، وعكرت من بهجته وصفائه ، وأوجدت الفوضى والانقسام في صفوف أبنائه ، فانتشرت البدع والخرافات وظهرت الفرق الكثيرة التي تتشح بثوب الإسلام ، ولكنها تتجافى عن تعاليمه وتتنكر لمبادئه ، والتي هي في الواقع أشد ضرراً على الإسلام من سائر الملل والديانات الأخرى .

الفصل السادس

إرهاصات الشعوبية

الشعور القوى للأعاجم يصطدم بالعصبية العربية — نشأة الشعوبية — العصبية العربية تقف أمام تيارها القوى — الشعوبية بين العصرين الأموى والعباسى.

وضع العرب الموالى فى مركز اجتماعى منحدر ، كما بينا ذلك فيما سبق . وكان لدى هؤلاء الموالى وعى جماعى ، أو ما يمكن أن نسميه بلغة العصر الحاضر بالشعور القومى فكانوا يذكرون أنفسهم بما كانت عليه أممهم قديماً من عز تالد ، ومجد عريق . وإذ ذاك جالت بأذهانهم أفكار خاصة عن أقدار الأمم وخصائصها . ووجدوا أن أممهم ليست دون الأمة العربية منزلة . فتكلموا عن فكرة المساواة بين أممهم والعرب وغلا فريق آخر بتفضيل الأعاجم عليهم. ودارت بين الكتاب فى العصر العباسى مساجلات فى هذا الصدد ، وهى تلك الحركة الأدبية التى تعرف باسم الشعوبية .

ولم تظهر هذه الحركة الأدبيـة فجأة فى العصر العباسى ، بل كانت لهـا مقدمات وتمهيدات نشأت فى أواخر العصر الأموى إن لم يكن فى خلاله . وهذه المقدمات أو الإرهاصات تعتمد على أساس نفسى يرجع إلى ما كان يشعر به الموالى من زراية وتحقير يؤذيان كرامتهم ، وهو يرجع أيضاً إلى نزعة قومية ثابوا اليها بعد أن استفاقوا من غمرة الفتح التى غمرهم بها ذلك الشعب الفاتح الجديد .

ولتوضيح ذلك نقول :

كانت البلاد التى فتحها الإسلام تقف على درجات مختلفة من سلم الرقى والمدنية

ولكنها فى مجموعها كانت فى ميدان الحضارة أرسخ قدماً من الدولة العربية الفاتحة. حتى لقد اعترف بذلك بعض العقلاء من العرب فقال: كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً وأشقاه عيشاً، وأبينه ضلالة، وأعراه جلوداً، وأجوعه بطوناً، معكومين على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم. لا والله ما فى بلادهم يومئذ شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات ردى فى النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلا يومئذ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظاً وأدق فيها شأناً منهم، حتى جاء الله عز وجل بالإسلام فورثكم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد، ووسع لكم به من الرزق وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس [1].

ولئن كانت هذه الأمم المغلوبة قد أزعجها ما رأت من تلك القوة المفاجئة التى انبعثت من شبه الجزيرة العربية فأخضعت الممالك الكثيرة، فلقد خفف عنها إلى درجة كبيرة ما جاء به الدين الإسلامى من مبادىء قويمة تدعو إلى مكارم الأخلاق وتعمل على إزالة الفوارق بين الأجناس وتتمثل فى الآية القرآنية الكريمة «إنما المؤمنون أخوة». ولكن لم يقض ذلك على عاطفتهم الوطنية، ونزعاتهم القومية التى ظلت مختبئة كامنة تتلمس الفرص للظهور.

ولم يلبث الخلفاء والولاة من المسلمين فى العصر الأموى. بل لم تلبث الغالبية من المجتمع العربى فى ذلك الوقت، أن ابتعدت عن ذلك المنهاج الذى رسمه الدين الإسلامى وأخذت تحن إلى العادات القديمة الموروثة. وإذ ذاك تيقظت العصبية العربية فى نفوسهم وأصبحوا ينظرون إلى الأعاجم — من أسلم منهم ومن لم يسلم — نظرة هى مزيج من البغض والاحتقار..!!

وفى الوقت نفسه لم تلبث العناصر الأعجمية أن عاودها الحنين إلى المجد القديم

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٠ ط ١٣١٦ هـ.

والسلطان المغتصب . فتنبهت فى نفوسها النزعات القومية الكامنة وصارت تتلمس الفرص وتتربص الدوائر .

وكان من الطبعى أن تصطدم هذه النزعات القومية بتلك العصبية العربية . وأن يكون بينهما صراع قوى عنيف ... وفى ظل هذا الصراع القوى العنيف نشأت فكرة الشعوبية .

وقد اعتمد أصحاب هــذه الفكرة على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة فى تأييد دعواهم فطالبوا بالمساواة بين المسلمين من العرب والعجم ، وأعلنوا أن الناس جميعاً من طينة واحدة وسلالة رجل واحد ، واحتجوا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : المسلمون إخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم . وهم يد على من سواهم . وقوله فى حجة الوداع وهى الخطبة التى ودع فيها أمته وختم نبوته : أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء . كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى(١) . واحتجو أيضاً بقول الله تعالى فى هذا المعنى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(٢) .

وهـذا الحزب الذى نادى فى مبدأ الأمر بالتسوية بين الأجناس والأمم قد انتهى إلى آراء متطرفة تذهب إلى تفضيل العجم على العرب ، وتغض من شأن العرب وترميهم بأنواع النقائص والمثالب(٣) .

ولا شك أن الشعوبية كنزعة مستقرة فى نفوس الأعاجم ، أو فى نفوس غالبيتهم كانت موجودة منذ ابتدأ الفتح الإسلامى لبلادهم . ويمكننا أن نقول إن مقتل الخليفة ابن الخطاب كان أثراً من آثار هذه الشعوبية الكامنة فى نفوس هؤلاء الأعاجم كما كانت كل الحركات التى يؤازرها الموالى فى سبيل القضاء على الدولة الأموية

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٠ .　　(٢) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٣) دراسات إسلامية لجولدزيهر (الشعوبية) ج ١ ص ١٤٧ . وتاريخ الفرس الأدبى لبراون ج ٢ ص ٢٦٥ .

ترتكز على أساس من تلك الشعوبية ، وسنرى عند الكلام على ثورات الموالى أن المختار الثقفى حينما كان يحامل العرب يتألم الموالى ويسخطون ، وحينما كان يبدو منه إعراض عن العرب يفرح الموالى وتطمئن نفوسهم[1] . وهذا يدلنا بلا شك على نزعة شعوبية مستقرة بين جنوبهم كانت تظهر حيناً وتختفى أحياناً تبعاً لتغير الظروف والأحوال .

ونستطيع أن نلمح تلك النزعة الشعوبية ، فى قصيدة ليزيد بن ضبة مولى ثقيف وقد قالها يذكر ما فعله معه هشام بن عبد الملك حيث لم يحسن مقابلته ولم يكرم وفادته . وربما كان هذا الصنيع من هشام قد حرك الأشجان الكامنة فى نفس يزيد فحن لبنى جلدته وافتخر بهم . فنراه يقول :

ألم تر أننا لما ولينا ... أموراً خرقت فوهت سددنا
رأبنا الفتق حين وهى عليهم ... وكم من مثله صدع رقأنا
إذا هاب الكريهة من يليها ... وأعظمها الهيوب لها عمدنا
وجبار تركناه كليلا ... وقائد فتنة طاغ أزلنا
فلا تنسوا مواطننا فإنا ... إذا ما عد أهل الجرم عدنا
وما هيضت مكاسر من جبرنا ... ولا جبرت مصيبة من هددنا

ثم يقول :

وقد كان الملوك يرون حقاً ... لوافدنا فنكرم إن وفدنا
ولينا الناس أزماناً طوالاً ... وسسناهم ودسناهم وقدنا

وفى نهاية تلك القصيدة يقول :

ونكوى بالعداوة من بغانا ... ونسعد بالمودة من وددنا
نرى حقاً لسائلنا علينا ... فنحبوه ونجزل إن وعدنا

(١) راجع ص ١٠٨ ، ١٠٩ من الكتاب .

ونضمن جارنا ونراه منا ... ونرفده فنجزل إن رفدنا
وما نعتد دون المجد مالا ... إذا يغلى بمكرمة أفدنا
وأتلد مجدنا أنا كرام ... نجد المشرفية عنه ذدنا[1]

ولكن الشعوبية لم تبرز إلى الوجود فى صورة مجادلات كلامية، ومساجلات أدبية نثرية وشعرية إلا فى العصر العباسى الذى ازدهى فيه العنصر الأعجمى بالنصر والغلبة .. والسبب فى ذلك أن الأمويين كانوا يحاربون هذه النزعة ويصدونها فى عنف وشدة، فإذا ما اجترأ أحد على المجاهرة بها أوقعوا به أقسى العقوبات وأشدها.

فيروى عن إسماعيل بن يسار مولى بنى تيم أنه دخل على هشام بن عبد الملك فى خلافته فاستنشده فأنشد قصيدة يقول فيها :

إنى وجدك ماعودى بذى خور ... عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم ومجدى لايقاس به ... ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب ... من كل قوم بتاج الملك معموم
جحاجح سادة بلج مرازبة ... جرد عتاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً ... والهرمزان لفخر أو لتعظيم ؟
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا ... وهم أذلوا ملوك الترك والروم
يمشون فى حلق الماذى سابغة ... مشى الضراغمة الأسد اللهاميم
هناك إن تسألى تنبى بأن لنا ... جرثومة قهرت عز الجراثيم[2]

فغضب هشام وقال : أعلى تفتخر ؟ وإياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ غطوه فى الماء. فغطوه فى البركة حتى كادت نفسه تخرج. ثم أمر بإخراجه وهو بشر. ونفاه من وقته إلى الحجاز[3].

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ١٤١ و١٤٢ ط الساسى.

(٢) الظاهر أن إسماعيل بن يسار قد طافت بنفسه بعض الخواطر التى ذكرته بمجد آبائه الأقدمين. فاستولت عليه نشوة أنسته أنه فى حضرة خليفة أموى ..

(٣) الأغانى جـ ٤ ص ١٢٤. دراسات اسلامية لجولدزيهر (فصل مترجم عن الشعوبية) وكتاب تاريخ الفرس الأدبى لبراون ٢ / ٢٦٥. وكتاب معاوية للاب لامنس ص ٤٢٩.

الفصل السابع

ثورات الموالى ونهاية الدولة الأموية(١)

انتهازهم الفرس ضد الدولة ـ ثورتهم مع المختار الثقفى ـ ثورتهم مع عبدالرحمن ابن الأشعث ـ الدعوة لآل البيت وتسترهم فى ظلالها ـ ثورتهم مع الحارث ابن سريج ـ العصبية القبلية فى خراسان ـ ثورة أبى مسلم الخراسانى ـ نظرة سريعة فى رقعة الممتلكات الإسلامية ـ أبو مسلم والقضاء على الدولة الأموية ـ الموالى فى ظل الدولة العباسية (الجديدة) .

لم تكن العصبية العربية وحدها هى التى حركت الموالى وجعلتهم يخرجون على الدولة الأموية فيمن خرج من سائر الأحزاب المعارضة . ولكن كان للشعور القومى والعصبية الجنسية المتأصلة فى نفوس هؤلاء الموالى نصيب كبير فى تغذية هذه الحركات وتقويتها . ولقد وضح هذا المعنى لدى العرب منذ مقتل الخليفة ابن الخطاب رضى الله عنه إذ كانت هذه المأساة كإنذار وجهته الأعاجم إلى العرب . فابتدأ الفريقان منذ تلك اللحظة يودعان عهد الصفاء والمودة ، وأخذ ذلك الستار الجميل الذى أسدله الإسلام على النفوس ينكشف رويداً رويداً لكى تظهر من ورائه الأطماع الكامنة والحزازات القديمة .

ولا شك أن المتتبع لحركات الموالى وثوراتهم . يلاحظ أنهم كانوا ينتهزون

(١) لا نقصد بهذا التعبير أنها ثورات للموالى فحسب . ولكنها ثورات اشترك فيها العنصران العربى والأعجمى ، وإنما اخترنا لها هذا الاسم لأن الموالى كانوا فيها غالبية . وكانت لهم من وراء الاشتراك فيها أغراض خاصة .

الفصل السابع

ثورات الموالى ونهاية الدولة الأموية(١)

اتهامهم الفرس ضد الدولة — ثورتهم مع المختار الثقفى — ثورتهم مع عبدالرحمن ابن الأشعث — الدعوة لآل البيت وتسترهم فى ظلالها — ثورتهم مع الحارث ابن سريج — العصبية القبلية فى خراسان — ثورة أبى مسلم الخراسانى — نظرة سريعة فى رقعة الممتلكات الإسلامية — أبو مسلم والقضاء على الدولة الأموية — الموالى فى ظل الدولة العباسية (الجديدة) .

لم تكن العصبية العربية وحدها هى التى حركت الموالى وجعلتهم يخرجون على الدولة الأموية فيمن خرج من سائر الأحزاب المعارضة . ولكن كان للشعور القومى والعصبية الجنسية المتأصلة فى نفوس هؤلاء الموالى نصيب كبير فى تغذية هذه الحركات وتقويتها . ولقد وضح هذا المعنى لدى العرب منذ مقتل الخليفة ابن الخطاب رضى الله عنه إذ كانت هذه المأساة كإنذار وجهته الأعاجم إلى العرب . فابتدأ الفريقان منذ تلك اللحظة يودعان عهد الصفاء والمودة ، وأخذ ذلك الستار الجميل الذى أسدله الإسلام على النفوس ينكشف رويداً رويداً لكى تظهر من ورائه الأطماع الكامنة والحزازات القديمة .

ولا شك أن المتتبع لحركات الموالى وثوراتهم . يلاحظ أنهم كانوا ينتهزون

---

(١) لا نقصد بهذا التعبير أنها ثورات للموالى فحسب . ولكنها ثورات اشترك فيها العنصران العربى والأعجمى ، وإنما اخترنا لها هذا الاسم لأن الموالى كانوا فيها غالبية . وكانت لهم من وراء الاشتراك فيها أغراض خاصة .

الفرص كلما لاحت لهم فى سبيل القضاء على الدولة الأموية (العربية) . وأنهم كانوا ينضمون لكل خارج على هذه الدولة ، وأن كثرتهم وقلتهم فى تأييد تلك الأحزاب الخارجة كانت تتبع إلى حد كبير شخصية الداعى وحسن سياسته . كما سيتبين لنا فيما بعد ... ولكنهم على كل حال كانوا يفرحون ويبتهجون بكل خروج على الدولة الأموية ، وذلك لأنهم كانوا يحقدون على الأمويين — بل على العنصر العربى بأكمله — ويرون أن تلك الحروب التى تقوم بين الأحزاب المختلفة من العرب ستؤدى حتما إلى إضعاف الغالب والمغلوب وفى ذلك قوة ونجاح لهم .

فتراهم قد انضموا إلى عبد الله بن الزبير الخارج على الدولة وأيدوه فى مطالبته بالخلافة ... ولكن ابن الزبير كان شحيحاً بالمال حتى على المقربين اليه والمتفانين فى خدمته . وقد أظهر الزهد فى الدنيا والعبادة مع الحرص على الخلافة . وقال : إنما بطنى شبر فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا وأنا العائذ بالبيت والمستجير بالرب . فلما رأى الموالى منه هذا الشح والتقتير نفروا منه وانصرفوا عنه وفى ذلك يقول بعضهم موجهاً خطابه إلى ابن الزبير :

إن الموالى أمست وهى عاتبة   على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا   أى الملوك على ما حولنا غلبا

ويقول الضحاك بن فيروز الديلمى (وهو من الموالى) ينند بسياسة ابن الزبير

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة   وبطنك شبر أو أقل من الشبر
وأنت إذا ما نلت شيئاً قضمته   كما قضمت نار الغضى حطب السدر
فلو كنت تجزى أو تبيت بنعمة   قريباً لردتك العطوف على عمرو [1]

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٩٩ .. وهو يشير بالبيت الأخير إلى ما وقع بين عبد الله ابن الزبير وأخيه عمرو . وذلك أن يزيد بن معاوية كان قد ولى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان المدينة ، فسرح منها جيشاً إلى مكة لحرب ابن الزبير . عليه عمرو بن الزبير (أخوه) ، وكان عمرو منحرفا عن عبد الله . فلما تصاف القوم انهزم رجال عمرو وأسلموه فظفر به أخوه عبد الله فأقامه للناس بباب المسجد مجرداً ، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات . (المرجع السالف ص ٩٩ و ١٠٠) .

ونراهم كذلك يشتركون فى حركات الخوارج ضد الدولة الأموية . حتى ليروى لنا المبرد أن الخوارج لما اختلفوا فيما بينهم على عهد عبد الملك بن مروان — وكان عبد الملك قد أرسل جيشاً بقيادة المهلب لمحاربتهم ، وترتب على هذا الاختلاف أنهم خلعوا قطرياً وولوا مكانه عبد ربه — انفصل إلى عبد ربه أكثر من الشطر وجلهم من الموالى والعجم . وكان هناك منهم ثمانيه آلاف[1] .

ولكن الثورات التى كانت تتشح بثوب شيعى كانت تلاقى من الموالى تأييداً وتعضيداً أشمل وأعظم . ولعل السر فى ذلك أنهم كانوا — وغالبيتهم من الفرس — يؤمنون بنظرية الحق الملكى المقدس ، ويعتقدون أحقية العلويين بالخلافة ، وذلك بصفتهم المزدوجة ، فهم من سلالة محمد بن عبد الله من جهة أمهم فاطمة بنت محمد وزوج على ، وهم من سلالة آل ساسان من جهة أمهم بيبى شهربانوه ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس حيث تزوجها الحسين بن على[2] .

وسنحاول أن نتعرض فى هذا الفصل لأهم الثورات التى اشترك فيها الموالى ضد الدولة الأموية ، وكانت لهم فيها أغلبية واضحة .

ونستطيع أن نقول إن حركة المختار بن عبيد الثقفى سنة ٦٦ هـ كانت أول حركة قوية استغلها الموالى لكى ينتقموا لأنفسهم ، ويحققوا مآربهم بإرجاع السيادة القومية وتحطيم السيادة العربية .

والمختار الثقفى رجل عربي مغامر جرىء ذو آمال ومطامع . التمس المجد والسلطان فى كنف عبد الله بن الزبير فأخفق فولى وجهه شطر محمد بن الحنفية[3] ينصره

---

(١) الكامل للمبرد ج ٣ ص ٢٢٨ ط الدلجونى ، وقد ذكر المبرد بعض الأسباب لخلع الخوارج قطريا وتوليتهم عبد ربه فى ص ٢٢٧ و ٢٢٨ من المرجع السالف .

(٢) كتب فى ذلك بتوسع الدكتور حسن إبراهيم حسن فى كتابه تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ (العصر العباسى الأول) ص ١٤ و ١٥ .

(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ج ٥ ص ٢١٧ .

وينشر دعوته ويطالب بثأر الحسين بن على لكى يتمكن من الوصول إلى أغراضه ومطامعه (١).

ولقد وجد الموالى فيه ضالتهم المنشودة فهم يشاركونه الحقد على الدولة الحاكمة ويرون أن الحرب التى تقوم بين العناصر العربية ستؤدى حتماً إلى إضعاف الغالب والمغلوب وفى ذلك قوة ونجاح لهم ... وكذلك وجد المختار فى هؤلاء الموالى ضالته المنشودة فهو يريد أن يصل إلى المجد والسلطان مهما يكن الثمن . وهو فى سبيل ذلك يغير سلوكه واتجاهه من وقت لآخر ؛ فلقد كان أيام مؤازرته لابن الزبير يكره الموالى ويستهزئ بهم (٢)، ولكنه بعد انضمامه لابن الحنفية أصبح يتقرب إلى الموالى ويتظاهر أمامهم بالحب والإخلاص ويشركهم مع العرب فى العطاء (٣). وكان فى بعض الأحيان يكاد يتناقض مع نفسه فإذا كان مع العرب تظاهر أمامهم بالحب والإخلاص حتى إذا ما عاتبه الموالى من أجل ذلك لم يلبث أن يتراجع ويعلن غضبه وحقده على العرب . ويروى المؤرخون فى هذا الصدد أن رجلا من الموالى يدعى كيسان أبا عمرة ، وكان على حرس المختار ، قام ذات يوم فرأى الأشراف (أى من العرب) يحدثون المختار ورآه قد أقبل بوجهه وحديثه عليهم . فقال لأبى عمرة بعض أصحابه من الموالى : أما ترى أبا إسحاق قد أقبل على العرب ما ينظر الينا ؟ فدعاه المختار فقال له : ما يقول لك أولئك الذين رأيتهم يكلمونك ؟ فقال له وأسر اليه : شق عليهم — أصلحك الله — صرفك وجهك عنهم إلى العرب ! فقال : قل لهم لا يشقن ذلك عليكم فأنتم منى وأنا منكم . ثم سكت طويلا ثم قرأ « إنا من المجرمين منتقمون » فما هو إلا أن سمعها الموالى منه حتى قال بعضهم لبعض : أبشروا كأنكم والله به قد قتلهم (٤).

(١) الدعاة من المتألهين والمتنبئين والمتمهدين تأليف وجيه الكيلانى ص ٦٣ .
(٢) اليافعى ج ٢ ص ١٠٧ . (٣) الطبرى ج ٧ ص ١٠٩ .
(٤) اليافعى جزء ٢ ص ١٢٠ والطبرى ج ٧ ص ١٠٩ .

ولما رأى العرب منه أنه يقرب الموالى ويسويهم بهم فى العطاء نفروا منه وتآمروا عليه ؛ فاجتمع أشراف الكوفة عند شبث بن ربعى وشكوا اليه من سيرة المختار وإيثاره الموالى عليهم ودعوه إلى الوثوب فقال : حتى ألقاه وأعذر إليه . ثم ذهب إليه وذكر له جميع ما نكروه وذكر له شأن الموالى وشركتهم فى الفىء ؛ فقال : إن أعطيتمونى عهداً بقتال بنى أمية وابن الزبير تركتهم[1] .

وهذه النصوص المتقدمة توضح أن المختار كان يتلاعب بعقول العرب حيناً والموالى حيناً آخر فى سبيل الوصول إلى أغراضه ومطامعه . ولقد تحدث المختار عن نفسه أخيراً وكشف اللثام عن حقيقة ثورته حينما رأى الأعداء قد أحاطوا به وحينما أيقن بالهلاك والفشل ، فيروى أن المختار لما طارده أعداؤه وتحصن بالكوفة ودخل قصر الإمارة أقبل مصعب بن الزبير حتى أناخ عليه وحاصره أربعين يوما . فقلق المختار من هذا الحصار قلقا شديداً وقال للسائب بن مالك الأشعرى — وكان من خاصته — : أيها الشيخ اخرج بنا لنقاتل على أحسابنا لا على الدين . فاسترجع السائب وقال : يا أبا إسحاق لقد ظن الناس أن قيامك بهذا الأمر دينونة[2] . فقال المختار : لا لعمرى ما كان إلا لطلب دنيا فإنى رأيت عبد الملك بن مروان قد غلب على الشام ، وعبد الله ابن الزبير على الحجاز ، ومصعبا على البصرة ، ونجدة الحرورى على العروض ، وعبد الله ابن خازم على خراسان ، ولست بدون واحد منهم ، ولكن ما كنت أقدر على ما أردت إلا بالدعاء إلى الطلب بثأر الحسين[3]

ولا يعنينا إن كان المختار قد أخفق فى هذه الحركة وانفض عنه أنصاره وانتهى الأمر بقتله ولكن يعنينا أن أكثرية جيش المختار كانت من هؤلاء الموالى كما صرح

---

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٢٤ .
(٢) يريد ظن الناس أن قيامك بهذا الأمر فى سبيل خدمة الدين .
(٣) الأخبار الطوال للدينورى ص ٢٩٨ ، وكتاب الدعاة لوجيه الكيلانى ص ٦٣ .

بذلك الدينوري فى أكثر من موضع ، إذ يقول [1] : وكان أكثر من استجاب له همدان وقوم كثير من أبناء العجم الذين كانوا بالكوفة وكانوا يسمون الحمراء وكان منهم بالكوفة زهاء عشرين ألف رجل . ويقول فى موضع آخر [2] : وأرسل المختار إبراهيم بن الأشتر لقتال عبد الملك بن مروان وانتخب له المختار عشرين ألف رجل وكان جلهم من أبناء الفرس الذين كانوا بالكوفة ويسمون الحمراء . ويقول فى موضع ثالث [3] : قال بعض الناس لإبراهيم بن الأشتر قائد الجيش من قبل المختار : لقد اشتد غمى منذ دخلت عسكرك وذلك أنى لم أسمع فيه كلاماً عربياً حتى انتهيت إليك ؛ وإنما معك هؤلاء الأعاجم وقد جاءك صناديد أهل الشام وأبطالهم وهم زهاء أربعين ألف رجل فكيف تلقاهم بمن معك؟ فقال إبراهيم : والله لو لم أجد إلا النمل لقاتلتهم بها فكيف وما قوم أشد بصيرة فى قتال أهل الشام من هؤلاء الذين تراهم معى وإنما هم أولاد الأساورة من أهل فارس والمرازبة وأنا ضارب الخيل بالخيل والرجال بالرجال والنصر من عند الله .

ولا يعنينا أيضاً إن كان الموالى قد فهموا نفسية المختار على حقيقتها وأدركوا أنه غير مخلص فى دعوته أم لم يدركوا ذلك فإنهم ناصروه لأنهم وجدوا فى حركته — كما قدمنا — متنفساً لهم فقاموا تحت ستارها يحاربون العصبية العربية ويحاولون الانتقام من العرب والأخذ بالثأر وإرجاع مجدهم القديم .

وجاءت بعد ذلك ثورة عبد الرحمن بن الأشعث وهو رجل عربى مغامر جرىء كان من المقربين للحجاج الثقفى ثم خرج عليه لأسباب لا محل لذكرها . ومنذ خرج ابن الأشعث على الحجاج أخذ يؤلب الناس ضده ويجمع الجموع لمحاربته [4] . ومن الطبعى أن الموالى بظروفهم التى تحدثنا عنها فيما مضى وجدوا

---

(١) الأخبار الطوال للدينورى ص ٢٨٢ .

(٢) الدينورى ص ٢٨٦ ، براون ص ٢٣٤ .

(٣) الدينورى ص ٢٨٧ و ٢٨٨ وبراون ص ٢٣٨ .

(٤) الدينورى ص ٣٠٦ و ٣٠٧ .

فى هذه الثورة أيضاً ميداناً لإشباع رغباتهم وميولهم فى عداء العرب عامة وفى الكيد للدولة الحاكمة بصفة خاصة .

وقد أجمعت المصادر على اشتراك الموالى فى ثورة ابن الأشعث وأن جمهرة كبيرة منهم قد حاربت فى صفوفه حتى لقد قيل إنه فى دير الجماجم كان عددهم نحو المائة ألف[1] . وقد ذهب كثير من المؤرخين إلى القول بأن الموالى قد آزروا هذه هذه الحركة لظروفهم الخاصة وإن لم يكونوا هم السبب فى قيامها[2] بينما نرى فون كريمر وفان فلوتن[3] يجعلان أساس الثورة هو محاولة الموالى الخروج على الحجاج الذى فرض عليهم من الالتزامات المالية والقيود الاجتماعية ماجعلهم أحط من العرب وما ضيع عليهم الثمرة المرجوة من إسلامهم .

وقد تصدى فلهوزن فى كتابه الدولة العربية و سقوطها للرد على فون كريمر حيث قال: « حقيقة كانت لهم مصلحة خاصة فى معاداة حكومة الشام ولكنهم كانوا فى الدرجة الثانية فقط فالحركة لم ترتفع منهم بل من الجيش العراق فى سجستان الذى ضم إليه الجيوش الأخرى من الأقاليم الأخرى »[4] .

ونحن نؤيد هذا الرأى ونرى أن حركة ابن الأشعث قد اصطبغت فى أساسها بعوامل نفسية شخصية بين رجل من سلالة ملوك كندة جعلته الظروف مرءوساً ، ورجل عصامى نشأ من أسرة خاملة بالطائف جعلته الظروف رئيساً .

ومهما يكن من شىء فقد اشترك الموالى فى ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج والدولة الأموية ، وكانت هذه الثورة ذات أثر كبير فى إضعاف الحكومة القائمة ، وهى وإن فشلت فى النهاية بالقضاء على ابن الأشعث سنة ٨٥ﻫ إلا أنها أيقظت الآمال فى نفوس الأحزاب المعارضة فاستسلموا للهدوء حيناً من الدهر ريثما تحين لهم الفرصة

(١) الطبرى ج ٨ ص ١٥ وعقد الجمان للعينى ج ١١ م ٣ ص ٣٢٢ ، وابن كثير ج ٩ ص ٤١ .
(٢) ابن الأثير فى كامله ج ٤ ص ٢٢٥ وتاريخ الفرس الأدبى لبراون ص ٢٣٤ .
(٣) السيادة العربية ص ٤١ و ٤٢ . وقد كتب فى ثورة ابن الأشعث بتوسع الأستاذ محمود زيادة فى رسالته عن الحجاج .
(٤) الدولة العربية وسقوطها لفلهوزن ص ١٥٢ و ١٥٣ .

المناسبة والجو الملائم . ولقد جاء بعد ذلك عهد عمر بن عبد العزيز فكان — كما قدمنا — عهد إنصاف وعدالة شاملين وفيه شعر الموالى بأن حقوقهم المهضومة أو على الأقل معظمها قد رد إليهم فكانت تلك السياسة — سياسة اللين والتسامح — مثيرة لأطماعهم ، ولما جاء خلفه ولم يسر بسيرته كان رد الفعل شديداً و إذ ذاك قام الموالى بحملة قوية لمناهضة السيادة العربية تحت ستار الدعوة لآل البيت النبوى .

ولقد ابتدأت الدعوة لآل البيت ،أو الدعوة العباسية منذ سنة ١٠٠ هـ كما تذكر ذلك المصادر المختلفة(١) .

وقد حاول الدعاة العباسيون جلب الشيعة العلويين إلى صفوفهم فأظهروا أن غايتهم هى قلب الحكومة القائمة والقضاء على الخلافة الأموية ، ولم يكن يظهر منهم ما يشعر بأنهم يطلبون الخلافة لأنفسهم ، فلم تكن تؤخذ البيعة باسم العباسيين بل كانت تؤخذ لشخص غير معين من آل البيت رمزوا اليه بالرضا من آل محمد .

ولقد بزغت هذه الدعوة فى الكوفة(٢) . ثم انتقلت بعد زمن يسير إلى إقليم خراسان ، وهو فى الواقع أصلح مكان يمكن أن ينمو فيه هذا المولود الجديد وتتكامل قوته . فلقد كانت خراسان بوضعها الجغرافى بعيدة عن المركز الرئيسى للخلافة . وكانت تتجلى فيها أكثر من غيرها روح السخط والعداء للدولة الأموية وذلك لغلبة العنصر الأعجمى فيها على العنصر العربى(٣) . وكان سكانها مزيجاً من قبائل وأمم مختلفة وهذه القبائل والأمم على اختلافها تتفق فى كراهية الأمويين وعدائهم :

« ا » — ففيها من أسلم رغبة فى الإسلام ، وهؤلاء كانوا يحقدون على الأمويين لتجافيهم عن مبادئ الإسلام فى بعض الأحيان .

« ب » — وفيها من أسلم طمعاً فى الامتيازات التى نادى بها الإسلام وأهمها المساواة ، وهؤلاء خاب ظنهم حينما رأوا الأمويين لايطبقون تلك المبادئ .

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٥ وغيره من المراجع فى حوادث سنة ١٠٠ هـ .

(٢) يذكر المقدسى (جـ ١ ص ٥٩) أن أول من استجاب لهذه الدعوة أربعة نفر من الكوفة ... ثم أمروا ببث تلك الدعوة فى خراسان .

(٣) فلهوزن ص ٤٩٣ .

« ج » — وفيها من حافظ على دينه الأصلى ، وهؤلاء كانوا ينتهزون الفرصة لإنقاذ دينهم .

ولعل مما يوضح لنا صلاحية خراسان لتلك الدعوة الجديدة تلك الكلمة المنسوبة لمحمد بن على والتى يروون أنه قالها لدعاته حينما وجههم إلى خراسان . وسواء أصحت هذه الكلمة أم لم تصح فهى على الأقل توضح لنا الوضع الحقيقى للأمصار المختلفة بالنسبة لهذه الدعوة .

قال : أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده . وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف[1] وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان وعداوة راسخة وجهلا متراكماً . وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب (يشير إلى شجاعتهم) وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة[2] . وبعد فإنى أتفاءل إلى المشرق و إلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق[3] .

وهكذا كانت خراسان حقلا خصيباً أفرخت فيه الدعوة وانتشرت مبادئها حتى تشبعت النفوس وامتلأت بكراهية الأمويين وغدت البلاد كالهشيم المتراكم المتهيىء للاشتعال . وقد انتهز هذه الفرصة رجل من المغامرين يدعى الحارث بن سريج فقام بثورة قوية سنة ١١٦ هـ[4] وانضم إليهم من الموالى عدد كبير . وقد قام

---

(١) أى بالكف عن القتال والاشتراك فيه . (٢) إشارة الى التذمر .

(٣) الهمدانى — كتاب البلدان — ص ٣١٥ ط ليدن

(٤) ذكر صاحب النجوم الزاهرة هذه الثورة فى حوادث سنة ١١٥ هـ جـ ١ ص ٢٧٤ ط دار الكتب وذكرها الطبرى فى تاريخه ، وابن الأثير فى كتابه الكامل فى حوادث سنة ١١٦ هـ .

يدعو إلى العمل بالكتاب والسنة والرجوع إلى قواعد الاسلام ومحاربة الأمويين لظلمهم واستبدادهم[1] وغايته هي الوصول إلى السلطان واشتغل بالتمويه على الناس وتضليلهم . لكي يتيسر له هذا السبيل .

فلقد ذكر المؤرخون أن الحارث بن سريج كان يظهر للناس أنه صاحب الرايات السود وأنه المخلص المنتظر[2] . فأرسل إليه نصر بن سيار[3] : إن كنت كما تزعم . وأنكم تهدمون سور دمشق وتزيلون أمر بنى أمية ، فخذ منى خمسمائة رأس ومائتى بعير ، واحمل من الأموال ما شئت وآلة الحرب وسر . فلعمرى لئن كنت صاحب ماذكرت إنا لفى يدك ، وإن كنت لست ذلك فقد أهلكت عشيرتك ، فقال الحارث : قد علمت أن هذا حق ولكن لا يبايعنى عليه من صحبنى (ومعنى ذلك أنه لابد لى من التمويه عليهم حتى أكسب قلوبهم إلى جانبى) . فقال نصر : فقد استبان أنهم ليسوا على رأيك . ولالهم مثل بصيرتك ، وأنهم هم فساق ورعاع . فاذكر الله فى عشرين ألفاً من ربيعة واليمن سيهلكون فيما بينكم . وعرض نصر على الحارث أن يوليه ما وراء النهر ويعطيه ثلاثمائة ألف فلم يقبل[4] .

ومن ثنايا النص السالف نلمح قوة الحارث بن سريج وآماله الواسعة العريضة . ويكفى أن الوالى الأموى يحاول أن يسترضيه بشتى الوسائل لكى يأمن جانبه فلا يستطيع .. ولعل الذى يدل على مدى قوته ماروى من أن نصراً والحارث تناظرا

---

(١) الدولة العربية وسقوطها لفلهوزن ص ٤٦٥ .

(٢) كانت العناصر الساخطة على الدولة كثيراً ما تتعلق بأمل خلاب . هو ظهور مخلص لها ينقذها مما تعانيه من المظالم .. ونظن أن الموالى الذين كانت تقع عليهم أكثر التكاليف دون أن يتمتعوا بنفس الحقوق التى يتمتع بها العرب قد تعلقت قلوبهم بهذه الآمال .

(٣) والى خراسان من قبل الأمويين .

(٤) الطبرى ج ٩ ص ٦٧ والعينى ج ١٢ م ١ ص ٦٥ .

ثم رضيا بالتحكيم . فحكم بينهما مقاتل بن حيان وجهم بن صفوان . وكان حكمهما أن يعتزل نصر ويكون الأمر شورى [١] .

فلو كان نصر يترجح عنده الفوز بالولاية عند استشارة الناس لقبل هذا الحكم ونزل عند هذا الرأى منعاً للنزاع وحقناً للدماء ! !

ولقد انتهت هذه الحركة بعد جهاد طويل بمقتل الحارث بن سريج سنة ١٢٨هـ [٢] ولكن يعنينا منها أن جمهرة كبيرة من الموالى قد انضمت إليه ، وجاهدت لتحقيق غايتها تحت لوائه [٣] . ويعنينا أيضاً أن هذه الحركة قد فرقت صفوف العرب فجعلتهم ينقسمون بين مؤيدين ومعارضين فى جو ملىء بالأنانية والعصبية القبلية [٤] . وإذ ذاك شعر الموالى أن الآمال المرجوة تدنو منهم فازداد نشاطهم فى سبيل القضاء على عدو أوهنه المرض وأحاطت به الأسقام والعلل .

وجاءت بعد ذلك ثورة أبى مسلم الخراسانى وهى الحركة الفاصلة فى حياة الدولة الأموية وتتميز عن غيرها من الحركات السابقة بأن بطلها وقائدها ليس من عنصر عربى [٥] وبأنها كانت أقوى الحركات التى قامت ضد الدولة الحاكمة وبأن الموالى كانوا فيها أقوى وأكثر منهم فيما سبق ذلك من ثورات وحركات .

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٦٧ .
(٢) الطبرى ج ٩ ص ٧٣ ، وعقد الجمان للعينى ج ١٢ م ١ ص ٦٤ .
(٣) راجع الطبرى ج ٨ ص ٢١٩ – ٢٢١ .
(٤) راجع عقد الجمان للعينى ج ١٢ م ١ ص ٦٤ .
(٥) تنوزع فى أمر أبى مسلم فمن الناس من رأى أنه كان من العرب ومنهم من رأى أنه كان عبداً فأعتق . وكان من قرية يقال لها « خرطنيسة » وهى من أعمال الكوفة وسوادها وكان قهرمانا لإدريس بن ابراهيم العجلى ثم آل أمره إلى أن اتصل بمحمد بن على ثم بابراهيم بن محمد الإمام فأنفذه ابراهيم إلى خراسان وأمر أهل الدعوة بإطاعته والانقياد لأمره ورأيه فقوى أمره وظهر سلطانه (مروج الذهب للمسعودى جزء ٢ ص ٢٠١ والدينورى فى كتابه الأخبار الطوال ص ٣٢٢ يذكر أنه عربى وكذلك ابن خلكان ج ١ ص ٥٠٢ مطبعة الوطن) .

وسنتحدث فى كلمة قصيرة عن حالة العرب فى خراسان وقت قيام تلك الثورة لنرى كيف كان الجو المحيط بالموالى ملائماً لمثل هذه الحركات الهدامة العنيفة .

لقد تعرضنا فى ثنايا الفصول السابقة للعصبية التى كانت تقوم بين القبائل المختلفة من وقت لآخر فتعمل عملها فى إضعاف القوة العربية وتوهين بنائها المتين . ولقد حمل العرب معهم هذه العصبية فى كل مكان كانوا يحلون به أو ينتقلون إليه، وكان سلوك الولاة من العرب الذين يتولون الحكم فى الأقاليم المختلفة يزيد فى إشعال هذه العصبية ويقوى خطرها ، فإذا ما تولى الأمور تميمى مثلا وامى أهله وعشيرته وترك غيرهم ، وإذا ما تولى يمنى اتجه إلى قبيلته بالمعونة وغمرها بالامتيازات وأهمل الآخرين .

ويروى لنا المؤرخون فى ذلك أخباراً كثيرة نكتفى منها بذكر بعض أمثلة مما حدث فى خراسان لكى نرى كيف كانت عوامل الهدم والإفناء تتجمع فى هذا الإقليم لكى تهدد الصرح الأموى بالزوال والانهيار .

فيروى أنه لما تولى بكير بن وشاح على خراسان اختلف عليه بطون بنى تميم وأقاموا فى العصبية له وعليه سنتين . وخاف أهل خراسان أن تفسد البلاد ويقهرهم العدو فكتبوا إلى عبد الملك بذلك . وأنها لا تصلح إلا على يد قرشى [1] .

وتولى خراسان المهلب بن أبى صفرة وآله عهداً طويلا ، وهم أزديون (يمانيون) ، فكانوا يمدون اليمانيين بمالهم وجاههم إلى درجة لا يقاس بها غيرهم . حتى ليروى أن وكيلا ليزيد بن المهلب باع بطيخاً ليزيد جاءه من بعض أملاكه بأربعين ألف درهم فغضب يزيد حينما بلغه ماصنع وكيله وقال له : أما كان فى عجائز الأزد من تقسمه فيهن [2] . .

وكان أسد بن عبد الله القسرى فى ولايته على خراسان يتعصب حتى أفسد الناس

---

(١) ابن خلدون جزء ٣ ص ٤٠ . (٢) ابن خلكان جزء ٣ ص ٢٦٥ .

وضرب نصر بن سيار بالسياط وعبد الرحمن بن نعيم وسورة بن أبجر والبخترى بن أبى درهم وعامر بن مالك وغيرهم وسيرهم إلى أخيه « بالعراق » وكتب اليه أنهم أرادوا الوثوب بى ، فلامه خالد وعنفه وقال : هلا بعثت برءوسهم(١) !.

وأخيراً تولى خراسان نصر بن سيار وكان مضرياً فمكث أربع سنين لايستعمل فى خراسان إلا مضرياً(٢). ومن أجل ذلك فقد ساءت العلاقات بين القبائل المختلفة الموجودة فى خراسان إلى درجة تنذر بالخطر البالغ والشر المستطير..

ولقد ظهر أبو مسلم الخراسانى وسط هذا الجو الموبوء بالخلافات والاضطرابات فوجد الفرصة سانحة لإلقاء بذور الفوضى وشن الغارة على أعدائه ؛ فقام بالدعوة لآل البيت وهو يخفى من ورائها الآمال والمطامع ويعمل على إرجاع المجد الفارسى القديم والنيل من العرب تحت ذلك الستار الخادع البراق ... ستار الدعوة لآل البيت .

وكان من الطبعى أن يسارع الموالى وهم فى هذا الإقليم أكثرية وغالبية إلى الانضواء تحت راية ذلك الزعيم القوى الذى عرف كيف يدير السفينة وسط هذه الأمواج المتلاطمة ، وكيف يستغل العواصف الجائحة فيوجهها لمصلحته ويجعلها أساس خير لحركته..

فلقد كان بخراسان قبائل ربيعة ومضر واليمانية وكذلك العجم . وكانت تلك القبائل العربية كثيراً ما تختلف فيما بينها ولكنها كانت تجتمع على كراهية الأعاجم. وقد استطاع أبو مسلم بمهارته أن يغرر بتلك القبائل العربية فوسع هوة الخلاف والشقاق بينها لكى يقيم على أنقاض هذا الخلاف قوته الكبيرة ... ومن ذلك أنه وقع خلاف على عهد الخليفة مروان آخر الخلفاء الأمويين بين المضرية واليمانية . وكان السبب فى ذلك أن جديعاً بن على المعروف بالكرمانى كان سيد من بأرض

(١) ابن خلدون جزء ٣ ص ٨٧ .
(٢) الأخبار الطوال للدينورى ص ٣٣٤ ، وابن خلدون ج ٣ ص ٩٧ .

خراسان من اليمانية . وكان نصر بن سيار (المضرى) متعصباً على اليمانية مبغضاً لهم فكان لايستعين بأحد منهم .. وعادى أيضاً ربيعة لميلها إلى اليمانية[1] . وكان على رأسها شيبان الحرورى . وقد وقعت حرب عنيفة بين أنصار نصر وأنصار الكرمانى قتل فيها عدد كبير من الفريقين[2] وهنا تدخل أبو مسلم بأساليبه السياسية الفائقة لكى يصطاد فى الماء العكر كما يقولون .

وذلك أنه حينما استيقن أن كلا الفريقين قد أثخن صاحبه جعل يكتب الكتب إلى شيبان — من الربعية — ثم يقول للرسول : اجعل طريقك إلى المضرية فإنهم سيعرضونلك و يأخذون كتبك . فكانوا يأخذونها فيقرأون فيها : إنى رأيت أهل اليمن لا وفاء لهم ولا خير فيهم فلا تثقن بهم . ولا تطمئن إليهم فإنى أرجو أن يريك الله ما تحب ولئن بقيت لا أدع لهم شعراً ولا ظفراً[3] . ويرسل رسولاً آخر فى طريق آخر بكتاب فيه ذكر المضرية و إطراء اليمن بمثل ذلك حتى صار هوى الفريقين جميعاً معه . وجعل يكتب إلى كل من نصر بن سيار والكرمانى — على فرط ما بين الفريقين من عداوة — إن الإمام قد أوصانى بكم ولست أعدو رأيه فيكم . وكتب إلى الكور بإظهار الأمر فكان أول من سود فيما ذكر أسيد بن عبد الله بنسا وسود معه مقاتل بن حكيم وابن غزوان . وسود أهل أبيورد وأهل مرو الروز وقرى مرو[4] وأقبل أبو مسلم حتى نزل بين خندق نصر بن سيار وخندق جديع الكرمانى وهابه الفريقان وكثر أصحابه . فكتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد يعلمه حال أبى مسلم وخروجه وكثرة من معه ومن تبعه . وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد وختم كتابه بتلك الأبيات المشهورة :

أرى بين الرماد وميض جمر فأحج بأن يكون لها ضرام

---

(١) الدينورى ص ٣٢٤ (٢) الطبرى جزء ٩ ص ٩١ والعينى جزء ١٢ م ١ ص ١١١ .
(٣) الطبرى ج ٩ ص ٩٢ . (٤) الطبرى ٩٢/٩ ومروج الذهب للمسعودى ٢٠١/٢ .

فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب مبدؤها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعرى أأيقاظ أمية أم نيام
فإن يقظت فذاك بقاء ملك وإن رقدت فإنى لا ألام
فإن يك أصبحوا وثووا نياماً فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى على الإسلام والعرب السلام[1]

فلما وصل كتابه إلى مروان كتب إلى معاوية بن الوليد بن عبد الملك وكان عامله على دمشق ومروان حينئذ بمدينة حمص يأمره أن يكتب إلى عامله بالبلقاء أن يسير إلى الحميمة[2] فيأخذ إبراهيم بن محمد بن على فيشده وثاقاً ويرسل به إليه ، وكان إبراهيم ابن محمد قد أرسل إلى أبى مسلم خطاباً يرد فيه على كتاب أرسله أبو مسلم اليه وقد قال ابراهيم فى ثنايا هذا الخطاب بعد كلام طويل :

دونك أمراً قد بدت أشراطه إن السبيل واضح صراطه
لم يبق إلا السيف واختراطه[3]

فأتى بإبراهيم إلى مروان فلما دخل عليه قال : ماهذه الجموع التى خرجت بخراسان تطلب لك الخلافة ؟ قال له إبراهيم : مالى بشىء من ذلك علم فإن كنت إنما تريد التجنى علينا فدونك وما تريد ثم بسط لسانه على مروان فأمر به فحبس ثم قتل بعد زمن يسير[4] .

ولما قتل إبرهيم بن محمد خاف أخواه أبو جعفر وأبو العباس على نفسيهما فخرجا

---

(١) الطبرى ٩٢/٩ ، وعقد الجمان للعينى ج ١٢ م ١ ص ٨٥ ، والبيتان الرابع والخامس فى الدينورى ص ٣٤٠ والبيت الأخير فى المسعودى ج ٢ ص ٢٠٢ .
(٢) قرية بالقرب من العقبة إلى الجنوب من البحر الميت .
(٣) مروج الذهب المسعودى ج ٢ ص ٢٠٥ .
(٤) الأخبار الطوال للدينورى ص ٣٤١ ، ومروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٢٠٥ .

من الحميمة هاربين نحو العراق . ولما بلغ أبا مسلم قتل ابرهيم وهرب أخويه إلى العراق واستخفاؤهما بالكوفة عند أبي سلمة أحد أنصار هذه الدعوة سار من خراسان حتى قدم الكوفة ودخل عليهما فعزاهما بأخيهما ابرهيم الإمام . ثم قال لأبي العباس : مد يدك أبايعك . فمد يده فبايعه . وقد أوصاه أبو العباس ألا يدع بخراسان عربياً لا يدخل فى أمره إلا ضرب عنقه[1] .

ثم انصرف أبو مسلم إلى خراسان ، فجعل يدورها كورة كورة ، ورستاقا رستاقا ، فيواعدهم اليوم الذى يظهرون فيه ، و يأمرهم بتهيئة السلاح والدواب لمن قدر[2] .

وأما نصر بن سيار فإنه لما أعيته الحيل فى أمر الكرمانى وخاف من إطباق أبى مسلم عليه بقوته كتب إلى يزيد بن عمرو بن هبيرة الفزارى – عامل مروان على العراق – يستمده ويسأله النصرة على عدوه وضمن كتابه أبياتاً من الشعر فقال :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه ... وقد تبينت أن لا خير فى الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها ... بيضا لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت ... لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فإن يطرن ولم يحتل لهن بها ... يلهبن نيران حرب أيما لهب[3]

ولما أبطأ على نصر الغوث وضاق به الأمر كتب إلى مروان يبين له أن هذا الأمر الذى أزعجه من تلك الدعوة الجديدة سينمو حتى يملأ البلاد وضمن ذلك أبياتاً من الشعر وهى :

إنا وما نكتم من أمرنا ... كالثور إذ قرب للناخع

---

(١) الاخبار الطوال للدينورى ص ٣٤١ و ٣٤٢ وتعجبنى هذه الرواية من الدينورى أكثر من الروايات الأخرى التى تقول : « وان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل » . فانه لا يعقل أن يأمره بقتل جميع العرب مع أن منهم أنصاراً لهم .

(٢) الأخبار الطوال للدينورى ص ٣٤٢ .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٩٢ ومروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٢٠٣ . والدينورى يذكر تلك الأبيات بتغيير يسير على أنها موجهة لمروان لا ليزيد ، ص ٣٤٢ .

أو كالتى يحسبها أهلها عذراء بكراً وهى فى التاسع
كنا نرفيها فقد مزقت واتسع الخرق على الراقع
كالثوب إذ أنهج فيه البلى أعيا على ذى الحيلة الصانع[1]

وكما قدمنا كانت الأخطار المحدقة بنصر بن سيار عامل الأمويين لا تقتصر على جانب أبى مسلم فحسب ، بل إن الخلاف القبلى كان يلعب دوره الخطير ، وكان أبو مسلم يستغل هذا الخلاف لخدمة أغراضه ومآربه . ولقد فزع نصر حينما رأى تلك الدسائس التى يقوم بها أبو مسلم لإذكاء الفتنة بين القبائل العربية وإغراء العداوة والبغضاء بينهم ، فكتب إلى قبائل ربيعة يحذرها من التفرق والخلاف ويشجعها على التعاون والتضامن قائلا :

أبلغ ربيعة فى مرو وإخوتها أن يغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم كأن أهل الحجا عن فعلكم غيب
وتتركون عدواً قد أظلكم ممن تأشب لا دين ولا حسب
ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم ولا صميم الموالى إن هموا نسبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به عن الرسول ولاجاءت به الكتب
فمن يكن سائلى عن أصل دينهمو فإن دينهمو أن تقتل العرب

... ولكن سموم الفرقة والانقسام كانت قد سرت فى القبائل العربية فلم تحفل ربيعة بهذه الأبيات[2] .

ولما وجد نصر أن نار الفرقة والانقسام بين العرب تنمو وتشتد ، وأن قوة أبى مسلم تزداد وتعظم ما بين لحظة وأخرى ، وأدرك أن الخطر واقع لاريب فيه بعث

---

(١) المسعودى ج ٢ ص ٢٠٤ والعينى ج ١٢ م ١ ص ٨٥ ، وفى الدينورى ص ٣٤٢ بتغيير يسير .
(٢) الأخبار الطوال للدينورى ص ٣٤٤ .

إلى أبى مسلم يلتمس منه أن يدخل مع مضر [1] « وهى الهيئة الحاكمة إذ ذاك » .

ومن العجيب أن ربيعة وقحطان أرسلتا إلى أبى مسلم بمثل ذلك . وقد تراسلوا بذلك أياماً . فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين حتى يختار أحدهما ففعلوا . وأمر أبو مسلم الشيعة أن يختاروا ربيعة وقحطان فإن السلطان فى مضر ، وهم عمال مروان الجعدى . وهم قتلة يحيى بن زيد ، فقدم الوفدان . فكان وفد مضر عقيل بن حسان الليثى ، وعبد الله بن عبد ربه الليثى ، والخطاب بن محمد السلمى فى رجال منهم . وكان وفد قحطان عثمان بن الكرمانى ، ومحمد بن المثنى ، وسورة بن محمد بن عزيز الكندى فى رجال منهم . فأمر أبو مسلم عثمان بن الكرمانى وأصحابه فدخلوا بستان المحتفز وقد بسط لهم فيه فقعدوا . وجلس أبو مسلم فى بيت فى دار المحتفز وأذن لعقيل ابن معقل وأصحابه من وفد مضر فدخلوا إليه ومع أبى مسلم فى البيت سبعون رجلا من الشيعة ، فقرأ على الشيعة كتاباً كتبه أبو مسلم ليختاروا أحد الفريقين ، فلما فرغ من قراءة الكتاب قام سليمان بن كثير فتكلم وكان خطيبا مفوها فاختار على بن الكرمانى وأصحابه ، وقام أبو منصور طلحة بن رزيق النقيب فيهم وكان فصيحاً متكلما فقال كمقالة سليمان بن كثير ، ثم قام فريد بن شفيق السلمى فقال : مضر قتلة آل النبى (صلى الله عليه وسلم) وأعوان بنى أمية وشيعة مروان الجعدى ودماؤنا فى أعناقهم وأموالنا فى أيديهم .. ونصر بن سيار عامل مروان على خراسان ينفذ أموره ، ويدعو له على منبره ويسميه أمير المؤمنين ، ونحن من ذلك إلى الله براء ، وأن يكون مروان أمير المؤمنين ، وأن يكون نصر على هدى وصواب ، وقد اخترنا عليا بن الكرمانى وأصحابه من قحطان وربيعة . فقال السبعون الذين جمعوا فى البيت بقول مزيد بن شفيق . فنهض وفد مضر عليهم الذلة والكآبة . ووجه معهم أبو مسلم القاسم بن مجاشع فى خيل حتى بلغوا مأمنهم . ورجع وفد على بن الكرمانى مسرور ين

(١) الطبرى ج ٩ ص ٩٧ .

منصورين . وأمر أبو مسلم الشيعة أن يبتنوا المساكن ويستعدوا للشتاء. فقد أعفاهم الله من اجتماع كلمة العرب ، وصيرهم (أى وصير العرب) بنا إلى افتراق الكلمة ، وكان ذلك قدراً من الله مقدوراً (١) .

ومن ثنايا النص السالف تتجلى لنا مهارة أبى مسلم السياسية ، وقدرته على انتهاز الفرص ، واستغلال الظروف ، وهذا بلا شك هو أهم العوامل فى نجاح حركته وفشل أعدائه ، كما تتجلى لنا أيضاً قوة أبى مسلم وكيف وصل به الأمر إلى حد أن العرب بقبائلها المختلفة أصبحت تتملقه ، وتحاول أن تجتذبه اليها .

والذى يهمنا من ثورة أبى مسلم أنه كان للموالى ضلع كبير فى قوتها وشدة فتكها ويكفى أن نقباء الدعوة العباسية — وهى دعوة عربية — كان عددهم اثنى عشر فكان منهم خمسة من الموالى وسبعة من العرب (٢) .

وكان أهالى خراسان من السكان الأصليين يتسابقون إلى تأييد أبى مسلم ونصرته لأنه منهم ولأن غايته تتفق مع أغراضهم ، وتوافق هوى فى نفوسهم ، وفى هذا يقول الدينورى : « وانجفل الناس على أبى مسلم من هراه ، و بوشنج ، ومرو الروز ، والطالقان ، ومرو ، ونسا ، وأبيورد ، وطوس ، ونيسابور ، وسرخس ، وبلخ ، والصغانيان ، والطخارستان ، وختلان ، وكش ، ونسف .. فتوافوا جميعاً مسودى الثياب وأقبلوا فرساناً وحمارة ورجالة يسوقونها و يزجرونها هر مروان يسمونها مروان ترغيما لمروان بن محمد . وكانوا زهاء مائة ألف رجل » (٣) .

ويدلنا على قوة العنصر الأعجمى فى ثورة أبى مسلم أن قحطبة وهو أحد الدعاة لبنى العباس قد نسى أو تناسى جنسيته كعربى فخطب فى أهل خراسان ، فى إحدى

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٩٨ .
(٢) عقد الجمان للعينى ج ١٢ م ١ ص ١٢٤ و ١٢٥ .
(٣) الأخبار الطوال للدينورى ص ٣٤٣ .

حروبهم ضد الأمويين، خطاباً يرفع فيه من شأن الفرس ويغض من قيمة العرب إذ يقول :

يا أهل خراسان . هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين وكانوا ينصرون على عدوهم لعدلهم وحسن سيرتهم . حتى بدلوا وظلموا فسخط الله عز وجل عليهم فانتزع سلطانهم وسلط عليهم أذل أمة كانت فى الأرض عندهم، فغلبوهم على بلادهم واستنكحوا نساءهم واسترقوا أولادهم، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم، ثم بدلوا وغيروا وجاروا فى الحكم، وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم ليكونوا أشد عقوبة لأنكم طلبتموهم بالثأر . وقد عهد إلى الإمام أنكم تلقونهم فى مثل هذه العدة فينصركم الله عز وجل عليهم فتهزمونهم وتقتلونهم (١) .

ومهما قيل فى أمر هذه الخطبة وفى الدافع إليها فإن أقل ما تشير اليه هو غلبة العنصر الأعجمى فى ذلك الجيش . إذ لا يعقل أن تكون غالبية الجيش من العرب، ثم يواجههم قحطبة بمثل هذا الكلام .

وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقول إن الحالة فى خراسان وقت ثورة أبى مسلم كانت قد بلغت حداً كبيراً من الفوضى والاضطراب، وإن جراثيم الضعف والانحلال كانت قد سرت فى الكيان العربى فى ذلك الإقليم فاكتسب أعداء الدولة الأموية من هذا الضعف قوة كبيرة ضاعفت من حماستهم وأذكت من ثورتهم حتى وصلت إلى هذه الدرجة الخطيرة، وحتى صارت منبعاً لثورة جارفة تخطت حدود خراسان لكى تغزو العدو فى أكثر من ميدان ..

ولعل هذا يقتضينا أن نلقى نظرة سريعة على رقعة الدولة الإسلامية فى ذلك الحين لكى نرى هل كانت عوامل الفوضى والاضطراب مقصورة على خراسان أم أن الأقاليم الأخرى كانت على استعداد لقبول هذا الانقلاب وتأييده ؟

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ١٠٦ .

لقد كانت رقعة الدولة الإسلامية فى ذلك الحين قد أصابتها الفتوق ودب اليها البلى والفساد من جراء السياسة الأموية ، والخلافات القبلية ، والتيارات المتعارضة التى تنبعث دائماً من أنانية الأفراد والجماعات .. !!

فالخوارج قد قاموا بثورات عنيفة أقضت مضجع الدولة وشملت كثيراً من جهاتها ، إذ كانوا يرون أن الأمويين مفرطون فى حقوق البلاد بعيدون عن جوهر الدين الإسلامى وحقيقته . ولذا فانهم أعلنوا الحرب والجهاد ضدهم واستمر هذا الحرب والجهاد ضد الأمويين منذ أعلن الخوارج رأيهم بعد موقعة صفين إلى أن كانت نهاية الدولة الأموية ! .

ولقد أعلن أبو حمزة الخارجى رأيهم والسبب الدافع لهم على عداء الأمويين . فقال حينما هاجم المدينة سنة ١٣٠ هـ وفر منها على أثر هجومه عامل الأمويين عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملك : « يا أهل المدينة . سألناكم عن ولاتكم هؤلاء فأسأتم لعمر الله فيهم القول . وسألناكم : هل يقتلون بالظن؟ فقلتم لنا: نعم . وسألناكم : هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام ؟ فقلتم لنا : نعم . فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم نناشدهم الله إلا تنحوا عنا وعنكم فقلتم : لا يفعلون . فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم نقاتلهم فقلتم لنا: لا نقوى . فقلنا لكم : فخلوا بيننا و بينهم فإن نظفر نعدل فى أحكامكم ونحملكم على سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم فيئكم بينكم فأبيتم وقاتلتمونا دونهم فقتلناكم فأبعدكم الله وأسحقكم ».

ثم يعلن بعد ذلك عزمه على مقاومة الأمويين والضرب على أيدى مناصريهم فيقول : « وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بأيدينا ، و يشف صدور قوم مؤمنين »(١) .

وهذا الخطاب يدلنا على قوة الخوارج كحزب معارض ، و يدلنا كذلك على أن

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ١٠٨ .

شعور المسلمين بالمدينة لم يكن فى صف الأمويين ، وأن الأمويين كثيراً ما كانوا يتجاوزون حدود الدين ويرتكبون الآثام والمنكرات ، وأن المسلمين أو غالبيتهم كانوا إذا حاربوا فى صفوف الأمويين فإنما يحاربون بسيوفهم لا بقلوبهم . . ! !

وفى الشمال الأفريقى قامت ثورة البربر سنة ١٢٣ ، وكانت ثورة عنيفة جارفة بقيادة ميسرة أحد مشاهيرهم . وكان السبب فى ذلك هو سوء تصرف الولاة الأمويين إذ فرض حاكم طنجة الجزية على من أسلم منهم وعاملوهم معاملة تتنافى مع الكرامة كما يشير إلى ذلك الطبرى إذ يقول : إن بضعة عشر من البربر وعلى رأسهم ميسرة قدموا على هشام بن عبد الملك فطلبوا الإذن فلم يسمح لهم فأتوا الأبرش فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا و بجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال هم أحق به . فقلنا هو أخلص لجهادنا لأنا لا نأخذ منه شيئاً إن كان لنا فهم منه فى حل و إن لم يكن لنا لم نرده . وقالوا إذا حاصرنا مدينة قال تقدموا وأخر جنده . فقلنا تقدموا فإنه ازدياد فى الجهاد ومثلكم كفى إخوانه فوقيناهم بأنفسنا وكفيناكم . ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة فى جلد . فقلنا ما أيسر ذلك لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك . وخليناهم وذلك . .

ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا : هذا ليس فى كتاب ولا سنة — ونحن مسلمون — فأحببنا أن نعلم أعن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا ؟ قال الأبرش : نفعل . فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم كتبوا أسماءهم فى رقاع ورفعوها إلى الوزراء وقالوا : هذه أسماؤنا وأنسابنا فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه ...

ثم كان وجههم إلى أفريقية فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على أفريقية وبلغ هشاما الخبر وسأل عن النفر فرفعت إليه أسماؤهم فإذا هم الذين جاء الخبر أنهم صنعوا ماصنعوا .

ولقد قام مسلمو البربر فى نفس الوقت بثورة فى الأندلس ضد العرب ، وذلك لما رأوه من معاملة العرب الشاذة البعيدة عن روح المساواة والعدالة . . فإن البربر — كما هو معلوم — قد أبلوا فى فتح الأندلس أحسن البلاء، وتحملوا أشد الأعباء . ولكنهم على الرغم من ذلك لم ينالوا حظهم المعقول من الجزاء . . فلقد أجحف بهم العرب واعتبروهم فى منزلة أقل من منزلتهم فأعطوهم الأقاليم المجدبة الوعرة فى الشمال حيث الأخطار والأهوال، وحيث فلول الأعداء تتجمع وتتحصن فى تلك الجبال، بينما استأثر العرب بالمقاطعات الغنية الخصيبة البعيدة عن تلك الأخطار والأهوال ، لذلك أقاموا بتلك الجهات مرغمين يتحينون الفرص للحصول على حقوقهم وحرياتهم كاملة غير منقوصة . حتى إذا ما انتهوا من عملية الفتح وابتدأوا يستقرون بتلك البلاد ، شرعوا فى مناصبة العرب العداء ، وزاد من حماسهم نجاح ثورة إخوانهم التى قامت فى الشمال الإفريقى سنة ١٢٣ هـ ، وقد اعتنقوا مبدأ الخوارج حيث كان هو المبدأ الذى صادف هوى فى نفوسهم لتعاليمه الديمقراطية[١] . فقام مؤنس أحد قواد طارق بن زياد وأشعل ثورة قوية عمت الولايات الشمالية ؛ حيث توجد الأعداد الهائلة من البربر فهاجموا مجموعة من المدن الشمالية وأخرجوا من بها من العرب سنة ١٢٤هـ . ثم زحفوا جنوباً للهجوم على طليطلة وقرطبة ، وفوجىء عبد الملك بن قطن القهرى والى الأندلس بفلول العرب وقد تملكهم الذعر من هول ما أصابهم من البربر . فأعد جيشاً وأرسله للقضاء على تلك الثورة ولكنه باء بالفشل والهزيمة ، فاستعان بجند الشام الموجودين بسبته ، وبعد صراع عنيف بين الطرفين بالقرب من طليطلة هزم البربر . ولكنهم تركوا وراءهم جرحاً لا يندمل وفتقاً لا يرتق . فإن الأحقاد الكامنة فى الصدور كانت تنتهز الفرص للأخذ بالثأر والتمتع بالحرية الكاملة التى طبعت عليها نفوسهم[٢] .

---

(١) أخبار مجموعة ص ٤٢ . فتح الاندلس لابن القوطية ص ١٣ . البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٠ . فليب حتى فصل ٣٤ . نهاية الحكم الاسلامى بالأندلس للاستاذ نصار .

وفى مصر قام الأقباط بثورات عنيفة من جراء السياسة الأموية التى كانت تقسو بهم . فلقد زاد عبيد الله بن الحبحاب — متولى الخراج من قبل هشام — عليهم قيراطاً فى كل دينار ، فلم يصبر القبط على ذلك ، وقاموا بثورة عنيفة . وكانوا لا يزالون هم السواد الأعظم . وقد حاربهم المسلمون وقتلوا منهم عدداً كبيراً [1] . وكانت آخر ثوراتهم تلك الثورة التى حدثت فى ولاية عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير اللخمى سنة ١٣٢ هـ . وقد تمكن هذا الوالى من إخماد تلك الثورة ، بعد أن قتل عدداً كبيراً منهم [2] .

وهكذا كانت الممتلكات الإسلامية تغلى بالفتن ، وتموج بالأحقاد والضغائن . وهذه الأحوال المعقدة فى سائر أقاليم الدولة الإسلامية ، كانت هى طريق الأمل وباب الخير لدى أبى مسلم وأصحابه ، بينما كانت من العوامل الرئيسية فى إخفاق أعدائه .

وليس من المهم لدينا بعد أن صورنا حالة خراسان ، وحالة الممتلكات الإسلامية بصفة عامة ، ورأينا كيف كانت تلك الممتلكات وقد أثقلتها المتاعب وتهدمت فيها الروح المعنوية حتى أنها لتكاد تفتح ذراعيها لاستقبال المنقذ والمخلص .. أقول ليس من المهم لدينا بعد هذا أن نتتبع أبا مسلم فى كل خطواته وحركاته ، ولكننا نقف برهة قصيرة عند معركة الزاب — وهى المعركة التى قامت بين الخراسانيين والأمويين فى جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ وكانت هى الفاصلة فى حياة الدولة الأموية — فنرى الجيش الأموى أكثر عدداً ولكنه أضعف روحاً وأوهن عزيمة من الجيش الخراسانى الذى كان يشتعل حماساً وقوة [3] . ونرى العصبية القبلية قد أطلت برأسها البغيض وسط الجيش الأموى فأوهنت كيانه وبنيانه .. ومكنت منه عوامل الدمار والانهيار .

---

(١) الولاة والقضاة للكندى ص ٧٣ .

(٢) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن جـ ١ ص ٣١٦ ط دار الكتب الملكية . ويلاحظ أن الأقباط ليسوا من الموالى وإنما تعرضنا لثورتهم بمصر لكى نعطى للقارىء صورة واضحة عما كان يسود الممتلكات الاسلامية من اضطربات وقلاقل وإن كان بعضها ليس من الموالى .

(٣) ذكر الفخرى لابن طبا طبا ص ١٠٦ ما يدل على قوة الروح المعنوية لدى الخراسانيين وضعفها عند الأمويين .

ويصور لنا مدى تلك العصبية القبليـة فى الجيش الأموى ما يرويه الطبرى أن الخليفة مروان — حينما التقى الجمعان — قال لقضاعة : انزلوا . فقالوا : قل لبنى سليم فلينزلوا . فأرسل إلى السكاسك أن احملوا . فقالوا : قل لبنى عامر فليحملوا . فأرسل إلى السكون أن احملوا . فقالوا : قل لغطفان فليحملوا. فقال لصاحب شرطه : انزل . قال : لا والله ما كنت لأجعل نفسى غرضاً . قال : أما والله لأسوأنك . قال : وددت والله أنك قدرت على ذلك[1] .

وقد انضم إلى هـذا التفرق والتخاذل فى صفوف الأمويين ، أن الحروب المتعددة التى كانت تنشب من وقت لآخر بين الأمويين والأحزاب المختلفـة ، والتى أشرنا إليها فى مواضع متعددة من هذا الكتاب ، كانت من أهم العوامل فى إضعاف الجيش الأموى وتقويض دعائمه .. ولذا فإن هذه الموقعة قد انتهت بهزيمـة الجيش المروانى العربى ، وانتصار الجيش الخراسانى ..

ومهما يكن من شىء فقد فر مروان إلى مصر على أثر هذه الهزيمة السـاحقة حيث لحقه أعداؤه فقتلوه بقرية بوصير[2] وإذ ذاك توارى العلم الأموى الأبيض بعد أن مزقته أعاصير الفتن .. وارتفع العلم العباسى الأسود يزهو بقوته وشبابه ..وقام أبو العباس (السفاح) وقد غرق فى نشوة من النصر والظفر ممسكا بإحدى يديه بردة الخلافة ، وممسكا بيده الأخرى سيف البطش والانتقام .. وابتدأ المجتمع الإسـلامى فى مجموعه يشعر بأن الأمانى المعسولة ، والآمال المرجوة التى كان يتعلق بهـا قد ذهبت أدراج الرياح ، حتى قال محمـد ذو النفس الزكية : « لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا . فما بنو العباس إلا أقل خوفا لله منهم . وإن الحجة على بنى العباس لأوجب

---

(١) الطبرى ١٣١/٩ وقد ذكر الفخرى ص ١٠٦ ما يقرب من هذه الرواية .

(٢) قرية بالقرب من الفيوم وفى مصر سبع قرى تشترك فى هذا الاسم (قاموس الأمكنة والبقاع للاستاذ على بهجت) .

منها عليهم .. ولقد كان للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر[1] » .

وحتى قال الآخر :

يا ليت ظلم بنى مروان دام لنـا   يا ليت عدل بنى العباس فى النار

ومن الخير لنا أن نتساءل الآن عن الموالى . وهم الذين جاهدوا فى سبيل القضاء على الأمويين وكافحوا من أجل هـذا الغرض ذلك الكفاح الطويل الذى تجلى لنا فى صور مختلفة ، وألوان متنوعة . فنقول : هل حقق الموالى أهـدافهم التى كانوا يقصدونها من ذلك الكفاح الطويل ؟

لا شك أن هدفهم الكامل الذى يتمنونه ويسعون إليه ، إنما هو القضاء على السيادة العربية ، واسترجاع المجد القديم والسلطان المغتصب ، وإقامة دولة أعجمية فى مظهرها وحقيقتها . . ولكنهم على كل حال قد فازوا بالكثير من آمالهم . وقطعوا شوطاً بعيداً فى سبيل النجاح . . . فالخلفاء العباسيون مقتنعون بأن الفرس قد ساهموا فى بناء دولتهم بأوفى نصيب . حتى أن داود بن على ـ عم أبى جعفر المنصور ـ يخطب فيقول : يأهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ؛ فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوقون فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وبيض به وجوهكم . وأدالكم على أهل الشام ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام[2] الخ .

وأبو جعفر المنصور يخطب فى أهل خراسان فيقول : يا أهل خراسان . أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا[3] . ويوصى ولده المهدى قبل وفاته فيقول : وانظر مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك .. وأوصيك

---

(١) الأغانى ١٠/١٠١.   (٢) الطبرى جـ ٩ ص ١٢٧ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى جـ ٢ ص ٢٤١ .

بأهل خراسان خيرا فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ودماءهم دونك . ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم . وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم فى أهله وولده[1] .

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة التى يعترف فيها العباسيون بجميل الأعاجم وحسن بلائهم . ولذا وجد العباسيون أنفسهم مضطرين إلى رد هذا الجميل الذى قام به هؤلاء الأعاجم ، فأسلموا إليهم زمام الأمور، وأفسحوا أمامهم المجال ، وفتحوا بين أيديهم أبواب الأمل ، فبعد أن كانت الوظائف الكبرى أيام الأمويين مقصورة على العرب وكان الموالى لا ينالون من وظائف الدولة إلا النزر اليسير . . سما بهم الحظ أيام العباسيين حتى أصبح منهم الولاة والوزراء .

فأبو مسلم الخراسانى يصير واليا على خراسان ، ويصبح له من القوة والنفوذ ما يزعج الخليفة العباسى ويقض مضجعه ، حتى ليروى فى هذا الصدد أن الخليفة أبا العباس (السفاح) وجه أخاه أبا جعفر المنصور إلى خراسان وأمره أن يأتى أبا مسلم فيناظره فى بعض الأمور ووجه معه ثلاثين رجلا من وجوه القواد ، وفيهم الحجاج بن أرطاة الفقيه ، واسحاق بن الفضل الهاشمى . فلما قدم المنصور على أبى مسلم لم يبالغ أبو مسلم فى بره وإكرامه ، ولم يظهر السرور التام بقدومه . فانصرف إلى أبى العباس وقال : لست بخليفة مادام أبومسلم حياً ، فاحتل لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك ، فقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه ، ومثله لا يؤمن غدره ونكثه . فقال أبو العباس : وكيف يمكن ذلك ومعه أهل خراسان ، وقد أشرب قلوبهم حبه واتباع أمره وإيثار طاعته ؟ فقال أبو جعفر : فذاك والله أحرى ألا تأمنه فاحتل له . فقال أبو العباس يا أخى اضرب على هذا ولا تعلمن رأيك فى ذلك أحداً[2] .

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٣١٩ .

(٢) الأخبار الطوال للدينورى ص ٣٥٦ .

كما يروى أن أبا العباس قال يوماً للحجاج بن أرطاة — وقد خلا به — : ماتقول فى أبى مسلم ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول فى كتابه : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . فقال أبو العباس : أمسك لقد فهمت ما أردت[1] .

بل لقد بلغ من عظم نفوذه وقوة سلطانه أنه كان ينفذ آراءه ضد رغبات الخليفة والخليفة كاظم غيظه لايستطيع حيلة ولايجد سبيلا . ومن ذلك أن أبا مسلم وجه محمد ابن الأشعث بن عبد الرحمن أميراً على فارس ؛ ورأى أبو العباس أن يستعمل عليهما عمه عيسى بن على ، فعقد له عليها وأمره بالمسير إليها . فلما قدم عيسى على محمد ابن الأشعث أبى أن يسلم إليه ؛ فقال له عيسى : يا ابن الأشعث . ألست فى طاعة الإمام أبى العباس ؟ قال : بلى . غير أن أبا مسلم أمرنى ألا أسلم العمل إلى أحد من الناس . قال عيسى : فإنما أبو مسلم عبد للامام و إن الإمام لايرضى أن يرد أمره . قال محمد : دع عنك هذا . لست أسلم العمل إليك إلا بكتاب أبى مسلم ؛ فانصرف عيسى إلى أبى العباس فأخبره بذلك فكظم وأمر عمه بالمقام عنده فأقام[2] .

و يقول السيوطى : إن المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب . وكثر ذلك بعده حتى زالت رياسة العرب وقيادتها[3] .

وروى الطبرى أن المنصور كان له خادم ماهر لابأس به . فقال له المنصور يوماً : ما جنسك ؟ قال : عربى يا أمير المؤمنين . قال : ومن أى العرب أنت ؟ قال :

---

(١) المرجع السالف ص ٣٥٦ .

(٢) المرجع السالف ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ . ويلاحظ أنه لا يعكر على قضيتنا (وهى إثبات قوة نفوذ الموالى فى هذا العصر العباسى) ما وقع من قتل أبى جعفر المنصور لأبى مسلم . . ونكبة الرشيد للبرامكة . إلى غير ذلك . فان مثل هذه الحوادث كانت تخضع لظروف كثيرة أهمها مغالاة هؤلاء الموالى فى إضعاف نفوذ الخلفاء ، ومحاولتهم سلب السلطة من أيديهم فكان الخلفاء يضطرون إلى القيام بمثل هذه الأعمال حتى لا يفلت الزمام كله من قبضتهم .

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى .

صبيت من اليمن فأخذنى عدو لنا فجبنى فاسترقت فصرت إلى بعض بنى أمية ثم صرت إليك . قال : أما إنك نعم الغلام . ولكن لا يدخل قصرى عربى يخدم حرمى . أخرج عافاك الله فاذهب حيث شئت[1] .

ويروى أن الشاعر العربى أبا نخيلة وقف على باب أبى جعفر واستأذن فلم يصل ، وجعلت الخراسانية تدخل وتخرج فتهزأ به فيرون شيخاً أعرابياً جلفاً فيعبثون به . فقال له رجل عرفه : كيف أنت يا أبا نخيلة ؟ فأنشأ يقول :

أصبحت لا يملك بعضى بعضا تشكو العروق الآبضات أبضا
كما تشكى الأزجى القرضا كأنما كان شبابى قرضا

فقال له الرجل : وكيف ترى ما أنت فيه فى هذه الدولة ؟ فقال :

أكثر خلق الله من لا يدرى من أى خلق الله حين يلقى
وحلة تنشر ثم تطوى وطيلسان يشترى فيغلى
لعبد عبد أو لمولى مولى ياويح بيت المال ماذا يلقى[2]

ولا شك أن هذه النصوص السالفة توضح لنا كيف انقلبت الأوضاع وتبدلت الأحوال ، وكيف تغير الوضع الاجتماعى للموالى فرجحت كفتهم وارتفعت منزلتهم بعد أن كانوا — أيام الأمويين — يلاقون ألواناً مختلفة من العنت والازدراء .

ولقد تولى الوزارة — وهى أرقى مناصب الدولة — من الموالى عدد كبير ، فتولاها على عهد السفاح ، أبو سلمة الخلال مولى بنى الحارث بن كعب ، ثم تولاها خالد بن برمك جد البرامكة . وقد بلغ حظوة كبيرة لدى الخليفة ، وكان مقصد ذوى الحاجات فكثر الوافدون على بابه ، ومدحه الشعراء ، وانتجعه الناس . وكان الوافدون قبل ذلك يسمون سؤالاً . فقال خالد : إنى أستقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء . وفيهم الأشراف

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٣١٦ ، ٣١٧ . ومهما كان الدافع للمنصور على إخراجهم من قصره فإن هذه القصة تشير إلى تغلغل العنصر الأجنبى حتى فى أخص الأشياء بالخليفة .
(٢) الأغانى جـ ١٨ ص ١٤٨ ، ط الساسى .

من خولان . والأكابر فسماهم الزوار . وكان خالد أول من سماهم بذلك . فقال له بعضهم : والله ما ندرى أى أياديك عندنا أجل ؛ أصلتنا ؟ أم تسميتنا[1] ؟ .

وفى مدحه قال بشار بن برد :

أخالد لم أهبط عليك بحاجة سوى أننى عاف وأنت جواد
أخالد بين الأجر والحمد حاجتى فأيهما تأتى فأنت عماد
فإن تعطنى أفرغ عليك مدائحى وإن تأب لم يضرب على سداد
ركابى على حرف وقلبى مشيع وما لى بأرض الباخلين بلاد
إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى على سواد

وقد منحه خالد بعد أن سمع هذه الأبيات جائزة كبيرة[2] .

وقد كتب بعض الشعراء إلى خالد بن برمك فى يوم (نوروز) وقد أهدى الناس إلى خالد هدايا فيها جامات من فضة وذهب :

ما على خالد بن برمك فى الجو د نوال ينيلـــه بعزيز
ليت لى جام فضة من هـدايا ه سوى ما به الأمير مجيزى[3]

وفى عهد أبى جعفر المنصور تولى الوزارة من الموالى أبو أيوب سليمان الموريانى ثم أبو الفضل الربيع بن يونس وكانا ذوى نفوذ كبير[4] .

وهكذا ظلت الوزارة تنتقل فيهم ، أو ظلوا هم يتنقلون فى الوزارة ؛ حتى جاء عهد الخليفة الرشيد . فأسندت الوزارة إلى يحيى بن خالد البرمكى . وقال له هرون حينما قلده الوزارة : « قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الأمور على ما ترى » . ودفع إليه خاتمه[5] .

---

(١) الفخرى لابن طباطبا ص ١١٤ ، وفى كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١١٠ بتغيير يسير . (٢) الأغانى ج ٣ ص ٤٩ ، ط الساسى . وورد فى بعض الطبعات « أخالد لم أخبط إليك بذمه » أى لم أسر إليك لطلب معروفك متوسلا بعهد (٣) الفخرى ص ١١٤ .
(٤) المرجع السالف من ص ١٢٨ إلى ص ١٣١ . (٥) الطبرى ج ١٠ ص ٥٠ .

وقد بلغ يحيى بن خالد من بعد الصيت وعظم الجاه ما جعله منتجع الرواد ومقصد ذوى الحاجات . وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة :

إذا بلغتنا العيس يحيى بن خالد ... أخذنا بحبل اليسر وانقطع العسر
سمت نحوه الأبصار منا ودونه ... مفاوز تغتال النياق بها السفر
فإن نشكر النعمى التى عمنا بها ... فحق علينا ما بقينا له الشكر (١)

بل لقد بلغت أسرة البرامكة درجة من المجد والسلطان يتضاءل دونها مجد الخليفة وسلطانه . فلقد انغمسوا فى الرفاهية والترف ، وامتلكوا الضياع والقصور ، ونافسوا الخليفة فى مظاهر الأبهة والعظمة ؛ حتى ليروى أن جعفرا البرمكى بنى داراً أنفق عليها عشرين مليوناً من الدراهم (٢) بل لقد غلبوه على أمره ؛ حتى أنه طلب مرة من يحيى ابن خالد مليون درهم — وكان قد ورد من فارس ستة ملايين من الدراهم — فلم يجب طلبه . ثم أخذ يحيى مليوناً ونصفاً وفرقها فى عماله (٣) .

ولعل أصدق ما يصور لنا ذلك النفوذ العظيم هو ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته إذ يقول : إن البرامكة قد غلبوا الرشيد على أمره وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه ؛ فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم (٤) إلخ .

ومن ثنايا ما تقدم نستطيع أن نتبين مدى النفوذ الواسع الذى كان ينعم به الموالى فى ظل الدولة العباسية ، كما نستطيع أن نقارن ذلك بحالتهم فى العصر الأموى لكى نرى البون الشاسع والفارق الكبير . . ! !

وإذا كنا قد ذكرنا فيما سبق أن الشعوبية كان لها فى العصر الأموى إرهاصات ومقدمات ، فإنها الآن قد تنفست الصعداء ، إذ أصبح الأدباء والكتاب

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٣٦ .
(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٨٢ .
(٣) الوزراء والكتاب للجهشيارى .
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ١٦ و ١٧ .

من الموالى يعبرون عن آمالهم وأمانيهم ، ويفتخرون بقوميتهم وجنسيتهم فى جو طليق بعيد عن القسوة والاضطهاد الذى كان يحيطهم به الأمويون . فالصوت الشعوبى الذى كان ينبعث من مثل اسماعيل بن يسار فيقابل من هشام بن عبد الملك بالعقاب الصارم[١] أصبح الآن ينبعث من بشار بن برد أمام الخليفة المهدى فلا يعاقبه .

فيروى أن بشار بن برد افتخر بالعجم أمام الخليفة المهدى قال :

ونبئت قوما بهم جنة يقولون من ذا ؟ وكنت العلم
ألا أيها السائلى جاهداً ليعرفنى أنا أنف الكرم
نمت فى الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قريش العجم

فيسأله المهدى : من أى العجم أنت ؟ فيقول : من أكثرها فى الفرسان وأشدها على الأقران أهل طخارستان[٢] .

ثم لا يلبث بشار أن يتبرأ من ولاء العرب فيقول :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم مولى العريب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعال ومن قريش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الأجل الأكبر[٣]

بل نراه أيضا يدعو الموالى إلى نبذ ولائهم للعرب . فيروى الأغانى أن رجلا من بنى زيد قال لبشار : يابشار ، قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم فى الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء وأنت غير زاكى الفرع ولامعروف الأصل . فقال بشار : والله لأصلى أكرم من الذهب ولفرعى أزكى من عمل الأبرار ، وما فى الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه[٤] .

---

(١) راجع ص ١٠٣ من الكتاب .
(٢) الأغانى جـ ٣ ص ٢١ ،ط الساسى . وطخارستان بضم الطاء والراء كما ضبطها ابن خلكان فى ترجمة بشار ، وضبطها ياقوت بفتح الطاء .
(٣) الأغانى جـ ٣ ص ٢٢ الطبعة السالفة . (٤) الأغانى جـ ٣ ص ٥٠ .

وقال بعض العرب لبشار : ما للموالى والشعر ؟ فقال يهجو العرب :

خليلى لا أنام على اقتسار ... ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الأعراب عني ... وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزا ... ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع ... بنى الأحرار حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح ... شركت الكلب فى ولغ الإطار [1]
تريغ [2] بخطبة كسر الموالى ... وينسيك المكارم صيد فار
مقامك بيننا دنس علينا ... فليتك غائب فى حر نار
وفخرك بين خنزير وكلب ... على مثلى من الحدث الكبار [3]

وهكذا نرى ذلك التيار الشعوبى القوى يتخذ سبيله بين الأدباء والكتاب مستنداً إلى ذلك النفوذ الكبير الذى أصبح للعنصر الأعجمى فى هذا العصر العباسى [4] .

وإذا كان الموالى فى العصر الأموى قد وضعوا أساساً ضخماً فى بناء العلوم الإسلامية فإنهم فى العصر العباسى قد عملوا على إتمام هذا البناء .

وقد عقد ابن خلدون فصلا فى مقدمته بين فيه أن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من الأعاجم ، فقال : « كان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسى من بعده والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم فى أنسابهم ، وإنما ربوا فى اللسان العربى فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم ؛ وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى ؛ وكان علماء أصول الفقه

---

(١) من معاني الاطار ، ماحول البيت فلعله المراد هنا ، وأن الكلب يلغ فى المياه الراكدة حول الدور
(٢) تريغ بالغين تريد وتطلب وهو المناسب لسياق الكلام .
(٣) الأغانى ج ٣ ص ٣٣ ، ط الساسى . (٤) راجع مفاخرات الشعوبيين فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٢٧ وما بعدها ، وكتاب العقد الفريد ج ٢ ص ٦٠ — ٦٣ .

كلهم عجما — كما يعرف — وكذلك حملة علم الكلام ، وكذا أكثر المفسرين ؛ ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم . وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس[1] » .

وعقد ابن النديم فى كتابه « الفهرست » فصلا خاصا[2] جعل عنوانه أسماء النقلة من الفارسى إلى العربى .. ومن يقرأ هذا الفصل ثم يتجول بعد ذلك فى الفصول المختلفة لذلك الكتاب ، يلاحظ ذلك النشاط العلمى الفائق الذى بذلته العناصر الأعجمية فى تدعيم الثقافة الإسلامية وتقويتها .

ويتجلى لنا مما تقدم أن الموالى قد وصلوا فى ظل الدولة العباسية إلى تحقيق الكثير من أغراضهم وأهدافهم ؛ فهم فوق نفوذهم المادى قد وصلوا إلى مجد أدبى كبير كان ثمرة لنبوغهم الفكرى وتفوقهم العلمى .

على أن هناك طائفة من الموالى كانوا قد أسلموا ولما يدخل الأسلام فى قلوبهم ، وهؤلاء كان لهم غرض سيء هو تشويه الإسلام وإفساد مبادئه الحكيمة . وقد نجحوا فى تحقيق أغراضهم إلى حد كبير فظهرت تلك الفرق التى تسترت بالإسلام وهى بعيدة وغريبة عنه ؛ وقد ابتدأ ظهور هذه الفرق إبان العصر الأموى ، ثم أفرخت فى العصر العباسى وتنوعت . وكانت عامل هـــدم وتقويض فى بناء الإسلام الحصين[3] . وقد صاحب ذلك ظهور عدد من الموالى عرفوا بالمجون والزندقة والتجافى عن مبادىء الدين ، أمثال حماد عجرد ، ووالبة بن الحباب ، وعبد الله بن المقفع وغيرهم[4] .

وإذا كان الموالى قد جنوا تلك الثمرات الطيبة فى ظلال العباسيين فإن نفوسهم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٥ — ٦٣٧ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٣٤١ و ٣٤٢ .

(٣) راجع كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى من ص ٣٩ إلى ص ٥٤ (مطبعة المعارف) .

(٤) راجع كتاب تاريخ الإلحاد فى الاسلام للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٤٠ وما بعدها .

قد تطلعت إلى ما هو أسمى من ذلك فظهرت فى بعض الأقاليم نزعات انفصالية يمكن أن تعد إلى حد ما حركات قومية ترمى إلى إعادة الدولة الفارسية القديمة ، فالصفاريون والسامانيون والزيديون فى طبرستان قد أحيوا العادات والتقاليد الفارسية (١) ؛ واصطنعوا أساليب الفرس فى الحكم . بل استردت اللغة الفارسية مركزها السابق ، وبرزت إلى الوجود مستفيقة من غمرة الفتح العربى الذى أخفاها حيناً من الدهر . فصرنا نسمع بالفردوسى صاحب «الشاهنامة» وبغيره من شعراء الفرس . ولما جاءت الأسرة الصفوية فى القرن السادس عشر جعلت التشيع ديناً رسمياً للدولة الفارسية الحديثة ، واتخذ الفرس من مأساة كربلاء التى حدثت فى عهد يزيد بن معاوية عيداً مياً دينياً يحتفلون به كل عام فى العاشر من المحرم فى حفل تمثيلى رائع يخرج فيه المشاهدون عن طورهم ويفتكون أحياناً بالقائمين بدور قتلة الحسين (٢) .

ولعلنا بعد أن عرضنا تلك الصورة الخاطفة لبعض الثمرات التى اكتسبها الموالى من الدولة العباسية ، على أثر جهادهم الشاق الطويل ؛ نستطيع أن نقول — بشىء من التسامح — إنهم قد وجدوا فى ظلال العباسيين ما يجده المتخبط فى صحراء مجدبة تعصف بالسموم إذا أسلمته الأقدار إلى واحة جميلة تجرى من تحتها الأنهار ، وتتعانق فيها الأزهار والثمار ..

---

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه .

(٢) تاريخ فارس للسير برسى سيكس الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٠ جـ ١ ص ٥٤٠ . وقد ذكرنا فى ص ١٠٧ من الكتاب كيف اعتنق الفرس مبدأ التشيع .

خاتمة

الآن وقد لفظت الدولة الأموية نفسها الأخير ، وواراها أعداؤها تحت أطباق الثرى ،ثم عادوا فأقاموا على أنقاضها دولة جديدة ، نرى من الحق علينا أن نكون فى موقف الحكم المنصف بين العرب والموالى ، وأن نقضى القضاء العادل بقدر مانستطيع بين فريقين متخاصمين تعارضت أهدافهما ، واختلفت وجهة كل منهما ، وانتهى الصراع بينهما إلى انهيار فريق وانتصار الفريق الآخر .

ومن الخير لنا إذن أن نقف على الشاطىء القريب لكى نشهد ذلك الصراع العنيف بين تيارين قويين : تيار العصبية العربية ممثلاً فى الدولة الأموية ، وتيار العصبية الأعجمية ممثلاً فى الموالى من سائر الممالك التى فتحها الإسلام .

وقد رأينا أن العصبية العربية قد تنبهت فى نفوس المسلمين منذ مقتل الخليفة ابن الخطاب رضى الله عنه لأسباب تحدثنا عنها ، وأن تلك العصبية ظلت تتجه فى طريقها الإيجابى منذ ذلك الحين ؛ وإذ ذاك تغير الوضع الاجتماعى للموالى ، وساءت حالهم ، وانحدرت منزلتهم فى نفوس إخوانهم المسلمين من العرب ، وكان هذا الوضع الاجتماعى المنحدر سلاحاً فى أيدى الموالى يحتجون به على الدولة العربية الحاكمة التى تدين بالإسلام ولكنها تتجافى عن تعاليمه السامية فلا تقر مبدأ المساواة الذى أعلنه الإسلام فى وضوح وصراحة كما ذكرنا فيما سبق .

فهل كان الأمويون على خطأ فى مثل هذا السلوك مع الموالى ؟

وإلى أى حد كانت الأضرار التى لحقت الأمويين من جراء هذا السلوك ؟

أما عن السؤال الأول فنحن لا نستطيع أن نتجنى على الدولة الأموية فنكيل لها التهم جزافاً ونلصق بها المثالب والعيوب دون مبرر أو مسوغ . ونحن مع ذلك لا نستطيع أن نبرئها من الأخطاء والعيوب كما حاول بعض المؤرخين المحدثين من أمثال شبلى نعمان فى نقده لكتاب تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان . لا نذهب أيضاً إلى مثل هذا الرأى لأن الوقائع التى أجمعت عليها المصادر الموثوق بها تتجه إلى غير هذا الاتجاه[1] .

ولكنا سنقف موقفاً فيه كثير من الحذر والاحتياط حتى يكون حكمنا أقرب إلى الصواب بقدر ما نستطيع .

أما منطق الدولة الأموية فإنه يتلخص فى أنها لم تكن لتستطيع يوماً أن تنسى أنها دولة فاتحة جاهدت فى سبيل هذا الفتح ، وأفنت الأموال والأرواح لتحقيق تلك الغاية ، وأقامت فوق أكداس الضحايا هذا الملك الشامخ البناء الواسع الأرجاء ، وكانت ظروفها العصيبة تتطلب منها إغداق الأموال لإرضاء الخصوم الذين يناصبونها العداء والشحناء ، ويتربصون بها الدوائر .

فالخوارج قد ابتدأ عداؤهم للأمويين منذ استجاب على بن أبي طالب لدعوة الداعين لتحكيم القرآن بين أنصار على وأنصار معاوية ، وظل هذا العداء على قوته

---

(١) كتب الشيخ شبلى نعمان كتابا سماه انتقاد كتاب التمدن الاسلامى لجورجى زيدان وهو يدافع فى هذا الكتاب عن الأمويين ويتعصب لهم إلى أوسع الآماد ، وإن من يقرأ فى هذا الكتاب من ص ١ إلى ص ٤٤ يتجلى له روح التحيز الشديد للعرب وللأمويين حتى أنه يرفع عنهم كل عيب ، ويبرئهم من العصبية العربية ، ويستدل على ذلك بذكر طائفة من علماء الموالى كانوا فى عهد الأمويين موضع التقدير والاجلال . ثم يقول فى ص ١٣ « ويظهر مما مر عليك أن الموالى كانوا فى أيام بنى أمية بأعلى محل من الشرف والمكانة وكانت العرب تذعن لهم وتقدمهم وتقتدى بهم وترفع شأنهم » .

ولا شك أن القارئ قد رأى أننا فى الفصل الثانى من الكتاب قد ضربنا الأمثلة الكثيرة التى تدل على احتقار العرب للموالى ثم استثنينا من ذلك من كان يعرف من الموالى بصلاحه وتقواه أو بعلمه وأدبه ..

الإيجابية فانقلب إلى ثورات جائحة روعت الدولة الأموية حتى آخر عهدها[1].

والعلويون الذين يعتقدون أحقية على وذريته من بعده فى الخلافة كانوا شجى فى حلق الدولة الأموية وطالما عملوا على تقويضها فى ظروف مختلفة[2].

وأنصار ابن الزبير الثائر على الخلافة الأموية كانوا عنصراً من عناصر الشغب والاضطراب وقد ذهب ضحية لثوراتهم أرواح كثيرة وأموال طائلة من كلا الفريقين المتحاربين[3] ... إلى غير ذلك من تلك الظروف الملتوية التى صاحبت الأمويين منذ فجر حياتهم إلى أفول شمسهم . . ! !

وكان الموالى فى ظل تلك الظروف الملتوية يتجهون فى الغالب إلى الطرف المعادى للدولة الحاكمة . لأن سياسة الدولة المالية كانت لاتحقق أمانيهم فى المساواة التى ينشدونها من حكومة مسلمة . وقد رأينا فى تلك الثورات المتعاقبة التى تحدثنا عنها في الفصل الأخير من الكتاب كيف كانت أعدادهم الهائلة تحارب فى صفوف أعداء الدولة الأموية لكى تقضى على السيادة العربية وتقيم على أطلالها سيادة أعجمية ..

ومن المعقول أن الدولة الأموية كانت لا تستطيع أن تحفظ كيانها فى مثل هذا الجو العاصف إلا ببذل الأموال من ناحية ، واستعمال العنف والقسوة من ناحية أخرى . وإذا كان إيراد الدولة يتوقف على كثرة الخراج والجزية وهما أهم الأركان فى تدعيم ميزانيتها فقد كان من الصعب عليها أن توفق بين توفير الأموال وبين السير وفق المبادئ الإسلامية التى تقضى برفع الجزية عن كل من أسلم ، وبتخفيض الخراج إلى العشر فى كثير من الحالات كما أسلفنا ذلك من قبل[4] . ولذا فإن الحجاج ومعظم الذين جاءوا بعده من الولاة قد صعب عليهم أن يسيروا وفق المنهاج الذى رسمه

---

(١) راجع ص ٤٨ ، ٤٩ من الكتاب .
(٢) راجع ص٤٩ ، من الكتاب ، وثورة المختار الثقفى ص١٠٧ والدعوة العباسية ص١١٢ ومابعدها
(٣) راجع ص ٤٩ من الكتاب .
(٤) راجع ص ٥١ من الكتاب

الإسلام فى تلك النواحى المالية التى هى أهم الأسس فى حياة الدولة . ويدلنا على مبلغ احتياجهم للأموال أنهم كانوا أحياناً يفرضون على العرب ضرائب خاصة لامبرر لها . كما فعل محمد أخو الحجاج إذ فرض على اليمن خراجاً سماه الوظيفة ، وظلت هذه الوظيفة جاثمة على صدورهم حتى ألغاها عمر بن عبد العزيز .. إلى غير ذلك مما تعرضنا للكثير منه(١) .

أما عن الاحتقار والازدراء ، وسوء المعاملة ، ونظرة السخط والكراهية التى كان يجدها الموالى من العرب ومن الأمويين بصفة خاصة ، فيستطيع الأمويون أن يعللوا ذلك بأن الغالبية من هؤلاء الموالى لم تكن تؤمن بالإسلام إلا إيماناً ظاهراً وأن الديانات القديمة التى ورثوها عن آبائهم ، كانت مسيطرة على نفوسهم إلى حد كبير جعلهم ينفثون السموم الفتاكة التى تفيض بها نفوسهم ، محاولين تشويه الإسلام والغض من قدره .

وكان بعض الموالى يتسببون أحياناً فى خلق روح الكراهية والعداء من الأمويين نحوهم . وإن من يقرأ قصة الحجاج الثقفى وسعيد بن جبير يتجلى له كيف كان الحجاج يحسن معاملة ابن جبير حتى خرج عليه مع ابن الأشعث فيمن خرج من أعدائه فاضطر إلى معاقبته كخارج على الدولة . وقد ذكر المبرد فى كتابه الكامل : أن الحجاج لما قبض على سعيد بن جبير على أثر خروجه عليه مع ابن الأشعث قال له : « يا شقى بن كسير . أما قدمت الكوفة وليس يؤم بها إلا عربى فجعلتك إماماً ؟ قال : بلى . قال : أفما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا لا يصلح القضاء إلا لعربى فاستقضيت أبا بردة ابن أبى موسى الأشعرى وأمرته ألا يقطع أمراً دونك ؟ قال : بلى . قال : أوما جعلتك فى سمارى وكلهم من رءوس العرب ؟ قال بلى . قال : أو ما أعطيتك مائة ألف درهم لتفرقها فى أهل الحاجة ثم لم أسألك

---

(١) راجع ص ٥٦ من الكتاب .

عن شيء منها ؟ قال : بلى . قال فما أخرجك على ؟ قال : بيعة كانت لابن الأشعث فى عنقى . فغضب الحجاج . ثم قال : أفما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك فى عنقك من قبل ؟ والله لأقتلنك ... يا حرسى اضرب عنقه » .

ولقد كانت قصة المجد القديم ومحاولة إرجاعه فكرة مختمرة فى نفوسهم ؛ حتى لقد ظهرت منهم روح الحنين إلى سلطان آبائهم وأجدادهم وتغنوا بذلك فى شعرهم ... فيقول اسماعيل بن يسار مولى بنى تيم المتوفى سنة ١١٠ هـ :

إنما سمى الفوارس بالفر   س مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركى الفخر يا إمام علينا   واتركى الجور وانطقى بالصواب
واسألى إن جهلت عنا وعنكم   كيف كنا فى سالف الأحقاب ؟
إذ نربى بناتنا وتدسو   ن سفاهاً بناتكم فى التراب[1]

وكان هذا الفخر منهم ممزوجاً بالبغض والكراهية للعنصر العربى . وإن كانوا يخفون ذلك فى ظروف خاصة .

ويروى فى هذا الصدد أن إسماعيل بن يسار أيضاً استأذن فى الدخول على الغمر ابن يزيد بن عبد الملك يوماً . فحجبه الغمر ساعة ثم أذن له فدخل يبكى . فقال له الغمر : مالك يا أبا فائد تبكى ؟ فقال وكيف لا أبكى وأنا على مروانيتى ومروانية أبى أحجب عنك ساعة ؟ فجعل الغمر يعتذر إليه وهو يبكى فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر . وخرج من عنده فلحقه رجل فقال : أخبرنى ويلك يا إسماعيل أى مروانية كانت لك أو لأبيك ؟ فقال: بغضنا إياهم ... امرأته طالق إن لم تكن أمه تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح . وإن لم يكن أبوه حضره الموت فقيل : قل

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١١٩ .

لا إله إلا الله فقال : لعن الله مروان تقرباً بذلك إلى الله تعالى و إبدالا له من التوحيد و إقامة له مقامه[1] !

فهذه القصة تدلنا بلا شك على روح العداء التى كانت مستقرة فى نفوس الموالى والتى كانت تظهر حيناً وتختفى أحياناً تحت تأثير الظروف والمناسبات . ولذا كان من السهل على كل ثائر أن يحرك أشجانهم و يوجههم لمحاربة الدولة الأموية لأنه كان يصادف منهم نفوساً حانقة متهيئة للاشتعال ، متحفزة للثورة والقتال . فكانت الدولة الأموية إذن فى موقف تمليه الحكمة والحزم ؛ فهى مضطرة إلى حفظ كيانها من عدوان المعتدين وثورات الخارجين ؛ والتراخى فى مثل هذه الأحوال يزيد الشر و يقوى الخطر .

وفيما عدا ذلك فإن الأمويين بل والعرب جميعهم كانوا يحترمون من الموالى من يعرف بصلاحه وتقواه وعلمه ؛ وقد رأينا عند كلامنا على « الموالى والحركة الفكرية » كيف كان العلماء ورجال الدين من الموالى يتمتعون فى المجتمع العربى بكثير من الحظوة والإجلال .

وأما منطق الموالى فيعتمد فى ظاهره على حجة قوية هى أن الشرع الإسلامى قد أعلن المساواة بين الناس فى وضوح وصراحة . فقال الله فى كتابه « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فلم يفرق بين عربي وأعجمى . وما يروى فى سبب نزول هذه الآية من أنه لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً حتى أذن على ظهر الكعبة . فقال عتاب بن أسيد بن أبى العيص : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لم ير هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً ؟ وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئاً يغيره . وقال أبو سفيان : إنى لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء . فأتى جبريل عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١١٩ .

قالوا فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء(١) .. إلى غير ذلك من نواحى المساواة الكاملة والعدالة الشاملة التى جاء بها هذا الدين .

وإذن فمن حق الموالى — وهم مسلمون — أن يتمتعوا بكل شيء يمكن أن يتمتع به إخوانهم المسلمون من العرب ، فكيف يتجافى الأمويون عن هذه المبادىء فيعاملون الموالى بالشدة والقسوة ويتجاهلون حقوقهم المشروعة التى أوجبها الدين فيما يتعلق بالنواحى المادية والأدبية ؟ وإذا صح أن يتجاهل العرب تلك الفوارق الكبيرة التى كانت بينهم وبين تلك الشعوب الأعجمية قبل أن يفتح الإسلام بلادهم ، وإذا ساغ لهم أن يتناسوا أن تلك الشعوب الأعجمية كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الرقى والمدنيــة ، بينما كان العرب يسبحون فى ظلام حالك من الفوضى والهمجية . . حتى لقد اعترف بذلك سليمان بن عبد الملك نفسه فقال : « عجبت لهؤلاء الأعاجم ملكوا ألف سنة فلم يحتاجوا إلينا ساعة . وملكنا مائة سنة فلم نستغن عنهم ساعة(٢) » . فليس أقل من أن يقف الموالى مع العرب على قدم المساواة ، وعلى الأخص إذا كانت هذه المساواة من الأمور التى رغب فيها الإسلام وأمر بها ..!!

والواقع أن الدولة الأموية وقد صاحبتها تلك الظروف القاسية التى أشرنا اليها كانت فى موقف من أدق المواقف وأخطرها ، وليس من العقل أن يتهمها إنسان بأن سياستها مع الموالى سياسة خاطئة بإطلاق هذه الكلمة . وإنى أطالب أولئك الذين يسرفون فى تخطىء الأمويين ويوجهون اللوم العنيف لسياستهم بأن يتتبعوا تاريخ القافلة البشرية منذ عرف التاريخ إلى العصر الذى نعيش فيه ، فإنهم سيرون الأمويين لم يخرجوا

---

(١) أسباب النزول للواحدى .

(٢) زبدة النصرة ونخبة العصرة للامام عماد الدين الأصفهاني ج١ ص٥٧ . ومقال للاستاذ فيت .

فى سياستهم عن ذلك النطاق الذى رسمه المستعمرون فى معـاملة مستعمراتهم ، بل إنهم كانوا فى درجة أقرب إلى الرحمة و إلى تحقيق العدالة من غيرهم .

و إذا قارنا بين الدولة الأموية والدولة العباسية فإنا نرى الأمويين لم يرتكبوا من الفظائع مع محكوميهم كما فعل العباسيون ، حتى لقد اعترف بذلك بعض العلويين فقال : « لقد كنا نقمنا على بنى أمية ما نقمنا . فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم . و إن الحجة على بنى العباس لأوجب منها عليهم . ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر[1] » .

وإنا نلتمس العذر لهؤلا الأمويين إذا ما قصروا فى تحقيق المساواة التى أوجبها الإسلام ولا سيما إذا نظرنا إلى الدول الكبيرة فى عصرنا الحاضر ، والتى زعمت فى أكبر حربين عرفتهما الإنسانية أنها إنما تحارب فى سبيل الديمقراطية والمساواة ؛ ثم تكون النتيجة بعد انتصارها على هذه الأسس أنهـا تتخلص من هذه المبادئ وتعود إلى سياسة التفرقة فى المعاملة بين الأجناس والأمم المختلفـة على الرغم مما أبلته هذه الأمم من بلاء حسن فى صف تلك الأمم الداعية إلى هذه المبادئ .

و إنا نظن أن موقف الموالى ليس بأسـوأ من موقف أهالى المستعمرات وأبناء الشعوب الملونة غير الأوربية . و إن ما يحدث لهؤلاء فى استراليا وفى جنوب أفريقية وفى الولايات المتحدة لما يدل على أن الدول الغربية لا يزال أمامها المدى فسيحاً حتى تحقق المساواة المنشودة والديمقراطية التى تزعم أنها تعمل بها .

فاليابانيون لا يحق لهم أن يهاجروا إلى استراليا على الرغم من الشوط الكبير الذى قطعوه فى اصطناع المدنية الأوربية . فأى مساواة هـــذه التى تقصر قارة من قارات الدنيا الست على بضعة ملايين من البيض يستأثرون بها دون غيرهم ؟

والهنـود والزنوج فى جنوب أفريقيـة يلاقون من الإنجليز والبوير كل عنت

(١) الأغانى ج ١٠ ص ١٠١ ط الساسى .

واضطهاد لا لشيء إلا لأنهم شعوب محكومة . حتى أن هذه الاضطهادات كانت هي المدرسة الأولى التي تعلم فيها الزعيم الهندي الكبير غاندي ، لكي يتجرد عن هذه المدنية الأوربية الزائفة ويعلن تلك الحرب الروحية الشعواء التي كشفت عن نفاق الاستعمار الحديث ، وأكسبت غاندي إعجاب المؤمنين بالمبادىء الإنسانية العالية .

وناهيك بما يلاقيه الزنوج في الولايات المتحدة من عنت البيض و إرهاقهم . إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي يضيق بها الحصر والتعداد .

وليس معنى هذا أننا نقر سلوك الأمويين في تخطيهم حواجز الدين في بعض الأحيان ولكننا نقارن بين سياستهم وسياسة غيرهم من الأمم . ونضع الجميع في ميزان النقد البريء ليعرف كل ماله وما عليه ...

وقد كان الأجدر بالموالي الذين ثاروا في العصر الأموي من أجل تحقيق المساواة والعدالة أن يتمسكوا بهذا المبدأ في العصر العباسي الذي أصبح لهم فيه النفوذ والسلطان، ولكننا نجد الآية قد انعكست أو كادت تنعكس إذ أصبح الكثير من العرب يعاني العنت والإرهاق من الولاة والموظفين من الأعاجم، وأصبحت معظم الوظائف الكبرى في أيدي الموالي ، بينما كان الأولى بهم أن يتعظوا بما أصاب الأمويين قبلهم، ولكنهم استغرقوا في نشوة من الظفر فانحرفوا عن مبدأ المساواة ، وجرفهم تيار الأنانية كما جرف من سبقهم .

ولم يحدث أن ظفرت الإنسانية بأناس مثاليين يرسمون برنامج الإصلاح ثم يطبقونه بحذافيره ولا يحيدون عنه .. لم يحدث ذلك إلا في أوقات قليلة [1]، ثم تعود الأنانية إلى مجراها الطبعي في نفوس الناس .

وأما عن السؤال الثاني وهو مدى الأضرار التي لحقت الدولة الأموية من جراء عصبيتها العربية وسلوكها مع الموالي هذا المسلك العدائي الذي تعرضنا له فيما سبق، فإني

---

(١) لعل في تاريخ الرسول وخليفتيه أبي بكر وعمر ما يؤيد ذلك إلى حد كبير

أعتقد أن موقف الأمويين من الموالى ليس هو السبب الحاسم فى هدم الدولة الأموية، وأفترض أن الموالى لو كانوا يعاملون على أساس المساواة الكاملة والإنصاف الشامل فإن العرب من غير الأمويين كانوا سيستجيبون لعصبيتهم العربية ، ويثورون على الدولة الأموية ، وينقمون عليها أنها تسوى بين السادة والأتباع ولا تفرق بين العربى والأعجمى . ويتجلى لنا هذا فى ثورة المختار الثقفى فإنه حينما خرج على الدولة الأموية وانضم إليه العرب والموالى ، تألم العرب حينما رأوا المختار يسوى بينهم و بين الموالى فى العطاء ، وكان هذا الصنيع من أهم الأسباب فى غضبهم عليه ، وقالوا له : « عمدت إلى موالينا وهم فىء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعا فأعتقنا رقابهم نأمل الأجر فى ذلك والثواب والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا فى فيئنا » . إلى غير ذلك مما تعرضنا له بإسهاب فى الفصل الخاص بحالة الموالى الاجتماعية . .

وأفترض أيضا أن الموالى لو لم تكن هناك عصبية عربية فإنهم كانوا سيستجيبون لعصبيتهم الأعجمية ، وسينتبه فى نفوسهم الحقد على الدولة الأموية (العربية). وسينظمون حركاتهم للقضاء على السيادة العربية ، وإرجاع سيادتهم القومية .

ويدلنا على ذلك ما رأينا فى ثورة المختار من تألم الموالى حينما رأوا المختار يقبل بوجهه على العرب .. ومن فرحهم واستبشارهم حينما عدل من موقفه أمامهم ، وتظاهر لهم ببغض العرب فقال « إنا من المجرمين منتقمون » ويقصد بذلك العرب .. فإنهم قد قال بعضهم لبعض : أبشروا كأنكم به والله قد قتلهم [1] . إلى غير ذلك مما تعرضنا له أثناء كلامنا عن « إرهاصات الشعوبية ، وعن ثورات الموالى » .

وأفترض أكثر من ذلك كله . أنه لو لم يكن هناك موال، وكانت الرقعة الإسلامية كلها من العرب ، فإن العصبية القبلية كانت ستقضى حتما على الدولة الأموية لتقيم مقامها دولة هاشمية أو عباسية . . وقد رأينا فى الفصل الثانى من الكتاب [2] أمثلة

(١) راجع ص ١٠٨ من الكتاب . (٢) راجع ص ٢٩ وما بعدها من الكتاب .

متنوعة توضح لنا مدى الأضرار التى كانت تنشأ عن العصبية القبلية .

والواقع أن هناك أسباباً كثيرة قد اجتمعت لإسقاط الأمويين ، ولا نستطيع أن نتبين أعظم هذه الأسباب أثراً وأشدها خطراً ، وإن كانت ثورات الموالى هى السبب المباشر الذى أعقبته نهاية الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية .

وبعد فإن تنازع البقاء قد فرض على الإنسانية أن تظل فى صراع عنيف وتطاحن مستمر ، ولن يستقيم العالم أو يسود الهدوء والصفاء فيه إلا بكبح جماح النفوس ، وإحكام عقالها عن الانزلاق فى مهاوى الأنانية .

وفى الحق أن النظرية الإسلامية فى سياسة العالم كفيلة بالقضاء على آلام الإنسانية وتحقيق آمالها فى الحياة الهادئة ، والمعيشة الراضية المطمئنة . ولقد اعترف بذلك أعداء الإسلام أنفسهم ، وحسبنا أن نقتبس تلك الكلمة من تقرير المعهد الملكى البريطانى للشئون الدولية :

« لقد استطاع الإسلام أن ينشئ بناء اجتماعياً راسخاً متجانساً أمكنه أن يتغلب به على الفروق الجنسية والقومية، وإن النزعة الإسلامية العالمية قد مكنت الإسلام من أن ينأى عن المشاكل السياسية المعقدة[1] » .

ولا غرو فالإسلام لم يدع إلى المساواة قولاً فحسب ، ولكنه يدعو إليها عملياً كل يوم خمس مرات، وذلك فى الصلاة التى تنمحى فيها الفوارق المادية المصطنعة ، إذ يقف المسلمون جميعاً جنباً إلى جنب دون تمييز بين حسيب أو وضيع ، غنى أو فقير[2] .

فإذا هيأ الله للانسانية قوة تنفذ مبادئ الإسلام، وترغم الناس على اتباعها ، أمكن أن تجف الأرض من الدموع والدماء ، وأن تهدأ نار البغضاء والشحناء ، لكى تشرق السعادة فى أفق الدنيا ، ويعيش الناس فى جو مزدهر بالأمن والسلام .

---

(١) تقرير المعهد الملكى البريطانى للشئون الدولية . لندرة ١٩٣٩ ص١٤٧، ١٤٨ .

(٢) كتاب النظام الجديد للعالم . ط لاهور ١٩٤٢ للعالم الهندى المسلم مولانا محمد على ص٤٤ وما بعدها .

تذييل – ١

الإسلام والرق

عرف الفقهاء من المسلمين الرق بأنه عجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر . . أما أنه عجز فلأن الرقيق لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما ، وأما أنه حكمى فلأن العبد قد يكون أقوى فى الأعمال الحسية من الحر . .

وعرفه الأفرنج بأنه حرمان الشخص من حريته الطبيعية وصيرورته ملكا للغير[1] . . وأنت ترى أن تعريف الأفرنج للرق أوسع دائرة ، يتناول من يؤخذ نهباً وسلباً ، ومن يؤخذ من عرض الطريق كما كان يفعل النخاسون ، ومن يؤسر فى حرب مشروعة ، وغير مشروعة من الحروب التى يكون مبعثها البغى والعدوان والمنافسة والغيرة . . . وتعريف الفقهاء لا يتناول إلا من يؤخذ أسيراً فى حرب مشروعة مبعثها الدفاع عن الدين والوطن وقد ضرب الإمام عليه الرق . .

ولما كان الكلام حول هذا الموضوع متشعب النواحى والأطراف رأيت أن أحصر الكلام عليه فى أربع نقط وهى :

(١) مصدر الرق ومنبعه (٢) تدرج الإسلام فى إلغائه (٣) حقوق الرقيق (٤) موازنة بين موقف الإسلام وغيره من الرقيق .

١ — مصدر الرق ومنبعه :

الإنسان مدنى بالطبع . وتدعوه حالته المعيشية إلى من يعاونه فى كل ما يحتاج إليه . . ولذا تسلط قويه على ضعيفه وسخره فى أعماله وحاجاته . . و بتوالى الأيام وتولد الأطماع وكثرة الحروب ، صار الناس لا يقتلون العدو وإنما يبقون

(١) كتاب الرق فى الاسلام لشفيق باشا ص ٧ .

عليه يسخرونه فى أعمالهم ويستغلونه كما تستغل الآلة أو الماشية — لذلك كان الاسترقاق قديماً ومنبثاً فى جميع أجزاء العالم .

ولقد حدت الأطماع البشرية بالناس إلى الإكثار من الاسترقاق . فلم تقف أطماعهم عند حد الاسترقاق فى الحروب فحسب ، بل تجاوزوا ذلك إلى طرق تأباها الانسانية وتنفر منها الطباع السليمة — فاليونان كانوا يتلصصون فى البحار فيخطفون من يصادفهم ممن يكونون على الشواطيء والسواحل فيصبح هؤلاء المختطفون أرقاء مستعبدين[1] .. والرومانيون كانوا يسترقون المدين الذى لم يتيسر له الوفاء بما عليه من دين فيصبح المدين رقيقاً للدائن[2] .

وكانت المقامرة تخرج بالمولعين بها إلى حد أنهم يقامرون على نسائهم وأولادهم بل وعلى حرياتهم الشخصية فكان ذلك عند الجرمانيين (الألمان) مصدراً من مصادر الرق[3] .

وكانت الفاقة عند بعض الأمم ، كالصين مثلا ، مصدراً من مصادر الرق فكان الفقر يؤدى بصاحبه إلى أن يرمى بنفسه فى أحضان الغير فيبيع نفسه وأولاده إليه . وهذا كله فضلا عن الحروب التى كانت الأمم تشنها على من تطمع فيهم ظلما وعدوانا . فكانت تصبح البلاد التى تكون لهم الغلبة عليها جزءاً من بلادهم وأهلها عبيد لهم . من أجل ذلك كثرت مصادر الرق واتسعت موارده وانتشر أيما انتشار فى كل العصور وعند كل الأمم . ولقد جاء الإسلام فوجد الرق على هذا النحو السالف من الكثرة والانتشار فوقف بإزاء تلك المشكلة موقف الأناة والحزم . . فلم يلغه مرة واحدة لئلا تهيج الأفكار وتثور الخواطر ، وينهدم ركن هام تقوم عليه حياة الأسر والأمم ، فضلا عما يتعرض له الرقيق إذا ألغى الرق طفرة من الجوع والعرى والضياع .

---

(١) الرق فى الاسلام ص ١٩. (٢) نفس المرجع ص ٢٣. (٣) نفس المرجع ص ٣١.

كذلك لم يبقه على حالته التى وجده عليها لأن ذلك يتنافى مع أصوله ومبادئه التى تجعل بنى الانسان سواء فى الحرية وتنظر إليهم كأبناء جنس واحد لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض علي أسود وإنما الفضل بالتقوى ومكارم الأخلاق إذ يقول الله عز وجل: « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1] » .. ثم لم يسلك الإسلام بالرقيق أحد المسلكين السابقين منعا لتلك المفاسد، ولكنه اتخذ طريقا وسطا لا يحدث فى العالم انقلابا أو فوضى، وتتحقق معه الحرية ولو على سبيل التدريج. وسنرى فيما سنبينه بعد أنه طريق ناجح فى إنضاب معين الرق وتقويض دعائمه.

فالإسلام قد حارب الرق من ناحيتين. فوقف أولا فى سبيل مصادره ومنابعه، ثم وضع الحواجز أمام سيله المتدفق بقدر الإمكان، وبذلك حصره فى حدود ضيقة يمكننا أن نتبينها إذا قارنا بين تعريف الأفرنج للرق، وبين تعريف الفقهاء المسلمين له.. وهذه الحدود هى أن يكون الرقيق أسير حرب مشروعة مبعثها صد البغى والعدوان وإعلاء كلمة الاسلام، وأن تكون الحرب بين المسلمين وغيرهم، فلو كانت بين المسلمين بعضهم مع بعض فلا يكون الأسير رقيقا. وألا يكون وقت أسره مسلما. وأن يضرب الإمام عليه الرق، فلو من عليه وأطلق سراحه أوقبل منه الفداء فلا يكون رقيقا. وألا يكون قد قبل الجزية والتزم أحكام المسلمين. فالذمى لا يكون رقيقا ما دام ملتزما ذلك العقد الذى أبرمه مع المسلمين.

وبهذا انحصرت دائرة الرق فى مصدر واحد مقيد بتلك القيود السالفة..!!

أما الناحية الأخرى أو السلاح الآخر الذى حارب الاسلام به الرق فهو ما تتضمنه النقطة الآتية: —

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣

٢ — تدرج الإسلام فى إلغاء الرق :

ومع كل القيود المتقدمة التى وضعها الإسلام فى سبيل الاسترقاق فإنه لم يترك ذلك الذى وقع فى حظيرة الرق سجيناً طيلة حياته لا يجد لنفسه منفذاً ولا باباً يخرج منه إلى تلك الحرية المحبوبة التى خص الله بها بنى الانسان ، بل فتح له الأبواب والمسالك لكى ينفلت من قيود الرق ويتخلص من أغلاله . فكان من جمال التشريع الإسلامى وحسنه أنه ماترك وسيلة من الوسائل فى سبيل حرية المملوك إلا حث عليها ورغب فيها مراعياً فى ذلك حالة السيد وما تتطلبه نفسه ، مع اختلاف فى المشارب ، وتباين فى الأغراض والمقاصد ...

فبينما نجد شخصاً مقصده الأسمى الثواب من الله أو البر بالوالدين أو تكفير جريمة وقعت منه كجريمة القتل الخطأ ولا يبالى مايتطلبه ذلك من تضحية بمال فشرع له الإسلام ضمن ما شرع فى ذلك عتق الرقبة ... إذ نجد آخر يرغب فى الثواب فى الآخرة وفى الوقت نفسه يحرص على أن ينتفع بعبده مدى حياته فرسم الاسلام له طريقاً يحصل منه على غرضيه ، وذلك بالتدبير أو الاستيلاد إن كان الرقيق أنثى .. !!

وبينما نجد إنساناً يحرص على المال فى الدنيا ويريد ألا يحرم من الثواب الأخروى فرسم له الشارع المكاتبة ، إذ نجد آخر يضن بعبده أن يكون حراً ، ويعامله معاملة قاسية من تمثيل به أو ضرب مبرح فيعاقبه الشارع بعتقه عليه جزاء معاملته القاسية .

كذلك إذا حلف على عتق مملوكه أو نذر ذلك أوجب الإسلام عليه العتق إذا حنث والوفاء بما نذر ... وسنتحدث الآن عن الطرق والمسالك التى شرعها الاسلام لتخليص الرقيق من ظلام الرق ، واخراجه إلى نور الحرية .

... فمن الطرق المؤدية إلى ذلك أن تنطلق تلك الكلمة السهلة من السيد لمملوكه « أنت حر أو عبدى حر أو عتيق أو ما أشبه ذلك من كل مايؤدى هذا المعنى » يحفزه إلى ذلك ويرغبه فيه ماورد من النصوص فى فضل العتق وجزيل الثواب عليه

إذ يقول الله تعالى : « فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة [1] » . وعن البراء ابن عازب قال : « جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : علمنى عملا يدخلنى الجنة . قال : اعتق النسمة وفك الرقبة . قال : أو ليسا واحداً ؟ قال : لا ، عتق النسمة أن تفرد بعتقها . وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها [2] إلخ » .

وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه [3] » .

وقد جعل الاسلام من مسالك العتق ملك ذى الرحم المحرم براً به و إحساناً إليه . روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يجزى ولد عن والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه [4] » . وروى عن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ملك ذا رحم محرم فهو حر [5] » . وظاهر هذا الحديث أنه لا فرق بين أن يكون المالك بالغاً أو صبياً ، عاقلا أو مجنوناً ، مسلماً أو كافراً فى دار الاسلام بأى سبب من أسباب الملك المشروعة من شراء أو هبة أو ميراث أو نصيبه من الغنيمة . وحكمة التشريع فى ذلك هى أن بقاء ذى الرحم المحرم فى يد قريبه مذل له مفسد للعلاقات التى يجب أن تكون بين الأسرة قائمة على أمتن ما يكون مدعمة بدعائم المحبة والوئام .

وفى كفارة القتل الخطأ أوجب الاسلام عتق الرقبة فيقول تعالى : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » . والتحرير الاعتاق . والرقبة النسمة كما عبر عنها بالرأس فى قولهم فلان يملك كذا رأساً من الرقيق . والمراد برقبة مؤمنة كل رقبة كانت على حكم الاسلام . والقتل الخطأ ما كان من غير قصد كأن يرمى كافراً فيصيب مسلماً ، أو يرمى شخصاً يظنه حربياً فإذا هو مسلم .

---

(١) سورة البلد بالجزء الثلاثين (٢) مصابيح السنة للامام البغوي جـ ٢ ص ٤٦

(٣) صحيح مسلم جـ ٩ ص ١٥١ ، نيل الأوطار للشوكاني جـ ٦ ص ٢٠٥ .

(٤) الشوكاني جـ ٦ ص ٢٠٣ . (٥) نفس المرجع والصفحة والجزء .

جعل الشارع قبول توبة ذلك القاتل فى التكفير عن هذه الجريمة بعتق رقبة مؤمنة جزاء له على عدم تحريه وحيطته .. وكأن الحكمة فى ذلك هى أنه لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفسا مثلها فى جملة الأحرار لأن اطلاقها من قيد الرق كاحيائها من ناحية أن الرقيق ممنوع من تصرف الأحرار .. ولم يبح الإسلام العدول عن التكفير بعتق الرقبة إلا إذا لم يجد سبيلا إليها بأن كان لايملك رقبة ولا يتيسر له شراء عبد .. وإذذاك أباح له الشارع أن يكفر بالصوم حيث يقول : «فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين[1]» .

وإذا ظاهر رجل من امرأته بأن قال لها أنت على كظهر أمى فإنه يحرم عليه الاستمتاع بها ولايحل له ذلك حتى يكفر بعتق رقبة . وهذا مايفيده قوله تعالى : «والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة[2]» .. وظاهر الآية يدل على أن الرقبة لا يشترط فيها الإيمان فالرقبة الكافرة تجزى فى كفارة الظهار فيكون ذلك أظهر فى دعوة الإسلام للحرية فى المسلم والكافر على السواء..ولا يعدل عن عتق الرقبة متى وجد سبيلا لذلك كما فى كفارة القتل الخطأ حيث يقول تعالى « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا»

ومن أقدم على جريمة الوطء فى نهار رمضان وهو عامد وجبت عليه الكفارة وهى عتق رقبة . لحديث سلمة بن صخر الأنصارى ، قال : هلكت يارسول الله . قال وما أهلكك ؟ قال وقعت على امرأتى فى رمضان .. قال هل تجد ماتعتق ؟ قال لا .. قال هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال لا . قال هل تجد ماتطعم ستين مسكينا ؟ قال لا . ثم جلس . فأتى النبى عليه الصلاة والسلام بعرق فيه تمر فقال تصدق بهذا. فقال على أفقرمنا ؟ فمابين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منى . فضحك رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى بدت أنيابه ثم قال اذهب فاطعمه أهلك .

---

(١) سورة النساء آية ٩٢ (٢) سورة المجادلة آية ٣

وقال عليه السلام : «من أفطر فى رمضان فعليه ما على المظاهر » . فكلمة من فى الحديث الأخير عامة تشمل الذكر والأنثى سواء أكان الإفطار بجماع أو بغير جماع من أكل وشرب عمدا .

.. وبهذا أخذ الأحناف ، كما أنهم قالوا إنها ككفارة الظهار يلزم فيها الترتيب لا يعدل عن العتق إلى ما بعده إلا إذا لم يكن للعتق سبيل أخذاً من الحديث الأول . . ويرى الشافعية أن هذه الكفارة لا تكون الا بسبب الجماع فى نهار رمضان فحسب ، وأما غيره من المفطرات فليس بموجب لهذه الكفارة كما هو صريح الحديث الأول . ويحملون الحديث الثانى على الأول . وإنما وجبت الكفارة بالفطر فى رمضان جزاء التهاون فى الدين والإقدام على هتك حرمة هذا الشهر الكريم .

والحنث فى اليمين المنعقدة موجب للكفارة وهى إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يأكل أو كسوتهم . أو تحرير رقبة . . واليمين المنعقدة ما كان الحلف فيها بالله أو صفة من صفاته وصاحبها قصد ونية .. وقد خير الشارع فى كفارة اليمين بين الأمور السالفة تيسيراً للعباد ورحمة بهم . وقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام « إن الدين يسر » .

ومن طرق التحرير ما أباحته الشريعة الإسلامية من زواج الحرة بالرقيق . إذ أن أولادها يتبعونها فى الحرية . والقاعدة الشرعية فى ذلك هى أن الولد يتبع أمه فى الرق والحرية . كما أنه يتبع خير الأبوين ديناً . والأمة إذا تزوجت حراً فإن أولادها يتبعونها فى الرق . وكأن حكمة الشارع فى ذلك أن ولدها لو كان حراً لحجر السيد عليها وعضلها عن الزواج . وفى ذلك تعريضها للبغاء . والله تعالى يقول « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً[1] » . على أن زوجها لا يعدم السبيل لتحرير أولاده كأن يشتريها فتصبح أم ولد .

(١) سورة النور آية ٣٣

ومن رحمة الإسلام بالرقيق وكمال عنايته به أن جعل جزاء السيد هو عتق عبده إذا مثل به أو آذاه بغير حق . والأصل فى ذلك حديث جريج أن زنباعاً أبا روح وجد غلاماً له مع جارية له فجدع أنفه وجبه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من فعل هذا بك ؟ قال زنباع . فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال ماحملك على هذا ؟ قال كان من أمره كذا وكذا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب فأنت حر . فقال يا رسول الله فمولى من أنا ؟ قال مولى الله ورسوله[1] .. وروى أن رجلاً أقعد أمة له فى مقلى حار فأحرق عجزها فأعتقها عمر وأوجعه ضرباً . وروى عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه[2] .

وقد جعل الشارع من أسباب التحرير الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام . فإذا هرب العبد الأجنبي من بلاده وجاء إلى المسلمين وأسلم نال حريته . لذلك كان كثير من العبيد فى بلاد الكفر يفرون من بلادهم ملتجئين إلى الإسلام رغبة فى نيل الحرية . وقد حدث فى واقعتى الطائف والحديبية أن التجأ عدد كبير إلى معسكر المسلمين فصرح النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم عتقى[3] .

والعتق فى الأحوال السالفة يكون منجزاً لا تأخير فيه ولا إبطاء . وهناك نوع آخر يسمى العتق المعلق .. ومن الطرق المؤدية اليه :

«النذر» : فمن نذر لله عتق رقبة إذا شفى من مرضه أو قضى الله حاجته وجب عليه الوفاء بما نذر إذا ما تحقق شرطه وتم غرضه ..

و«التدبير» : وهو تعليق العتق بمطلق موته كأن يقول السيد لعبده أنت حر بعد موتى أو دبرتك .. وهو قربة لأنه يقصد به العتق . ويعتبر من ثلث التركة سواء وقع من السيد فى حالة الصحة أو المرض . للحديث المروى عن ابن عمر أن النبي صلى الله

---

(١) الشوكانى ج ٦ ص ٢٠٥ . (٢) نفس المرجع ج ٦ ص ٢٠٦ .
(٣) الرق فى الاسلام لشفيق باشا .

عليه وسلم قال : « المدبر من الثلث » فهو كالوصية وكالعتق إذا وقعا فى مرض الموت فإنهما يخرجان من ثلث التركة . فإن لم يكن للسيد مال سواه طلب من العبد السعى لتحصيل قيمة الثلثين ، كما أنه يسعى فى جميع القيمة إذا كان السيد مديناً ديناً يستغرق كل التركة . ومن أحكامه أنه لايباع ولا يوهب ولايورث ولا يرهن ولكن يستخدم ويؤجر . لحديث ابن عمر أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المدبر لا يباع ولا يوهب ولا يورث وهو حر من الثلث[1] » .

والعتق على صفة : ومثال ذلك أن يقول لعبده إذا بشرتنى بخبر سار فأنت حر . لأنه عتق على وجود صفة فجاز كالتدبير .. فإن قال ذلك فى المرض فهو من ثلث المال ، وإن قال ذلك فى حالة الصحة فهو من رأس المال سواء وجدت الصفة فى حالة الصحة أو فى حالة المرض ..

والاستيلاد : وهو طلب الولد من الأمة . ولو كانت الأمة مشتركة بينه وبين غيره ، أو ثبت له الملك فيها مآلا كما لو ولدت بنكاح ثم ملكها .. أو وطىء الأب جارية ابنه فولدت فادعاه الأب فهذه الأمة تصبح بذلك أم ولد تعتق بموت سيدها . والأصل فى ذلك ماروى عن ابن عباس رضى الله عنه عن الرسول عليه الصلاة والسلام قال « من ولدت منه أمته فهى حرة من بعد موته » .. وتعتق من رأس المال لأنه إتلاف حصل بسبب الاستمتاع[2] .. ويملك السيد وطأها واستخدامها وإجارتها وتزويجها لأنها باقية على ملكه . وإنما تثبت لها الحرية بعد موته .. ! !

والمكاتبة : وقد جعلها التشريع الإسلامى سبيلاً من سبل العتق أيضاً . وهى عقد بين السيد والعبد بلفظ الكتابة أو ما يؤدى معناها كأن يقول لعبده كاتبتك على مائة دينار . أو جعلت عليك ألفاً تؤديها إلى نجوماً أول نجم كذا وآخره كذا .. فإذا

---

(١) المهذب فى فقه الشافعية باب العتق جـ ٢ .
(٢) المهذب فى فقه الشافعية جـ ٢ ص ٢٠ .

قبل العبد ذلك انعقدت الكتابة .. والأصل فى ذلك قول الله تعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً [1] » . وقد حبب الإسلام فى الكتابة ، بل أمر بها حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرب أنس بن مالك بالدرة حينما امتنع عن مكاتبة عبده سيرين بعد [2] .. ولا تجوز الكتابة إلا من جائز التصرف فى المال لأنه عقد على مال .. ويملك المكاتب بعقد الكتابة اكتساب المال بالبيع والاجارة والصدقة والهبة والأخذ بالشفعة وغير ذلك من كل تصرف فى المال يعود لمصلحته ومصلحة ماله .. وأخيراً إذا أدى بدل الكتابة عتق . وإن عجز حتى ولو كان عن آخر نجم من نجوم بدل الكتابة بقى عبداً . لما روى عمرو بن شعيب رضى الله عنه عن أبيه عن جده أن النبى عليه الصلاة والسلام قال « المكاتب عبد ما بقى عليه من كتابته درهم [3] » . ولأنه علق عتقه على دفع مال فلا يعتق منه شىء مع بقاء جزء من المال .. وحرصاً على تخليص رقبة المكاتب جعل الشارع معاونته على أداء ما عليه من البر فقال تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله... إلى قوله وفى الرقاب [4] » أى وفى معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم. وقد عاون رسول الله عليه الصلاة والسلام السيدة جويرية رضى الله عنها فى الكتابة وتزوجها . وإن هذا لقليل من كثير من النصوص الواردة فى فضل معاونة المكاتب على فك رقبته مما يدل على مبلغ تشوف الإسلام إلى تحرير العبد بأية وسيلة ..!!

فأنت ترى كيف تدرج الإسلام فى إلغاء الرق بما شرعه من الوسائل المتقدمة ، وكيف عالج مشكلة الرقيق فحلها بما يتفق ومصلحة السيد ومملوكه . وبذلك أسدى الى الانسانية يداً بيضاء يقدرها خصومه قبل أصدقائه ، ويدين بها العالم على مدى العصور .

---

(١) سورة النور آية ٣٣ (٢) من الشوكانى ص ٢١٩ جـ ٦ .
(٣) من الشوكانى ص ٢٦٧ جـ ٦ . (٤) سورة البقرة آية ١٧٢

٣- حقوق الرقيق :

ومع كل ما تقدم ، لم يترك التشريع الإسلامى المملوك الذى لم تتح له وسيلة من وسائل التحرير يعامل كما كان يعامل من قبل بل شمله بالرعاية والعناية ، وجعل له حقوقاً تتجلى فيها الرحمة الكاملة والعطف الشامل . . وحسبنا أن نضع بين يدى القارىء تلك الأحاديث كى تتجلى لنا رحمة الإسلام بالرقيق وعنايته بأمره ..!!

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « للملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق[1] » .

وكان آخر ما أوصى به الرسول أن قال : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله فإنه ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم[2] » .

وقال عليه الصلاة والسلام إخوانكم خولكم[3] جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس » . وقال « لا يدخل الجنة خب[4] ولا متكبر ولا خائن ولا سيء الملكة » .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يذهب إلى العوالى كل يوم سبت فإذا وجد عبداً فى عمل لا يطيقه وضع عليه منه . ويحدثنا التاريخ أيضا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه جاء إلى بيت المقدس ومعه غلامه ولم يكن معهما إلا ناقة واحدة فكانا يركبانها على التناوب إلى أن اقتربا من تلك المدينة وكانت النوبة للغلام فأركبه الخليفة وسعى خلفه ماشيا على قدميه حتى وصلا . ولم يثنه عن الرحمة بالضعيف أبهة الخلافة ومركزها العظيم ، ولم تأخذه فى الشفقة به لومة لائم . ولذلك

(١) الإحياء للغزالى ص ٤٩ ج ٤ . (٢) الإحياء للغزالى ص ٥٠ ج ٤ .
(٣) الخول العبيد . فمعنى الحديث أن عبيدكم كإخوانكم فيجب أن يعاملوا على هذا الأساس .
(٤) الخب الخداع الخبيث . وسيء الملكة هو سيء معاملة المماليك .

قال لأبي عبيدة لما قال له : « إنى أراك تصنع أمراً لايليق فالأنظار متجهة نحوك » .
« قد كنا أذل الناس وأقل الناس فأعزنا الله بالأسلام . ومهما نطلب العزة بغيره يذلنا الله[1] » .

وإنه ليبهرك ويملك زمام نفسك ماتراه فى مبادىء الإسلام من مبلغ العفو عن المملوك والغض عن هفواته ومقابلة ذلك بالإحسان إليه — فقد روى ابن عمر أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كم نعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله ، ثم قال : اعف عنه فى كل يوم سبعين مرة[1] . وهذا كناية عن كثرة العفو . وكان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة فعثرت وأراقتها على رأس سيدها . فقال يا جارية أحرقتنى . قالت : يامعلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى . قال وماقال الله تعالى ؟ قالت قال : والكاظمين الغيظ . قال : قد كظمت غيظى . قالت : والعافين عن الناس . قال : قد عفوت عنك . قالت : زد فإن الله تعالى يقول : والله يحب المحسنين . قال : وأنت حرة لوجه الله تعالى[2] .

وقد رفع الإسلام من شأن الرقيق حتى فى مخاطبته ومناداته فنهى عن تحقيره وإشعاره بما هو فيه من الاستعباد . فقد روى عن الرسول أنه قال « لا يقل أحدكم عبدى أمتى .. وليقل فتاى وفتاتى » . وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا الله فى الضعيفين : المملوك والمرأة » . وقال : « لقدأوصانى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لاتستعبد ولا تستخدم » . وقد نهى الشارع عن التمثيل بالمملوك وإيذائه . روى عن أبى حمزة الصيرفى قال: جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم صارخا. فقال له النبى : مالك؟ قال : سيدى رآنى أقبل جارية له فجب مذا كيرى

---

(١) ص ٧٨ من كتاب الرق فى الاسلام لشفيق باشا .
(٢) الاحياء جـ ٦ ص ٥٠ . (٣) نفس المرجع والجزء والصفحة .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على بالرجل فطلب فلم يقدر عليه . فقال رسول الله : اذهب فأنت حر[1] . وعن أبي مسعود قال : كنت أضرب غلاما بالسوط ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام . . . قلت يا رسول الله هو حر لوجه الله فقال : لو لم تفعل للفحتك بالنار[2] .

وقدأباحت الشريعة الإسلامية نكاح الرقيق فقال تعالى : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات[3]) . وقال (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله[4]) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعتق أمة ثم تزوجها كان له أجران »[5] . وقد جعلت الشريعة للسيد تمام الحرية فى أن يزوج مماليكه لمن يشاء من الأحرار والأرقاء ، ولم تجعل له الحق فى التفريق بعد الزواج . كما أنها جعلت له الحق فى أن يفترش أمته بشرط ألا يجمع بين الأختين ولا بين البنت وأمها والبنت وعمتها والخالة وابنتها وغير ذلك من كل ذى الرحم المحرم .. وقد جعل الإسلام للعبد نصف ما للحر فى عدد الزوجات وعدد الطلقات كما جعل عـدة الأمة والمدبرة وأم الولد والمكاتبة حيضتين إن كانت من ذوات الحيض ، ونصف الزمن المقدر للحرة إن لم تكن من ذوات الحيض ، ووضع الحمل إن كانت حاملا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان » ، ولأن الرق منصف والطلقة والحيضة لايتجزآن . وفى الحدود راعى الإسلام نهاية الرحمة والشفقة بالرقيق فجعله على النصف من الحر . قال تعالى : « فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب[6] » والمحصنات يقصد بهن فى الآية الحرائر . فيجلد الرقيق سواء أكان

---

(١) الشوكاني جـ ٦ ص ٢٠٥ . (٢) الشوكاني جـ ٦ ص ٢٠٦ . (٣) سورة النساء آية ٢٥
(٤) سورة النور آية ٣٢ (٥) الشوكاني جـ ٦ ص ٢٠٥ . (٦) سورة النساء آية ٢٥

ذكرا أم أنثى خمسين جلدة فى جريمة الزنا . وأما الرجم فيعفى منه الرقيق لأنه لا يتنصف ، ولأنه تعلق به حق السيد، فلو رجم لفات حقه . وفى حد القذف يجلد الرقيق أربعين جلدة ويجلد فى شرب المسكر عشرين جلدة ، أى على النصف من الحر . . فأنت ترى أن الاسلام قد شمله بالرحمة حتى جعل عقابه على النصف من عقاب الحر . وذلك أنه فاقد الحرية فقد يمنعه سيده عن الزواج الذى به يعصم نفسه . وقد لا يمكنه من كل ما تشتهيه نفسه فيقع فى السرقة . فنظر الإسلام إلى كل هذه الظروف وشمل الرقيق بعين الرحمة الخالصة .

ولم يغفل الاسلام أمر تعليم الرقيق وتهذيبه بل رغب فى ذلك وحث عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له جارية فعلمها وأحسن إليها وتزوجها كان له أجران » . وكأن الإسلام بعد أن بسط على الرقيق جناح رحمته وعامله تلك المعاملة الحسنة ، لم يشأ أن يتركه يتخبط فى ظلمات الجهالة ، بل مهد له طريق العلم والنور حتى يصير عضواً نافعاً فى جسم المجتمع . وقد رأينا عند الكلام على الحالة الاجتماعية للموالى كيف كان العلم يسمو بصاحبه ويغنيه عن شرف الأصل والنسب . .

وفى ظل ما تقدم نستطيع أن نقرر أن الإسلام قد جعل للرقيق حقوقاً لم يكن يحلم بمثلها فى وقت من الأوقات . ولعل ذلك من الأسرار التى حببت الإسلام للنفوس وساعدت على انتشاره ونموه وازدهاره .

٤ — موازنة بين موقف الإسلام وغيره من الرقيق :

سنورد الآن بعض أمثلة يسيرة توضح لنا كيف كانت منزلة الرقيق عند غير المسلمين وكيف كانت معاملته عندهم ، لكى نستطيع على ضوء ذلك أن نوازن بين موقف الإسلام وغيره .

ففى الهند : كان يعامل الرقيق معاملة قاسية نزلت به إلى درجة أقل من درجة

الحيوان الأعجم . ذلك أن شريعة « مانى » جعلت الناس طبقتين : طبقة دنيئة (مستخدمة) وطبقة عليا .. ومن أحكامها أنه إذا اضطهد أحد رجال الطبقة الدنيئة أحد رجال الطبقة العليا فلا مندوحة من قتله ، وإذا سب واحداً فجزاؤه سل لسانه . وإذا وجد منه ازدراء وضع فى فمه خنجراً طوله عشر أصابع بعد إحمائه فى النار، وإذا نصح إلى أحد أفراد الطبقة العليا بما يتعلق بواجبه فإن الملك يأمر بوضع الزيت المغلى فى فيه وفى أذنه . وإذا سرق أحد رجال الطبقة العليا من الدنيئة عوقب بالغرامة . وإذا كان بالعكس عوقب بالإحراق ، وبالطبع هؤلاء لاسبيل إلى تحررهم وخروجهم من ربقة الاسترقاق(١) .

والیونان : على الرغم من كثرة الفلاسفة فيهم لم يكن من بينهم من اعتبر الاسترقاق منافياً للعدالة ومكارم الأخلاق مع مشاهدتهم ما يقع عليهم من صنوف العذاب وأنواع القسوة المتجاوزة حد الإنسانية . وقد أيد أرسطو مشروعيته فعرف الرقيق بأنه « آلة ذات روح أو متاع قائمة به الحياة » ، ثم قسم الجنس البشرى إلى قسمين أحرار وأرقاء بالطبع . وقد كانت معاملتهم للرقيق غاية فى الشدة والقسوة ، يستخدمونه لأنفسهم أو لنفسه نظير أجر يدفعه كل يوم ، كما كانوا يعاقبونه بالجلد بالسوط والطحن على الرحى لأوهى الأسباب ، وكانوا يكوون الآبق على جبهته بالحديد المحمى فى النار(٢) . إلى غير ذلك .

والرومان : كانوا يعاملون الرقيق معاملة من أسوأ المعاملات ومن ذلك أنهم كانوا يستعملونه فى مشاق حراثة الأرض وزراعتها وهو مكبل بالسلاسل والأغلال ، كما كان يجلد بالسياط ويعلق من يديه وتربط الأثقال فى رجليه . وروى عن بعض أباطرة الرومان أنه كانت له فرقة موسيقية من المماليك فرأى أن يبتر سواعد الضاربين على الآلة المسماة (الترومبيتا) وأن تربط مضاربها فى أعضادهم لأجل ألا يتكلفوا ثنى

(١) الرق فى الاسلام لشفيق بالشا ص ١٠ ، ١١ .
(٢) الرق فى الاسلام ص ١٨ وما بعدها .

أذرعهم وهم يضربون عليها . وكانوا يخصون العبيد الذين يرغبون فى خدمة نسائهم غير مبالين بموت من يموت فى سبيل ذلك . ولقد روى عن بعضهم أنه كان يبقر بطن عبده ليضع فيها رجليه خشية البرد . وكان بعضهم يلقى الرقيق للسمك يأكله ليزكو لحمه(١) .

وأما العرب فى الجاهلية فكانوا بصفة عامة أحسن بكثير من غيرهم في معاملة الرقيق ... فكانوا يستعملونه فى رعى الماشية حسبما تتطلبه معيشتهم ، وفى خدمة المنازل قليلا لأن غيرتهم كانت تمنعهم من التمكين لهم فى المنازل . وكانوا يصحبونهم معهم فى التجارة وفى الحروب وشن الغارات لحاجتهم إليهم فى معاونتهم ، كما أنهم كانوا يفترشون الإماء ويسترقون من يولد لهم منهن ، وإذا ظهرت ملامح النجابة على أحد منهم استلحقوه بنسبهم وإلا بقى على حالته . ومن أمثلة ذلك عنترة العبسى فهو ابن جارية ولكن والده شداداً استلحقه به لما ظهرت نجابته وشجاعته .. وكانوا فى بعض الحالات يعتقون العبد إذا أظهر شجاعة مكافأة له ، كما كان التدبير معروفاً عند بعضهم مكافأة للعبد على إخلاصه فى خدمة سيده ! .

وأظن أن القارئ الكريم بعد أن بسطنا بين يديه مبادئ الإسلام ونظريته إزاء معاملة الرقيق وحل مشكلته ، وبعد أن سردنا أمامه تلك الأمثلة المتنوعة من معاملة الأمم الأخرى ومبادئهم فى هذا الصدد — قد أتيحت له فرصة المقارنة والموازنة وأصبح فى حل من إكبار موقف الإسلام والاعتراف بجميله الخالد على الإنسانية . .

ولكى تتمكن تلك الموازنة فى ذهن القارئ يحسن بنا أن نورد كلمة مختصرة على سبيل الاستنتاج مما ذكرنا قبل ذلك ..

فأولا : حصر الإسلام مصدر الرق فى أمر واحد وهو أن يكون الرقيق أسير

(١) الرق فى الاسلام ص ٢٤ وما بعدها ، ومجلة نور الاسلام العدد الخامس من المجلد الخامس مقال لفريد وجدى ١٣٥٣ هـ .

حرب مشروعة ضرب الإمام الرق عليه ، ومبعث هذه الحرب صد عدوان الكافرين و إعلاء كلمة الدين . وعند غيره مصادره كثيرة متنوعة : فمن سرقة من على شواطئ البحار ، ومن خطف فى الطرقات ، ومن فقر يرمى بصاحبه إلى الأغنياء فيسترقونه ، ومن أسير حرب قد يكون مبعثها البغى والعدوان وقد يكون غير ذلك مما أدى إلى كثرة الرقيق عندهم إلى حد كبير تبعاً لمنابعه الكثيرة وسيله الغزير ! .

وثانياً : شرع الإسلام فى شأن ذلك الرقيق سبلا متنوعة لتحريره من عتق وتدبير ومكاتبة وغير ذلك مما أوضحناه سابقاً ومما لم نتعرض له خشية التطويل الممل ، مما أدى إلى إقامة حواجز منيعة أمام سيل ذلك المنبع الوحيد ... وعند غيره كانوا يمسكون على الرقيق رغماً من مصادره الكثيرة وسيله الجارف ، ولا يجعلون له سبيلا للتخلص من الرق إلا فى بعض حالات نادرة عند بعض الأمم لا تنهض أن يكون لها أثر يذكر .

وثالثاً : رسم الاسلام لذلك الرقيق الذى لم يتح له القدر سبيلا من سبل التحرير مراسيم المواساة فى المعاملات من حسن رعايته فى مأكله وملبسه وتعليمه وتهذيبه والرفق به والعطف عليه إلى غير ذلك ، مما جعل الأجنبى يتطلع إلى تلك المزايا العظيمة وليس أدل على ذلك من أولئك الذين كانوا يفرون من دار الكفر إلى دار الإسلام فيحتضنهم الإسلام منادياً بأنهم عتقى أحرار .

وعند الأمم الأخرى كانوا يسومون الرقيق أنواع العذاب ، ويعتبرون الأرقاء آلة من الآلات التى سخرت لمصالحهم ، فينالون من الخسف والعسف ما يشعرهم بأنهم خارجون عن طور الإنسانية .

ومن الخير لنا أن نتعرض لتلك الكلمة القيمة التى ذكرها العلامة جوستاف لو بون فى كتابه الذى سماه حضارة العرب إذ يقول : « إن لفظة الرق إذا ذكرت

أمام الأوربى الذى اعتاد تلاوة الروايات الأمريكيـة المؤلفة من ثلاثين سنة ورد على خاطره استعمال هؤلاء المساكين المثقلين بالسلاسل المكبلين بالأغلال المسوقين بضرب السياط الذين لا يكاد يكفى غذاؤهم لسد رمقهم ، وليس لهم من المساكن إلا محبس مظلم » . إلى أن قال : « وإنما الذى أراه صدقا لاريب فيه هو أن الرق عند المسلمين غيره عند النصارى ، وأن حال الأرقاء فى الشرق أفضل من حال الخدم فى أوربا ..

ولم تكن زمرة المماليك التى ملكت مصر زمنا طويلا من غير الأرقاء . وقد اشترى على بك وابراهيم بك ومراد بك الجبار الذي هزم فى معركة الأهرام . فى أسواق النخاسة . .

وليست مصر القطر الوحيد الذى يعامل فيه الأرقاء بالرفق والحسنى . فما تراه فى مصر ترى مثله فى كل بلد خضع للاسلام[1] » .

---

(١) حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون ص ٤٠٣ ، ٤٠٥ ترجمة عادل زعيتر .

تذييل - ٢

أحكام الولاء فى الإسلام

جاء الإسلام والولاء منتشر بين العرب فى الجاهلية يتصرفون فيه حسبما توحى اليهم ضمائرهم ، لا يعتمدون فى ذلك على قانون سماوى ولا دستور وضعى قام على أساس سليم وروعيت فيه مصلحة الطرفين المولى : ومموليه .

فكان من الضرورى والخير ألا يهمل الإسلام تلك الرابطة والصلة التى بين المعتِق والمعتَق المسماة بالولاء . وكذلك تلك الصلة التى تكون بين المتحالفين المسماة أيضاً بالولاء . وكيف يهملها أو يتغاضى عنها وهى صلة نصرة ومحبة ؟ والإسلام كما نعلم يدعو إلى المحبة والتعاون لأنهما من المبادئ الهامة التى تقوم عليها نهضة الأمم وسيادة الشعوب ... ولذا فإنه اعتبر الولاء كالنسب إبقاء عليه وتنمية له فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « الولاء لحمة كلحمة النسب »[1] .

ولا شك أن هذا المعنى كان من الأسباب الهامة التى حببت الإسلام إلى النفوس وشجعت الكثيرين على الانضواء تحت رايته .

ألا ترى إلى موقعة الطائف فى السنة الثامنة من الهجرة حينما استعصت على المسلمين فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً يقول : أيما عبد نزل فهو حر وولاؤه لله ورسوله[2] ، فنزلت جماعة كبيرة كانت عوناً للمسلمين فى نجاحهم والظفر بأعدائهم ... إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة المتنوعة .

---

(١) نيل الأوطار للشوكانى ج ٦ ص ١٨٨ . (٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢ .

وقد قرر الإسلام من الولاء نوعين :

الأول : ولاء العتاقة الذى سببه العتق قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « الولاء لمن أعتق »[1] .

الثانى : ولاء الموالاة الذى سببه التعاقد . قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « إن مولى القوم منهم وحليفهم منهم » . والمراد بالحليف مولى الموالاة لأنهم كانوا يوثقون الموالاة بالحلف وذلك كأن يأتى رجل لآخر، فيقول له : أنت مولاى ترثنى إذا مت وتعقل عنى إذا جنيت ، فيقول له : قبلت[2] . وقد كثر نوع مولى الموالاة بعد الإسلام لأن الإسلام أعز العرب ورفع من شأنهم حتى صـاروا سادة وأصحاب شوكة وقوة فكان أهل البلاد الأخرى يحتمون بهم ويتحالفون معهم .

وقد جعل التشريع الإسلامى لهذين النوعين من الولاء أحكاماً خاصة نرى من الخير أن نعرض لبعضها .

١ ـ ولاء العتاقة :

إذا عتق العبد بأى طريق من الطرق التى ذكرناها عند الكلام على « تدرج الإسلام فى إلغاء الرق »[3] كان ولاؤه لسيده ، إذ هو الذى منحه الحرية ، فهو ولى نعمته ، وولى نعمته أحق وأولى بولائه دون غيره . ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « الولاء لمن أعتق » ومعنى ذلك أن الولاء لمن أعتق لا لمن شرطه لنفسه من بائع أو موصى أو واهب أو نحو ذلك كما كانت تفعل العرب فى الجاهلية فى بعض الأحيان ...

ويترتب على هذا الولاء أثران عظيمان ، الأثر الأول : أن السيد يدفع الدية عن

---

(١) فتح البارى ٥ ــ ٢٥٨ .

(٢) المبسوط للسرخسى جـ ٣ ص ٣٨ ، ٤٥ .

(٣) راجع ص ١٥٤ من الكتاب .

مولاه إذا جنى جناية. والحكمة فى ذلك أن المعتق ينتصر بمعتقه . ولذا قرر الفقهاء فى باب الديات أن حكمة ضم العاقلة [1] إلى الجانى فى الدية ، أن الجانى ما جراه على ارتكاب جريمته إلا انتصاره بعشيرته ، فكانت عاقلته مقصرة فى تركها مراقبته فضمت إليه فى الدية دون غيرها .

والأثر الثانى : الإرث . فيرث السيد معتقه على أساس أنه عصبة له سببية . إذ السيد قد أحياه معنى بإزالة الرق عنه ، ألا ترى أنه بالعتق يثبت له كثير من الأحكام والحقوق لم تكن له من قبل كتولى القضاء والشهادة والسعى إلى الجمعة والخروج إلى صلاة العيدين . فكان ذلك إحياء معنى ، ومن أحيا غيره معنى ورثه ، كالوالد فيصير الولاء كالولاد ، والولاد يوجب الإرث فكذلك الولاء ، ولأن السيد يغرم دية المولى فيرثه حيث أن الغنم بالغرم [2] .

وإنما يرث المعتِق مولاه إذا لم يكن للمولى عصبة نسبية كالأب أو العم مثلاً . وكذلك إذا لم يكن له ورثة من أصحاب الفروض قد استغرقوا كل تركته وإلا فهم أولى من المعتق بذلك [3] .

٢— ولاء الموالاة :

وذلك كأن يقول رجل لآخر: ليس لى عشيرة ولا ناصر وإنى أنضم إليك وإلى عشيرتك فتنصرنى وتدفع عنى نوائبى وإن مت كان ميراثى لك فينعقد بينهما عقد موالاة .

وقد اعترف الإسلام بهذا النوع من الولاء فقال رسول الله صلى عليه وسلم : « إن مولى القوم منهم وحليفهم منهم » . والمراد بالحليف مولى الموالاة لأنهم كانوا يؤكدون الموالاة بالحلف .

---

(١) العاقلة هى الأهل والعشيرة .

(٢) تكملة فتح القدير للكمال بن الهمام فقه حنفى جـ ٧ ص ٢٨٣ .

(٣) المهذب فى فقه الشافعية ص ٢٣ .

وقد آخى النبى صلى الله وسلم بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس بن مالك بعد الهجرة — وكانوا تسعين رجلا نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار — آخى بينهم على النصرة فى الحق والمواساة والتوارث ... وقد بذل الأنصار فى ذلك جهدهم حتى عرض سعد بن الربيع ، الأنصارى على أخيه عبدالرحمن بن عوف المهاجرى نصف ماله ، وكان له زوجان فقال : اختر إحداهما أطلقها وتزوجها . وإلى هذا الولاء بين المهاجرين والأنصار يشير الله تعالى بقوله : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض[1] » .

وهناك من النصوص الشرعية ما يدل على عدم اعتراف الإسلام بهذا النوع من الولاء . وذلك كقوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض[2] » . وكقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا حلف فى الإسلام » لأن الإسلام أغنى عن ذلك إذ يقول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة[3] » .

ومن أجل ذلك نشأ اختلاف العلماء فى شأن ولاء الموالاة : هل أقره الإسلام أو أبطله وألغاه ؟. روى أن الشعبى كان يقول : « لا ولاء إلا ولاء العتاقة » . وبه أخذ الشافعى والإمام مالك وهو مذهب زيد بن ثابت . وهؤلاء يرون أن آية « وأولو الأرحام » نسخت آية « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » وأن هذا كان فى الجاهلية وفى بدء الإسلام ، ثم أبطله الإسلام وألغاه حيث كان هو نسب من لا نسب له وناصر من لا ناصر له ، وأن المؤاخاة التى عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار انقطعت فى الميراث وبقيت فى التواد والمناصرة حينما أعز الله الإسلام وجمع الشمل وأذهب الوحشة وجعل المؤمنين كلهم إخوة .

والمروى عن عمر وابن مسعود وعلى وابن عباس أن الإسلام قد أقر عقد الموالاة

---

(١) سورة الأنفال آية ٧٢ . (٢) آخر سورة الأنفال (٣) سورة الحجرات آية ١٠

وبهذا قال الحنفية . والذى يترجح عندى هو ما ذهب إليه الأحناف لأن الرسول عليه الصلاة والسلام سئل عن رجل أسلم على يد رجل آخر ووالاه فقال عليه الصلاة والسلام « هو أحق الناس به محياه ومماته » .

وأما آية « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » فإنها نزلت لأنهم كانوا يقدمون هؤلاء الموالى على ذوى الأرحام فى الميراث . وعلى ذلك يكون قوله تعالى : « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » مقيد بعدم وجود أحد من ذوى الأرحام فإن وجد ذوو الأرحام فبعضهم أولى ببعض . ومرتبة مولى الموالاة تكون بعد ذوى الأرحام[1] » .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام « لاحلف فى الإسلام » فيقصد به النهى عما كان يحصل من العرب فى الجاهلية ، أى لاينبغى أن يكون فى الإسلام حلف مثلما كان يحصل فى الجاهلية إذ كانوا يتعاقدون على النصرة فى الحق والباطل ، ويقدمون مولى الموالاة على ذوى الأرحام . فالإسلام ألغى القبيح من ذلك وأقر الحسن ؛ فأوجب التعاون على البر والتقوى حيث قال : « وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان[2] » . وقدم أولى الأرحام فى الإرث على مولى الموالاة فقال : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » ولاشك أن هذا إجراء حكيم يتمشى مع المنطق السليم . ومن أجل ذلك ترجح عندى مذهب الأحناف فى هذا الموضوع .

ولعل من إتمام الفائدة أن نذكر بعض أحكام هامة ذكرها الأحناف حول ولاء الموالاة فنقول :

إن ولاء الموالاة قد نشأ عن عقد التحالف — كما ذكرنا من قبل — وأساس العقود أن تصدر ممن هو أهل لإصدارها حتى يترتب عليها أثرها المقصود . لذلك اشترط فيمن يصدر منه الإيجاب فى عقد الموالاة أن يتوفر فيه البلوغ والعقل والحرية .

---

(١) فتح المعين على شرح الكنز فقه حنفى حـ ٣ ص ٢٨٦ ، تكملة فتح القدير حـ ٧ ص ٢٨٩ .
(٢) سورة المائدة آية ٢

ولما كانت العرب تتناصر بالقبائل أغناهم ذلك عن الموالاة ، ومن هنا قال الأحناف : يشترط ألا يكون المولى عربياً لأن نسبهم معروف وقد أغناهم التناصر بالقبائل عن التناصر بالموالاة . كما أنهم يشترطون أن يتضمن عقد الموالاة دفع السيد للدية إذا جنى المولى جناية على أن يرثه السيد بعد موته . ويشترطون ألا يكون له ولاء عتاقة لأن المعتق هو صاحب الحق إذ ذاك . وألا يكون له ولاء موالاة مع أحد وقد دفع الدية عنه فى جناية ما . لأن دفع الدية يستتبع ثبوت الولاء للسيد بجميع حقوقه . ولو دفع عنه بيت المال الدية فإن ولاءه يكون لجماعة المسلمين ، ولا يملك تحويله إلى أحد بعينه ... إذا توفرت هذه الأحوال فى عقد الموالاة ترتب عليه آثاره المقصودة منه . وصار ولاؤه لمن تحالف معه ، وبمقتضى هذا الولاء يرثه بطريق التعصيب . وتكون رتبته بعد ذوى الأرحام كما تقدم لضعفه عن ولاء العتاقة الذى جعلت رتبته بعد العصبة النسبية وقبل ذوى الأرحام . وبهذا يخالف ولاء الموالاة ولاء العتاقة .

وهناك نوع مخالفة أخرى وهى أنه لو اشترط فى عقد الموالاة التوارث من الجانبين صح وورث كل منهما صاحبه . أما ولاء العتاقة فالمعتق لا يمكن أن يرث سيده .

أما باقى الأنواع مما كان يتعامل به العرب فى الجاهلية فإن الإسلام لم يقرها ولم يعبأ بها بل هدمها وهددهم عليها بالوعيد الشديد ... فمن ذلك مولى الرحم فقد كان يكتسب الولاء بالتزوج من موالى بعض القبائل فينسب إلى القبيلة التى تزوج من مواليها ، وقد أبطل الإسلام هذا النوع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من والى قوما بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا » (١) .

ومعقول أن زواج المولى من موالى قبيلة أخرى لا يكون مبرراً لنقل ولائه إلى تلك القبيلة لأنها لم تكن صاحبة نعمة وفضل عليه بنحو عتق أو تحالف على النصرة

---

(١) ابن عابدين ص ٨١ ، ٨٢ جـ ٥ .

والمودة ، وإلا سادت الفوضى وتبرم كل مولى بسيده وانتقل بولائه إلى من يحب ويهوى . وفى ذلك تفويت حق المنعم .

وظاهر الحديث أنه إن أذن له مواليه بالانتساب إلى غيرهم جاز . ولكن يجب ألا يفهم هذا من الحديث . لأن التقييد فى الحديث قد جاء على الغالب . فإن غالب ما يقع من هذا إنما يكون بغير إذن الموالى . ونظير ذلك قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » . فلا يقصد من الآية حل قتل الأولاد إذا لم يخش الفقر . ولكن هذا القيد لبيان أن غالب ما كان يحصل إنما هو بسبب خشية الفقر .

وإذن فولاء الرحم باطل . وكما لا يجوز للشخص أن ينتسب إلى غير أبيه لا يجوز له أن يتولى غير مواليه .

وقد رأيت أن يختم هذا الموضوع ببيان بعض أحكام تتعلق بالولاء كان العرب يتعاملون بها ويسيرون عليها فى الجاهلية فأبطلها الإسلام مراعياً فى ذلك المصلحة العامة ومتمشياً مع العقل والحكمة .

فمن ذلك أنهم كانوا أحياناً يعتقون عبيدهم سائبة . والسائبة كما جاء فى القاموس : المهملة ، والعبد يعتق على أن لا ولاء له لأحد . ومن ذلك سالم مولى أبى حذيفة بن عتبة كان مملوكا لبثينة امرأة أبى حذيفة فأعتقته سائبة . والإسلام لم يقر مثل هذا العمل الخاطئ محافظة على تلك النسمة أن تصبح شريدة طريدة الجوع والعرى وعوادى الزمن . روى هذيل بن شرحبيل قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال إنى أعتقت عبداً لى جعلته سائبة فمات وترك مالاً ولم يدع وارثاً . فقال عبد الله : إن أهل الإسلام لا يسيبون . وإنما كان أهل الجاهلية يسيبون . وأنت ولى نعمته ولك ميراثه . وإن تأثمت وتحرجت فى شىء فنحن نقبله ونجعله فى بيت المال [1] .

ومن ألاعيبهم فى الجاهلية أنهم كانوا أحياناً يبيعون المملوك ويشترطون الولاء

---

(١) صحيح مسلم ج ١٠ ص ١٤٨ .

لأنفسهم . وقد اعتبر الإسلام مثل هذا من الشروط الفاسدة التي لا يترتب عليها أثر .

روى ابن عمر أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أرادت أن تشتري جارية فتعتقها . فقال أهلها : نبيعها لك على أن ولاءها لنا . فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « لا يمنعك ذلك فإنما الولاء لمن أعتق » (١) . ثم قال : « ما بال أناس يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ؟ من اشترط شيئاً ليس في كتاب الله فليس له وإن شرطه مائة مرة » (٢) .

وكانوا أحياناً يبيعون الولاء ويهبونه . وقد ألغى التشريع الإسلامي ذلك ونهى عن مثل هذه التصرفات . لأن الولاء أمر معنوي كالنسب . فكما أن النسب لا يباع ولا يوهب ، كذلك الولاء . روى عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الولاء وعن هبته (٣) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الولاء لحمة كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب ولا يورث » (٤) .

وبهذا قضى الإسلام على تلك الأساليب المنكرة التي كان مبعثها الأنانية والجهل وأقام مكانها مبادئ سامية ترمي إلى المصلحة العامة وتصلح لسياسة الأمم والشعوب في جميع الأزمنة والعصور .

(١) فتح الباري جـ ٥ ص ٢٥٨ .
(٢) فتح الباري جـ ٥ ص ١٠٣ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) نيل الأوطار للشوكاني جـ ٦ ص ١٨٨ .

فهرس الاعلام (١)

---

(١) لم نذكر في هذا الفهرس أسماء المؤلفين لوجودها في فهرس المراجع ، وأيضا تركنا بعض الأسماء التي ليست لها أهمية كبيرة .

فهرس الأماكن والبلدان

مراجع الكتاب حسب الترتيب الزمني

المراجع العربية

١) جرير ١١٠ هـ « ديوان جرير بن عطية الخطفي » .

٢) أبو يوسف ١٩٢ هـ « الخراج » ليعقوب بن ابراهيم . المطبعة السلفية .

٣) يحيى بن آدم ٢٠٣ هـ « الخراج » . المطبعة السلفية .

٤) ابن هشام ٢١٣ هـ « سيرة ابن هشام » لأبي محمد بن عبد الملك .

٥) ابن عبد الحكم ٢١٤ هـ « سيرة عمر بن عبد العزيز » .

٦) أبو عبيد ٢٢٤ هـ « الأموال » لأبي عبيد القاسم بن سلام .

٧) ابن سعد ٢٣٠ هـ « الطبقات الكبرى » لأبي عبد الله محمد بن سعد طبع ليدن ١٣٢٢ هـ .

٨) الجاحظ ٢٥٥ هـ « البيان والتبيين » . لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .
مطبعة الفتوح ١٣٣٢ هـ .

٩، ١٠) ابن قتيبة ٢٧٦ هـ ا « عيون الأخبار » . طبع دار الكتب الملكية .
ب « المعارف » . المطبعة الاسلامية ١٣٥٣ هـ .

١١، ١٢) البلاذري ٢٧٩ هـ أحمد بن يحيى بن جابر .
ا « فتوح البلدان »
ب « أنساب الأشراف » طبع الجامعة العربية بفلسطين ١٩٣٦ م .

١٣) الدينوري ٢٨٢ هـ أحمد بن أبي داود الدينوري .
« الأخبار الطوال » . طبعة ١٣٣٠ هـ .

١٤) البحتري ٢٨٤ هـ أبو عبادة الوليد بن عبيد .
« كتاب الحماسة » ط الأب لويس شيخو ١٩١٠ م .

١٥) المبرد ٢٨٥ هـ أبو العباس محمد بن يزيد .
« الكامل » . مطبعة التقدم ١٣٢٤ هـ .

١٦) اليعقوبي ٢٩٢ هـ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر .
« تاريخ اليعقوبي » . ط النجف ١٣٥٨ هـ .

١٧، ١٨) الطبري ٣١٠ هـ أبو جعفر محمد بن جرير .
ا « تفسير الطبري » .
ب « تاريخ الأمم والملوك » . المطبعة الحسينية .

١٩) الأشعري ٣٢٤ هـ الإمام أبو الحسن الأشعري .
« مقالات الاسلاميين » . ط استامبول ١٩٢٩ م .

٢٠) الجهشياري ٣٣١ هـ أبو عبد الله محمد بن عبدوس .
« الوزراء والكتاب » . مطبعة حنفي .

٢١) المسعودى ٣٤٦ هـ أبو الحسن على بن الحسين .
« مروج الذهب ومعادن الجوهر » . المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ
٢٢) ابن عبد ربه ٤٣٩ هـ أبو عمرو أحمد بن محمد .
« العقد الفريد » المطبعة الشرقية ١٣١٦ هـ
٢٣) الكندى ٣٥٠ هـ أبو عمر محمد بن يوسف الكندى .
« كتاب الولاة وكتاب القضاة » بيروت ١٩٠٧م . مطبعة الآباء اليسوعيين .
٢٤) الأصفهانى ٣٥٦ هـ أبو الفرج على بن الحسين .
« الأغانى » . ط ساسى .
٢٥) ابن القوطية ٣٦٧ هـ أبو بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية .
« تاريخ فتح الأندلس » .
٢٦) ابن النديم ٣٨٥ هـ محمد بن اسحاق النديم البغدادى .
« الفهرست » . المطبعة الرحمانية .
٢٧) المقدسى ٣٨٧ هـ أبو عبد الله محمد بن البشارى .
« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ط ليدن .
٢٨) البغدادى ٤٢٩ هـ الامام أبو منصور البغدادى .
« الفرق بين الفرق » . مطبعة المعارف .
٢٩) الماوردى ٤٥٠ هـ أبو على الحسين على بن محمد .
« الأحكام السلطانية » . مطبعة السعادة .
٣٠) الحصرى ٤٥٣ هـ أبو اسحاق ابراهيم بن على .
« زهر الآداب أو ثمر الألباب » . المطبعة الرحمانية ١٣٤١هـ .
٣١) البيهقى ٤٥٨ هـ « السنن الكبرى » للبيهقى .
٣٢) ابن عبد البر ٤٦٣ هـ « الانباه على قبائل الرواه » لابن عبد البر .
٣٣) الواحدى ٤٦٨ هـ أبو الحسن على بن أحمد .
« أسباب النزول » . ط هندية ١٣١٥ هـ .
٣٤) الفيروزبادى ٤٧٦ هـ أبو اسحاق ابراهيم بن على الفيروزبادى . الشيرازى « المهذب » فى فقه الشافعية .
٣٥) السرخسى ٤٨٣ هـ أبو بكر محمد بن أحمد السرخسى .
« المبسوط » فى فقه الحنفية .
٣٦) الغزالى ٥٠٥ هـ أبو حامد الغزالى .
« إحياء علوم الدين » ط لجنة نشر الثقافة الاسلامية .
٣٧) البغوى ٥١٦ هـ « مصابيح السنة » .
٣٨) الشهرستانى ٥٤٨ هـ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .
« الملل والنحل » طبعة على هامش « الفصل لابن حزم » .

٣٩) ابن عساكر ٥٧١ هـ أبو القاسم على بن الحسين .
« التاريخ الكبير » . مطبعة روضة الشام .
٤٠) ابن الجوزى ٥٩٧ هـ جمال الدين أبو الفرج .
« تاريخ عمر بن الخطاب » . مطبعة التوفيق الأدبية .
٤١) المطرزى ٦١٠ هـ أبو الفتح ناصر بن عبد السيد .
« المغرب فى ترتيب المعرب » .
٤٢، ٤٣) ياقوت ٦٢٦ هـ شهاب الدين أبو عبد الله الحموى .
ا « معجم الأدباء » ط الدكتور رفاعى .
ب « معجم البلدان » . مطبعة السعادة .
٤٤، ٤٥) ابن الأثير ٦٣٠ هـ أبو الحسن عز الدين بن على المعروف بابن عبد الواحد الشيبانى .
ا « أسد الغابة فى معرفة الصحابة »
ب « الكامل فى التاريخ »
٤٦) اليابسى ٦٥٣ هـ يوسف بن محمد اليابسى .
« الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام » . مخطوط بدار الكتب الملكية رقم ٣٩٩ تاريخ
٤٧) الفتح الأصفهانى القرن السابع الهجرى الفتح بن على البندارى الأصفهانى .
« زبدة النصرة ونخبة العصرة » .
٤٨) ابن أبى الحديد ٦٥٥ هـ عز الدين بن عبد الحميد بن هبة الله المدائنى .
« شرح نهج البلاغة » .
٤٩) النووى ٦٧٦ هـ أبو زكريا محيي الدين بن شرف .
« تهذيب الأسماء واللغات » . ط منير الدمشقى .
٥٠) ابن خلكان ٦٨١ هـ شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم .
« وفيات الأعيان » . ط الوطن .
٥١) ابن عذارى القرن السابع الهجرى « البيان المغرب فى أخبار المغرب » .
٥٢) ابن الطقطقى ٧٠١ هـ محمد بن على بن طباطبا .
« الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية » .
المطبعة الرحمانية ١٣٤٥ هـ
٥٣) ابن منظور ٧١١ هـ « لسان العرب » لابن منظور .
٥٤) ابن كثير ٧٧٤ هـ عماد الدين أبو الفداء الدمشقى .
« البداية والنهاية » .
٥٥) ابن أيبك القرن التاسع الهجرى أبو بكر عبد الله بن أيبك .
« كنز الدرر . وجامع الغرر » .
تصوير شمسى بدار الكتب الملكية رقم ١٥٧٨

٥٦، ٥٧) ابن خلدون ٨٠٨ هـ عبد الرحمن بن محمد .
ا « المقدمة » . ط المطبعة الشرقية .
ب « العبر وديوان المبتدا والخبر » .
٥٨) المقريزى ٨٤٥ هـ تقى الدين بن أحمد المقريزى .
« المواعظ والاعتبار » المعروف بخطط المقريزى .
٥٩) ابن حجر العسقلانى ٨٥٢ هـ « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » .
٦٠) العينى ٨٥٥ هـ بدر الدين محمود .
« عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » .
تصوير شمسى بدار الكتب الملكية رقم ١٥٨٤
٦١) الأتابكى ٨٧٤ هـ جمال الدين أبو المحاسن .
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » .
ط دار الكتب الملكية .
٦٢، ٦٣، ٦٤) السيوطى ٩١١ هـ عبد الرحمن بن أبى بكر .
ا « تاريخ الخلفاء » .
ب « حسن المحاضرة » .
جـ « الوسائل إلى معرفة الأوائل » مخطوط بدار الكتب الملكية رقم ٣٩١
٦٥) الشوكانى ١٢٥٥ هـ محمد بن على الشوكانى .
« نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار » .
٦٦) الألوسى ١٢٧٠ هـ أبو الفضل شهاب الدين .
« بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب » .
٦٧) الجمل القرن الثالث عشر الهجرى الشيخ سليمان بن عمر الشهير بالجمل .
« الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين بالدقائق الخفية » .

بعض المراجع الحديثة حسب الترتيب الأبجدى

٦٨، ٦٩) أحمد أمين (بك) ا فجر الاسلام .
ب ضحى الاسلام .
٧٠) أحمد زكى صفوت جمهرة خطب العرب .
٧١) أحمد الشايب تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى .
٧٢) أحمد شفيق (باشا) الرق فى الاسلام ترجمة المرحوم أحمد زكى باشا .
٧٣، ٧٤) جورجى زيدان ا تاريخ التمدن الاسلامى .
ب تاريخ أدب اللغة العربية .

٧٥،٧٦) حسن إبراهيم حسن (الدكتور) — ا تاريخ الاسلام السياسى ٢٠١
ب النظم الاسلامية .
٧٧) شبلى نعمان — انتقاد كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » .
٧٨) عبد الرحمن بدوى — من تاريخ الالحاد فى الاسلام .
٧٩) عبد العزيز الدورى (الدكتور) — العصر العباسى الأول .
٨٠) عبد العزيز طاحون — الرق فى الاسلام . رسالة مخطوطة بمكتبة الأزهر .
٨١) عبد المقصود نصار — نهاية الحكم الاسلامى بالأندلس . رسالة مخطوطة بمكتبة الأزهر .
٨٢) محمد الخضرى بك (المرحوم) — محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية .
٨٣) محمد سامى عاشور — النظريات السياسية عند اليونان والرومان .
٨٤،٨٥) محمد كرد على — ا رسائل البلغاء .
ب الاسلام والحضارة العربية .
٨٦) محمود زيادة — الحجاج الثقفى . رسالة مخطوطة بمكتبة الأزهر .
٨٧) وجيه الكيلانى — الدعاة من المتألهين والمتنبئين والمتمهديين .
٨٨) مجلة الرسالة

المراجع الأجنبية

(٨٩) دراسات إسلامية للعلامة جولد زيهر (بالألمانية) .
(٩٠) حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون سنة ١٣٨٣ ترجمة محمد عادل زعيتر سنة ١٩٤٥
(٩١) الخلافة ، قيامها وانحلالها وسقوطها ، بقلم ميور صدر بأدنبره سنة ١٨٨٨ الطبعة الرابعة سنة ١٩٢٤ بمراجعة فير
The Caliphate — Muir - Revised by Weir — Edinburgh 1924.
(٩٢) تاريخ الحضارة الاسلامية للمستشرق الروسى بارتولد . صدر بالروسية سنة ١٩١٨ وترجم إلى العربية سنة ١٩٤٢
(٩٣) دراسات فى حكم الخليفة معاوية الأول للاب هنرى لامنس (بالفرنسية) باريس سنة ١٩٠٨
Etudes sur le Régue du Calife Omaiyade Moâwia Ier; Par H. Lammens Paris 1908.
(٩٤) خلافة يزيد للأب لامنس . بيروت سنة ١٩٢١
Le Califat de Yazid 1er - Beyrouth 1921.
(٩٥) دراسات فى القرن الأموى للاب لامنس بيروت سنة ١٩٣٠
Etudes sur le siècle des Omayyades - Beyrouth 1930.
(٩٦) حوليات الإسلام للأمير ليونى كايتانى . ميلانو سنة ١٩٠٥ وما بعدها باللغة الإيطالية .
Annali dell Islam - Leoni Castani - Milano - 1905 etc.
(٩٧) فتح العرب لمصر لبتلر . صدر بالانجليزية سنة ١٩٠٢ (اكسفورد) وترجم إلى العربية محمد فريد أبو حديد بك سنة ١٩٣٣ .
(٩٨) تاريخ الفرس الأدبى لبراون — A Literary History of Persia - E. Browne.

(٩٩) الدولة العربية وسقوطها لفلهوزن . صدر بجوتنجن سنة ١٩٠٢ (بالألمانية) وترجمه مارجريت فير إلى الانجليزية سنة ١٩٢٧ باسم :
The Arab Kingdom and its Fall — Je Wellhausen translated by Margaret G. Weir Calcutta 1927.

(١٠٠) دائرة المعارف الاسلامية فى مواد مختلفة (الأصل الفرنسى) .

(١٠١) دائرة المعارف الإيطالية فى مادة (مولى) .

(١٠٢) تاريخ فارس بقلم سيكس الطبعة الثالثة بلندره سنة ١٩٣٠ .
A History of Persia - by Sykes - 2 vols 3rd revised edition - London 1930.

(١٠٣) القومية . تقرير المعهد الملكى للشئون الدولية ـ لندره سنة ١٩٣٩ .
Nationalism - London 1930.

(١٠٤) النظام الجديد للعالم . بقلم مولانا محمد على ـ لاهور سنة ١٩٤٣ .
The New World Order - M. ALI - Lahore 1943.

تصويب

وقعت بعض أخطاء مطبعية يسيرة نعتقد أنها لا تخفى على فطنة القارىء ولكننا نرجو تصحيحها كالآتى :

١٠/١٧ ولا باليوم الآخر ، ١٢/٢ الرواية ، ١٤/١٠ الدية ، ١٤/٢٤ ج ٣، ٢٠٠/٢٠ وإشغالا ، ٣٢/٤ مضر ، ٥٤/١٤ أعطيتى ، ٥٧/٨ ابن الأثير، ٧٧/١ أيوب بن ، ١٢٧/١٥ المهرى ، ١٦٣/٤ النار ، ١٦٣/٢٢ آية ٢٥ ، ١٧٠/١٧ موس ، ١٧٤، ١٢ مخالفة .

●●●●●●●●●●